محمد عبد القادر العماوي

# مستقبل الإسلام

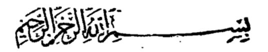
ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر الحديث للطبع والنشر
٤ شارع خيرت بالمالية

اهداءات ٢٠٠١

محمد عبد القادر العماوي




دار الفكر الحديث للطبع والنشر
٤٠ شارع خيرت بالمالية



# مُقَدِّمَة

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ صدق الله العظيم .

بهذه الآية السماوية الكريمة التي نزل بها الوحي الحكيم نبتدىء مقدمة كتابنا الثاني في الدراسات الإسلامية ، ونحن نعلم أن كثيراً من ذوي البصائر النيرة ، والقلوب الواعية سيستقبلونه مغتبطين منشرحين كما استقبلوا أخاً له من قبل ، وأن آخرين من ذوي الأفكار الرجعية ، ومن ذوي النزعات الإلحادية ، ومن ذوي السلطات الأوتقراطية . سيستقبلونه بوجوم وغضب وفزع . . . ! فإلى هؤلاء الآخرين سواء من الرجعيين الجامدين ، أو من ذوي النزعات الإلحادية ، أو السلطات الأوتقراطية الذين يتضايقون ويفزعون من كل حركة تجديدية تحمل في طياتها الحق ، وتدعو إلى الإصلاح ، وإلى النهوض بالكرامة البشرية وإحياء العدالة الاجتماعية ...! إلى هؤلاء الذين يخشون أن يتقلص ظلهم على وجه هذه الأرض بإبادة هذا النظام الفاسد الذي يسودون فيه . نقول لهم : خير لكم أن ترجعوا إلى الحق . فإن الحق قديم ، والرجوع

إلى الحق خير من التمادى فى الباطل . ثم تتلوا عليهم هذه الآية الكريمة (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) الكافرون بالحق والعدالة ،والإخاء الإنسانى ، الكافرون بالرقى البشرى ، والسمو العقلى والنفسى ، الفاسقون عن أمر الله بتمسكهم من الدين بالقشور ، وتركهم اللباب .

إن الدارس المتعمق الذى لا يقف أمام الظواهر ، وإنما يسعى إلى ما وراءها يظهر له فى وضوح لا يقبل الشك أن الإنسانية مقبلة على عصر جديد سيسود فيه الدين ، وستكيف حياتها على ضوء ما يدعوها إليه من مبادىء وغايات ، وإن كانت لن تستعير صورة لما كان عليه الدين فى أيامه الأولى . وإنما ستستلهم روح الدين فى كل شىء ، وستسعى دائماً إلى الجوهر . دون أن تتمسك بالوسائل التى كان يصطنعها الدين فى أيامه الأولى ، وذلك هو ما يباركه الدين نفسه ويقره بكل قوته لأن الدين يحفل بحياة الإنسان الدنيوية الراقية، ويهدف دائماً إلى الارتفاع به ، وإلى التسامى والرقى بغرائزه ، وإحساساته ومداركه ، وإلى نظافته النفسية داخلياً ، وخارجياً .

ومما لاشك فيه ، ومما أصبح واضحاً جلياً أن الحضارة الغربية المادية أفلست فى قيادتها للبشر وظهر إفلاسها فى تدهور وانطلاق سريع نحو الانحلال ، وذلك فى النصف الأول من القرن العشرين ، وأنه طرأ عليها من عوامل الخلل ، ومن داعى الفساد ، وتزاحم الشرور والآثام ، ما ينبىء بكارثة عظمى لهذا العالم البشرى لو استمرت قيادته فى يد هذه الحضارة المتحللة من كل معنى من معانى الروح . المقيمة ستاراً كثيفاً بينها

وبين ما يدعو إليه الدين من مساواة ، وعدل ، ويقظة للضمير ، وإحياء للخلق النبيل ، وللمثل العليا الرفيعة للحياة .

ومن المؤكد أن الحضارة الغربية ليست شراً كلها ، وإنما يأتيها الشر دائماً من تغليب الجانب المادى فيها على الجانب الروحانى ! ولسنا نحن عن يخاصمون المادة ، أو يقللون من شأنها فى حياة العالم وسعادته ورخائه لأن ذلك لايقره الدين الصحيح فى شىء ، وإنما يجب أن تتكيف الماديات دائماً بتأثير الروحانيات ودواعيها من المحبة ، والإيثار ، والعدل ، والخلق الحميد .

والشىء الذى لا يمكن أن نغفله هنا . أننا لو نظرنا إلى ما يختمر ضمير العالم الاسلامى الآن لوجدنا أن هناك قوتين عنيفتين متضادتين تتنازعانه . إحداهما : الدعوة إلى الرجوع فى كل شىء إلى الدين بالصبغة التى كان عليها فى عهـــده الأول ، والخضوع للوسائل التى اصطنعها فى معالجة ماكان يطرأ عليه من مشاكل فى تكوين مجتمعه الأول ، والتقيد حرفياً بنظامه السياسى ، والاجتماعى ، والاقتصادى ، وبما أقامه من حدود ، واقتضاه من أقضية . دون نظر إلى التكييف الزمنى ، وطبيعة الظروف والأشياء وراء كل ذلك . ! ثانيتهما : التحلل من الدين كلية فى كل ما يخص شؤوننا الدنيوية . لأن دعاة الرجعية والجمود دائماً ، وفى كل عصر . هم رجال الدين أنفسهم . الذين يخاصمون كل حركة تجديدية ، أو فكرة تطورية . مما يعوق التقدم الفكرى ، ويشل النشاط الدنيوى . ولأنهم كانوا السند القوى للسلطات التى قامت تحكم باسم الدين . والتى منحت لنفسها سلطات أوتقراطية واسعة بغيضة . مع أن هذا النظام

الأوتقراطى ينفر منه الدين ، ولا يقره فى أية صورة من الصور لأنه شر ما ابتليت به الإنسانية قديماً وحديثاً . ويكفى للنفور منه أنه النظام الذى يتولد فى ظله الفساد الخلق ، والنفسى ، ويحمل فى طياته عوامل التأخر والانحلال . والانحطاط !

وإذا كان أصحاب النزعة الأولى لم يتعمقوا فى فهم الدين ، وهضم رسالته للبشر . وذلك لأن الدين فى كل شىء .. فى كل ما دعا إليه من مبادئ ، وما أقامه من نظام ، وفرضه من واجبات ، ونهى عنه من نواهٍ .. فى كل حدوده وتشريعاته . بل حتى فيما أوجبه من أمور تعبدية لا يريد مظاهر أو صوراً متحركة لاروح فيها بقدر مايريد تحقيق أهدافه المثالية، وغاياته العليا بأية وسيلة من الوسائل أو سبيل من السبل ، ولذلك نرى الإسلام فى كل شىء قد ربط بين الأمور التعبدية والسلوك الانسانى برباط قوى متين ! ومع ذلك فلن يتحقق لأصحاب هذه النزعة ما يريدون لتعارضه مع قانون التطور والارتقاء الإنسان والكائنات جميعاً . ولأنهم بذلك يظلمون الدين لتفسيرهم له بهذا المعنى الضيق المحدود مع ما فى الدين من مرونة وقابلية للتطور والتجديد ! ولذلك تبرز لنا العلة من كون القرآن نزل مجملا ! لأنه ترك بذلك مجالا للعقل ، ولسنة التطور ، والارتقاء للإنسان والكائنات . ثم لما يعترض المسلمين من المشاكل الجديدة التى لم يكن يعرفها المجتمع الاسلامى الأول .

ثم إن هناك شيئاً على جانب كبير من الخطورة غفل عنه هؤلاء الداعون إلى الرجوع إلى الشريعة الاسلامية وهو : فقدان المسلمين المعاصرين امكانيات اجتماعية، واقتصادية، ونفسية، كانت متوفرة للمجتمع الاسلامى

الأول قبل أن تشرع له الحدود والمعاملات ، وعلاقة الفرد بالدولة . فمن الثابت أن الأحكام فى الشريعة الاسلامية لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما تدرج التشريع مع مطالب المجتمع . وما كان يطرأ عليه من مشاكل ويقتضيه من أقضية . . ! ومن الروعة المتناهية فى أوامر القرآن ونواهيه أنه كان يحرص دائماً على أن يكون مجاباً فى كل ما يدعو إليه حيث لا يتعارض ألبته مع إمكانيات الناس وطبيعة الظروف والأشياء . فالأحكام. والتشريعات كلها لم تشرع إلا لمجتمع تكونت له إمكانيات خاصة ... فعلى من يطلبون الرجوع إلى الأخذ بما كان عليه الاسلام فى عهده الأول أن يهيئوا المجتمع الاسلامى الحاضر لذلك أولا ، وأن يوفروا له كل الامكانيات التى كانت متوفرة للمسلمين الأول قبل المطالبة بتنفيذ هذه الأحكام والحدود التى تشملها الشريعة . حينئذ نبارك لهم دعوتهم . وننضم إليهم بكل قوة فيما يطلبون .

ثم إن أصحاب النزعة الثانية إذا كانوا يتهمون الدين على ضوء مايرون عليه علماء الدين المحترفين ، وعلى ضوء رصيدهم من المعرفة ، وقوة الادراك وما يصدرونه من فتاوى ليست خالصة لوجه الله ، ولا لوجه الدين ، أو على ضوء أعمال الحكومات الأوتقراطية التى حكمت باسم الدين . والدين منها براء .

إذا كانوا يتهمون الدين على ضوء كل ما ذكرنا . فهم جد مخطئون ، وهم لم يفهموا عن الدين شيئاً ... إن هؤلاء الرجال المحترفى الدعوة إلى الدين . وهذه الحكومات الأوتقراطية التى قامت باسم الدين قد لونت الدين . وما يتفق وأغراضها السياسية . وإن الدارس المنصف للتاريخ

والحق لايتوانى لحظة عن أن يقرر فى ثقة وقوة ، أن التوفيق الذى لازم الاسلام كدين عالمى ، وكأرقى حضارة للبشرية فى دعوته إلى المساواة المطلقة . وإلى العدل . والايثار وتقديس الحق . والارتفاع بالكرامة البشرية . . هذا التوفيق قد تخلى عنه فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان لتفريطه فى ركن خطير من الأركان التى قامت عليها الدعوة وهو الركن الاجتماعى مما سنسهب فى شرحه فى الفصل الثانى من الكتاب ! وبتولى الأمويين الحكم وفيه ولدت هذه الفرق الضالة المضلة التى تفرعت عنها فيما بعد فرق كثيرة خرجت بالاسلام عن طبيعته السمحة وكانت عوامل هدم للاسلام مما سنفرد عنه فصلا كاملاً فى هذا الكتاب .

فعهد الأمويين ، ومن بعدهم العباسيين ، وما ظهر فيهما من أوتقراطية فى الحكم ، ومن تأويلات لاهوتية للدين السمح ليست كلها من الاسلام فى شىء . ! فمن أراد أن يعرف الاسلام الصحيح فليرجع إلى عهوده الثلاثة الأولى فقط وهى عهد النبى وخليفتيه أبو بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب . ولا نستثنى بعد ذلك عهداً من العهود اللهم إلا العهد الذى تولى فيه الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز مقاليد المسلمين ، وسنوفى كل ذلك حقه فيما يلى من فصول هذا الكتاب .

وإذا كان للمال ، وللتنظيم الاقتصادى أثر خطير جداً فى حياة العالم لأنه من الأسس القوية فى تكييف حياته ، وتوجيهها نحو الخير أو الشر . فقد أعطاه الإسلام حظاً كبيراً من عنايته . وجعله دعامة قوية من دعائم دعوته ... فلم يقيد الملكية الفردية ولا النشاط المالى المشروع ، وذلك حتى لا يحد من النشاط ، والتنافس ، والسعى المتواصل الذى يعود على

الفرد بطريق مباشر ، وعلى المجتمع بطريق غير مباشر . فقضى بذلك على الـكسل والخمول الذى ينتاب الإنسان . إذا ما وجد أمامه قيوداً أو قوانين تحد من نشاطه وحريته ، وسعيه ، وعلى ذلك فقد جعل المـال فى ذاته وظيفة اجتماعية يسعد بها الفرد فى رفع مستواه كما يسعد بها المجموع فى توظيف هذا المال فى مشاريع حيوية تعود عليه بالنفع ، وتلبى مطالبه الحياتية : فالمال فى يد الفرد السفيه المترف المتلاف العاطل من كل المواهب حرام بنص القرآن الـكريم ( ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ) والمجتمع الذى يقر النظام الإقطاعى . والنظام الاحتكارى بعيد عن الإسلام كل البعد . لأنه يخلق نظام الطبقات الذى حاربه الاسلام فى غير كلل ولا ملل . لأنه يتولد فى ظله الفساد فيمن يملك كل شىء ، وفيمن لا يملك شيئاً . فالأول يعيش لاشباع غرائزه البهيمـية ، والثانى يبيع عرضـه ونفسه ، ويتخلق بأشنع الصفات ، ويتردى فى مهاوى الرذيلة بدافع الحاجة . وليوفر مطالبه الحياتية . وسنتحدث عن كل ذلك فى فصل ( الاسلام والحضارة الحديثـة ) .

بقى أن نقول فى ختام هـذه المقدمة إن الذى دفعنا على أن نقوم بإخراج هذا الـكتاب عن « الاسلام ومستقبله » ولمـا يمضى على كتابنا الأول فى الدراسات الاسلامية عام واحد أننا نحس أكثر من غيرنا أن أن العالم الاسلامى لا يعرف شيئاً عن الاسلام الصحيح ، وأن علماء الدين المحترفين قد استمرءوا حياة الـكسل والخمول ، وأصبح فهمهم للاسـلام تقليدياً محضاً . قد أعمتهم المـادة ، وأعماهم الجبن . والحرص على إرضاء السلطان . أن لا ينهون عن منـكر متى كان صادراً عن حاكم

يعطى ويمنع ، ويضر وينفع . وبذلك أصبح الاسلام فى أى مجتمع إسلامى ذهبت إليه إسما على غير مسمى . ! إن حالة أى مجتمع إسلامى الآن فى خلقه ، ونفسيته ومداركه ، وما يسوده من ظلم اجتماعى ، ومن حكم أوتقراطى ، ومن جهل وتأخر ، وانحطاط . ليست من صنع الاسلام الصحيح فى شىء .. وإنما هى رواسب من عقائد ، وتقاليد وعادات غريبة عن الاسلام . أضيفت إليه ظلماً وعدواناً ، وأخذها المسلمون على أنها من الدين ـ لجهل علمائه ـ مما سنكشف الستار عنه . ونفضحه للعالمين فيما يلى من فصول هذا الكتاب .

إن القلم ليضطرم فى يدى مرة أخرى . وأنا أخاطب المثقفين من أبناء الأمم الاسلامية ، أوغيرهم من أبناء الأمم الأخرى فأقول لهم : إن فى الاسلام أعظم حضارة بشرية ، وأسمى إخاء عالمى يعصم قافلة الانسانية مما هى سادرة فيه من ضلال ومن فسوق عن الطريق المستقيم ولكنى أحذرهم من أن يأخذوا الإسلام ، ويعرفوه عن يد رجال الدين المحترفين لعقليتهم التقليدية ، وجمودهم المخيف ، وكسلهم وخمودهم القاتل . ! أو عن يد هذه الفرق التى تنتسب إلى الاسلام مثل الشيعة ، والمعتزلة ، والزيدية ، والاسماعيلية ، والصوفية ، الخ مما كانت فى الواقع عوامل هدم فى جسم الاسلام القوى النابض بالحياة . وإنما عليهم أن يفهموه فى الكتاب المقدس وفى السنة النبوية الصحيحة التى يتفق روحها ، وروح القرآن الكريم . ! ثم فى دراسة عهد النبى عليه السلام ، وعهد خليفتيه الصديق وعمر . وسيظهر لهم ما فى الاسلام من منابع قوة ، ومن عناصر ثروة حضارية ! العالم فى أشد الحاجه إليها الآن بعد تخبطه ، وظلوعه عن الهدى ، وعن الرشاد .

إن القارة الأوربية التى غزت الشرق . وتحكمت فى مقدراته ومجريات حياته ، وسيطرت عليه سيطرة تامة بمنطق الاستعمار فى حالة انهيار تام ظهرت بوادره فى أول هذا القرن . ولكنها بعد الحرب الأخيرة فقدت آخر حصن من المقاومة بعد غزو أمريكا لبلادها اقتصادياً ، وأخلاقياً ، ونفسياً . فأصبحت هى المسيطرة على توجيهها . المكيفة لها حياتها المؤثرة فى مستقبلها بهذا الإله الجديد الذى يسمونه « الدولار » . . . ! . ومن لا يقفون أمام الظواهر ، وبريقها الخداع . يدركون من غير شك مدى الهاوية التى تخطو إليها أوربا بخطوات واسعة . وذلك لما أصبح يسيطر على حياتها من التحلل المسرف من كل القيم الخلقية ، ومن الجشع المسعور فى التكالب على الماديات الحقيرة التى يتبعها حتماً كل الرذائل ، والنقائص البشرية من أثرة واحتيال ، ونصب ، وسرقة . وإن كانت تسمى بأسماء أخرى ..! ثم من إهدار للكرامة البشرية ، والقيم الانسانية فى سبيل لذائذ فانية ، وشهوات دنيئة ...! هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى أن الشرق قد استيقظ بعد نومه الطويل ، وقد أصبح عنده من الوعى ، ومن الرصيد المدخر ، ومن التكافؤ القوى لقيادة الانسانية ما سيحول حتما بين العالم الغربى وبين امتداد نفوذه إلى الشرق وجعله المجال الحيوى لنشاطه الاقتصادى ، والثقافى ، والاجتماعى ... ولكن لا يظنن أحد أننا نغبط الشرق وخصوصاً العالم الاسلامى على ما هو عليه الآن فى نظمه الاقتصادية ، والاجتماعيـــة . لأن هذه النظم تصور إلى حد كبير سياسة الغرب الاستعمارية فى خلق الطبقات . وفى انحسار الثروة إلى جانب من أبناء الأمة قليل العدد وتلاشيها أو منعها عن جانب آخر كبير ، ثم من محاربة كل أنواع الثقافات . والصناعات التى تجعل للأمة

ذاتية خاصة تمنحها العزة ، والثقة بالنفس ، وتهيئها للتنافس فى بلوغ مراحل الكمال . ! فنحن عند ما نتحدث عن الشرق لا نتحدث عن هذه المظاهر ، والأشباح المخيفة التى تتراءى على مسرحه الآن . فإنه فى سبيل القضاء عليها قضاء لاهوادة فيه . وإنما نتحدث عما يكمن فيه من انفعالات ، وقوى مدخرة ستقضى أولا على سيادة العالم الغربى وسيطرته فى مرحلتها الأولى وهو ما بدأت تظهر بوادره الآن . ثم تكون المرحلة الثانية التى تترتب نتيجة للمرحلة الأولى ، وهى عزل الغرب عن قيادة البشرية التى أفلس فيها كل الإفلاس ..!

ويظهر أن التاريخ سيعيد نفسه وسيحقق حكمته ، فيظهر على مسرح الحياة مرة أخرى مؤرخاً سنة الطبيعة وسنة الكون فى أن القوى لا يظل قوياً ، مدى الدهر ، والضعيف لايستمرىء الضعف إلى أبد الآبدين ؟

محمد عبد القادر العماوى

# العقيدة في الإسلام

عندما أمسكت القلم لأكتب هذا البحث عن العقيدة فى الإسلام رجعت بى الذاكرة إلى مايقرب من عشر سنين مضت . ونحن يومئذ فى أول مراحل الشباب . الثائر من كل شىء . المتضايق والمتألم من وضع الشرقيين فى حالة من التأخر والانحطاط المتلمس طريقاً لنهوض الشرق وتحلله من حالته هذه المفزعة المؤلمة ، وكنا نستمع فى ذلك الحين إلى درس فى علم الأديان المقارن فى الجامعة ، وقال الأستاذ المحاضر ما معناه إن الدين اليهودى يشبه بعض الشبه الإسلام ، لاشتراكه معه فى تنظيم المسائل المادية لحياة الإنسان الدنيوية . أما الديانة المسيحية ، فلم تأت إلا لتخاطب الروح فقط ، مخاصمة المادة مقررة انحطاطها ، والاشمئزاز منها . . .

وقمت ثائراً وخاطبت الأستاذ باننى لم أستطع أن أهضم هذا الكلام ثم طلبت منه الإجابة على هذا السؤال وهو : ما هى الغاية التى جاءت تنشدها الأديان . وابتسم الأستاذ ولم يشأ أن يغضب. ثم قال لى ومازالت الابتسامة ماء فمه ووجهه جميعاً . أخبرنا أولا : ماذا تفهم أنت عن هذه الغاية . وأجبت فى شىء من الحدة والثورة بأن الأديان جميعها ما دامت منزلة من عند الله لا تنشد إلا تحقيق سعادة الإنسان فى الأرض ، وتوفير كل الوسائل المادية التى بها يقوى ويتمتع بكل حظوظ الحياة ، وإن

تفسير غاية الأديان بغير ذلك ما هو إلا سموم ينثرها المستعمرون وأذنابهم للقضاء على حيوية الشرق وقوته وازدهاره ليظل خانعا لاستعبادهم وسيطرتهم . ويظهر أن الأستاذ المحاضر رأى أن لاجدوى من المناقشة وأنا فى هذه الثورة والحدة ، وخصوصا وأنه رأى من الطلاب وهم من الشباب الممتلىء قوة وحيوية ميلا إلى رأيى وتحبيذه ، فقال . إن بعض علماء الغرب لم يعترفوا أصلا بنزول الديانة المسيحية . فلا داعى إذاً لحدتك وثورتك ، وخصوصاً فإن علم الأديان المقارن هو الذى يقرر ذلك وكان موعد انتهاء الدرس قد انتهى فانصرفنا جميعا .

إنى أذكر هذه الحادثة اليوم ، وأنا أكتب عن العقيدة فى الإسلام لأقارنها بالعقيدة فى اليهودية ، والمسيحية . فأعتقد أننى كنت يومئذ ثائراً بحكم سنى وبحكم ما كان يحيط بى من ظروف قاسية لحياة الشرقيين عامة والمسلمين خاصة أعمتنى عن سبيل البحث العلمى الذى ينشد الحقيقة أيا كانت .

ولكن مهما يكن من شىء فلا مفر من أن نسجل هنا أن الاستعمار وإن كان يتحمل بعض المسئولية فى ذلك إلا أنه ليس العامل الوحيد الذى كان له أثر فى تأخر الشرقيين وانحطاطهم ، وإنما هناك أشياء أخرى على جانب كبير من الخطورة. هى المسئولة أولا عما أدى بالشرقيين عامة ، والمسلمين خاصة إلى حالة من الاضمحلال ، والاندحار .! وأولى هذه الأشياء ما أضيف إلى عقائدهم الدينية من بواعث النكوص ، والارتداد ، ومن دواعى الفسوق عن السير فى طريق الحياة الصحيح التى جاءت تنشده الأديان جميعا ، وعلماء مقارنة الأديان يقررون

بالإجماع أن العقائد فى الديانات الكتابية قد دخلتها عناصر غريبة عنها من العادات ، والتقاليد ، والأساطير ، ومن الديانات الموضوعة التى اصطنعتها أمم لم تعرف التوحيد الصحيح ، والدارس لكل العقائد الدينية وتطورها يرى أن ديانات الأمم القديمة مثل مصر ، وبابل ، والهند ، والصين ، وفارس ترتبطها جميعا بعض الصلات ، وتتشابه فى غير موضع منها بالديانات الكتابية التى ابتدأت باليهودية ، وانتهت بالإسلام ، ( فقصة(١) الخليقة فى العقائد الاسرائيلية الأولى تشابه قصة الخليقة فى ألواح بابل . وعقيدة ( المخلص ) المنتظر موجودة فى الديانة الفارسية . وموجودة فى الديانة الاسرائيلية . وكان البابليون يؤمنون بأن الانسان تمرد على قسمة الموت . وطمح إلى خلود كخلود الأرباب . فبحث عن ثمرة البقاء فى السماء . وخدعه إله ماكر عن بغيته فناوله بديلا منها ثمرة تشبهها فى ظاهرها ولكن ثمرة الفناء ، وهى ثمرة الحب التى تعطى الفناء فى صورة البقاء ، وهذه فى جملتها لا فى تفصيلها قريبة من المأثورات الاسرائيلية فى هذا الموضوع ) .

غير أننا نعترف هنا رغم وجود هذا التشابه أن الديانات الكتابية جاءت مصححة ومقومة لما قبلها من ديانات فى كثير من المسائل ، وفى كثير من المبادىء إلا أن وجود هذا التشابه فتح ثغرة دخلت منها بعض العناصر الهدامة ، وبعض العناصر الرجعية التى وقفت حجر عثرة أمام تطور هذه الديانات . وجعلت بينها وبين طبيعة التقدم البشرى صراعا عنيفا ، وتناحرا آخيفا ، كان تبادل الغلبة فيه أكثر للعناصر الرجعية

---

(١) كتاب « الله » العقاد .

المدامة ، ولم تستطع الإنسانية أن تستنقذ نفسها ، وتحطم من صلابة هذه العناصر الجامدة الرجعية إلا بتحللها من الدين كلية ، وثورتها على رجاله والقائمين عليه . وإن كانت لم تتحلل من العقيدة ، والوعى الكونى لحقيقة الوجود .

ثانى هـذه الأشياء طبيعة رجال الدين أنفسهم . هـذه الطبيعة التى تتميز بأشياء على جانب كبير من التعصب للقديم أيا كان نصيبه من الفساد .

هذه الطبيعة التى أصبحت كأنها غريزة يتلمسها الباحث فى غير مشقة ولا جهد فيراها ملازمة للكهنة ومحترفى الدعوات الإلهية فى الديانات الوضعية القديمة كما يراها ملازمة للحاخامات والباباوات والمشايخ فى الديانات الكتابية الأخيرة ، وهى ميلهم للعنف والقسوة وحبهم للسيطرة والتغالى فى التزمت ، وحرصهم على بقاء الحال على ما هو عليه ، وقتلهم كل فكرة جديدة لصالح الانسانية وهى ما زالت فى مهدها ، فجعلوا ضمن رسالتهم تعطيل الملكات البشرية فى الانسان ، وهى التى أودعها الله فيه ليميزه عن باقى المخلوقات ، وهى ملكات الاحساس ، والعقل ، والضمير — الاحساس للشعور بالكرامة البشرية ، والتمتع بالحرية الفردية ، والعقل للانطلاق والتفكير ، والخلق والابتكار ، والضمير لمعرفة الحق والباطل ، والشر والخير ، والخطأ والصواب .. !

وإذا كنا نصم رجال الدين الذين سيطروا على مقدرات البشرية بكل هذه الوصمات المخزية . فهناك غيرهم ممن يشتركون معهم فى الاثم وهم الأباطرة والقياصرة والخلفاء والحكام الذين كانوا يدّعون بأنهم ممثلوا الله فى الأرض . ويحملون الناس على الايمان بذلك بالحديد والنار

وبوسائل غاية فى الوحشية والهمجية مما سنحدثك عنه بإسهاب فى موضعه من هذا الكتاب .

والسؤال الذى يلاحقنا أولا هو : هل لابد للبشرية من عقيدة دينية تخضع لها وتنفعل بها . وتكيف حياتها على ضوء ما تدعوها إليه من مبادىء وتعاليم ، وقد رأينا أن العقيدة الدينية كانت فى فترات كثيرة عاملا من عوامل التقهقر والرجعية والجمود والفسوق بقافلة الانسانية عن الطريق المستقيم . . ؟؟ هل يمكن للانسانية أن تكوّن مجتمعاً بشريا لا دينيا يعيش فى سلام واطمئنان ، وسعادة ووئام ، ويصطنع حضارة لا دينية تستطيع أن تغذى ما ركب فيه من عواطف واحساسات . وشعور . ليتوفر لها هدوء القلب واطمئنان الفؤاد ، ويقظة الروح . ؟؟ إننى كثيراً ما سألت نفسى هذا السؤال واستنطقت ما حوالى من أمور وأشياء ، وما يحيط بى من كائنات حية أو جامدة ناطقة أو صامتة . هادئة أو مضطربة فكان الجواب الجازم الصارم . أن لا بد للانسانية من عقيدة ، ولا بدلها من إلـه . وإلا أصبحت مشوهة مبتورة يتهددها العدم والانقراض .

إننى عندما أبحث فى أصل الانسان الأول وترقيه . وخروجه من حياته الحيوانية الهمجية . أجد أن ذلك كان بسبب اكتشافه للروح ، وإيمانه بالإلـه حسب ما كان يتصوره خياله القاصر وعقله العاجز . ووعيه المعدوم . . . ! إن الطبيعة البشرية يساهم فى تكوينها وتغذيتها جزء كبير جداً من الايحاءات القلبية والانفعالات النفسية الشفافة المرهفة التى تحتاج إلى أن تتغذى وتهضم ، وتؤدى وظيفتها كما تؤدى

كل خلية من خلايا الجسم عملها ، وإلا أصبحت ناقصة شوهاء مبتورة يتهددها الفناء والعدم بين لحظة وأخرى ، وهذا الغذاء لا يتأتى إلا عن طريق الروح التى خلقت مع وجود الانسان ودرجت داخل نفسه تضعف وتقوى فيه حسب ما كان يتنازعه من اضمحلال وارتقاء ، ومن اضطراب وهدوء . . ! وإلا من التفكير الميتافيزيقى فى حقيقة الكون، وما وراء الطبيعة الذى تأثر به أول ما تأثر فى مرحلته البدائية الأولى ، وأصبح عنصراً خطيراً فى تكييف نفسه ، ومجرى حياته . !

وأحب أن أنبه هنا إلى أمر خطير جداً لم يتداركه بعض المؤرخين الذين تخصصوا فى دراسة الديانات ، وأرخوا ما كان يعتورها من ثورات عليها ، وتخلص منها ، ومحاولة لأبادتها . فإن ذلك فى الواقع لم يكن ضد طبيعة الديانات نفسها ، أو بمعنى آخر . لم يكن ضد العقيدة ذاتها ، وإنما كان ذلك فى الواقع ضد ما تدعو إليه هذه الديانات من تعاليم ومبادىء ونظم تصطبغ بالرجعية ، والجمود ، والانتكاس ، أضيفت إليها ظلماً أو استعيرت لها من أمم ومجتمعات قديمة كان يسودها التأخر ، والجهل والظلام ، أو انبعثت من القائمين عليها بعد عصورها الأولى لعوامل كثيرة أغلبها سياسى ، أو اجتماعى ، أو اقتصادى . . ! فنحن عندما نسأل أنفسنا ؟ هل الديانات جاءت للارتفاع بالبشرية والتقدم بها إلى الأمام . أم جاءت لتكون عاملا من عوامل تقهقرها ، وفسادها ؟ يبرز لنا الجواب الذى لا يختلف فيه اثنان : وهو أن الدعوات الالهية جميعها لم تأمر إلا بفعل الخير ، والعمل الصالح وكانت فى حقيقتها حافزاً قوياً لخروج الانسان من منطقة اللاإدراك إلى منطقة الادراك ، وكانت

دافعاً قوياً له إلى تكوين هذه المجتمعات البشرية التى ارتقت به شيئاً فشيئا ، بعد أن كان هائما على وجهه فى الغابة ، يعيش فى دائرة فردية قلقة، وفى فزع ورعب مخيف . . ! فهذه الثورات التى قامت ضد الدين لم تكن فى الحقيقة موجهة إلى طبيعة الدين نفسه ، وما جاء ينشد تحقيقه من غايات إنسانية نبيلة ، وإن كانت فى ظاهرها كذلك ، وإنما كانت موجهة ضد عوامل الهدم ، وبذور الفسوق عن الحقيقة التى كانت تتمثل آنئذ كلها فى رجال الدين . . !

وإنى لا أكون مغالياً إذا قلت إن هذه الثورات التى قامت وأسفرت عن عدائها للدين ورجاله ، وخطت بالبشرية هذه الخطوات الرائعة نحو التقدم والرقى ، وفكت عن الانسان أسار العقل ، وعبودية الضمير . إنما كانت فى الواقع حملة إنقاذ للعقيدة الإلهية الصحيحة وإن كان يخيل لبعض المفكرين غير ذلك . . إننى دائماً عندما أفكر فى الدين أسأل عن الغايات التى جاء ليحققها . ثم أسير فى أسرع طريق يوصلنى إلى هذه الغايات فى قوة . ومضاء . . ! وهل جاء ينشد الدين — أى دين — فيما دعا إليه من تعاليم ونظم ، وما أمر به من عبادات ، إلا تكوين مجتمعات إنسانية ، نظيفة راقية ، تؤمن بالخلق والكرامة والسمو ، وتخضع للضمير ، وتكيف حياتها على نمط وأسلوب يتفق مع العدل لتعيش فى وئام وسلام .

إننا عندما نحب أن نفهم الدين على حقيقته يجب أن ننظر إليه جملة واحدة ، ويجب أن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنه مكمل بعضه بعضاً . مثل الذرات التى تتفاعل مع بعضها لتؤدى عملها بتماسكها واجتماعها ببعض ،

ويجب أن لا يغيب عن بالنا ألبتة أن الأصل فى كل شىء هو «الجوهر»، وليس «المظهر»، والدين فى صبغته، وفيما كان يصطنعه من وسائل ليس إلا صدى وتصويراً للمجتمع الذى نزل فيه ليخرجه من حالة سيئة إلى حالة حسنة بالوسائل والعلاج الذى يراه . ولكن هدفه الذى يرمى إليه أبداً، والذى يجب أن نجعله نصب أعيننا دائماً هو الرقى البشرى داخليا وخارجيا . فيجب ألا نتجه بأنظارنا دائماً إلا إلى الجوهر ، وإلا إلى الغايات .

وإذا كان لنا ونحن نتكلم فى العقيدة الالهية . وهى أنها ضرورية للبشر لا غنى لهم عنها ، وأن الانسانية فى تقدمها ، وقفزها هذا السريع ستكتشف اضطرارها إليها أكثر فأكثر فإننا نحب قبل أن نأخذ فى بحث العقيدة فى الاسلام أن نقرئك رأياً يخالف رأينا ويصور المجتمع البشرى اللاًدينى مع تعقيبنا عليه وهو للكاتب الباحث جان مارى جويو

قال «قديماً(١) كان الدين أخلاقاً وقانوناً وفلسفة وكل شىء : فكانت الأخلاق البدائية دينية . وكان القانون البدائى دينيا . ولم تنفصل الفلسفة، ولا نفصل العلم عن الدين إلا فى عصور متأخرة . وإذا كان للمجتمعات كلها أديان تؤمن بها فلأن للدين فى الحالة الحاضرة منفعة عظيمة . بل لأنه ضرورة حيانية . لأنه وسيلة للبقاء والنماء، إن كل مجتمع من المجتمعات يحس إحساسا غامضاً بشروط بقائه ونمائه تقوده فى ذلك غريزة لا تخطىء . فكما يوجد لنفسه حكومات وقوانين تضمن بقاءه ،

---

(١) هذا الفصل تصوير لرأى جويو فى الدين منشأه : وعلاقته بالمجتمع والحياة ترجمة الأستاذ سامى الدروبى .

وتعمل على نمائه فكذلك يكون لنفسه اعتقادات بصدد حياة الكون ، ومبدأ الأشياء ، ومصير الانسان فى صورة تتفق مع مصلحته الاجتماعية، وتنسجم مع شروط وجوده وتقدمه . إن العاطفة الاجتماعية هى العنصر الدائم فى الشعور الدينى . حتى ليمكن أن نعرف الكائن المتدين بأنه كائن محب للاجتماع لامع الكائنات الحية التى تطلعه عليها التجربة فحسب ، بل ومع كائنات وهمية ينسجها خياله ، ويملأ بها العالم . فالدين إذاً استئناس للوجود ويمكن أن نعرفه بأنه تفسير فيزيائى وميتافيزيقى وأخلاقى لكل الأشياء بتشبيهها بالمجتمع الانسانى ، واختلاف الأديان ، إنما يرجع خاصة إلى اختلاف النماذج الاجتماعية التى يتصور الانسان الكون على مثلها وتتجلى الصفة الاجتماعية التى للدين فى العبادات التى بواسطتها يتصل الناس بآلهتهم مجتمعين . غير أن العبادات الدينية تزداد مع الزمن رفاهة ومثالية فتحل العبادة الداخلية محل العبادة الخارجية ويحل التصوف محل الأسطورة ! ويمكن حصر الصفات الأساسية لكل دين فيما يلى :

(١) تفسير الطبيعة تفسيراً غيبيا . وهذا التفسير الغيبى موجود حتى فى الأديان الراقية إذ تؤمن بالمعجزات .

(٢) طائفة من الاعتقادات يعدونها حقائق مطلقة .

(٣) مجموعة من الطقوس والعبادات يعدونها ذات تأثير خارق للطبيعة . فهذه هى العناصر الثلاثة التى يتألف منها كل دين . وهذا الدين صائر إلى الزوال إلا أن زواله لايتم مباشرة ، ولايأتى من الخارج . فهو ينتج عن زوال شروطه الحياتية الداخلية ، ويتم هذا الزوال تدريجيا مع

تقدم الصناعة والعلم . والفردية الأخلاقية، ومن السخف أن نتحدث عن دين المستقبل ، وإلا كنا كمن يتحدث عن مستقبل « لعلم الصنعة » أو « علم التنجيم » إن العلم الوضعي لا يمكن أن يتفق مع الكشف السماوى والمعجزة . لقد بعدنا الآن كل البعد عن الزمان الذى كان يقول فيه باسكال : ( إن المعجزات برق يرينا الله ) .. وكل المحاولات التى قام بها بعض الناس لتأسيس ديانات جديدة للمستقبل محاولات فاشلة . تستوى فى ذلك « ديانة الانسانية » عند أوجوست كونت و « ديانة التعالى » عند أمرسون وباركر و « ديانة الأخلاق » عند الحاخام الأمريكى فايكس آدلر . . سيحل محل الاديان الحالية « لادين » .

غير أن « اللاّدين » لا يعنى « ضد الدين » ، فهو فى الواقع درجة من الدين أعلى تنهدم فيها العقائد ، ويبقى من الدين خير ما فيه . إن اللاّدين لا يزيد على أن ينكر العقائد والسلطات والتنزيل والوحى والمعجزات والخرافات والعبادات . وهذا لا يعنى الكفر والالحاد واحتقار الجوهر الميتافيزياقى الأخلاقى فى المعتقدات القديمة فأن يكون الانسان « لا دينيا » فليس معنى ذلك أنه « ضد الدين » سيحتفظ اللاّدين بأنقى ما فى الشعور الدينى : سيحتفظ بالاعجاب بالكون ، وبما ينطوى عليه من قوى لامتناهية ، وسيحتفظ بالسعى إلى مثل أعلى ليس فرديا فحسب ، بل اجتماعيا أيضاً ، بل كونيا كذلك فاللاّدين مرحلة من الدين ، فى حضارة أرقى وأرفع ، فسيكون نوعا من الميتافيزياء العقلية تتناول الأصل ، وتبحث فى المصير . وكما أن المثل الأعلى الأخلاقى يجب أن يكون عدم التقيد بأية قاعدة قطعية ثابتة عامة ، كذلك يجب أن يكون المثل الأعلى

للدين عدم التقيد بقاعدة دينية ثابتة . والاتجاه إلى حرية الفكر .
وحذف كل إيمان عقيدى مهما كانت الصورة التى يختفى وراءها هذا
الايمان ، فبدلا من أن نقبل عقائد جاهزة نصنع نحن أنفسنا عقائدنا .
يجب أن نتخلص من كل تعصب دينى . إن الايمان وسادة الكسل .
يجب أن يحل الغرض الميتافيزيائى محل العقيدة الدينية . المعرفة والفرض
والتفكير والبحث . هذه هى الكلمات التى تعبر عن روح العصر . لم
نعد فى حاجة إلى عقيدة . وفى وسع الانفعال الميتافيزيائى السامى أن
يساهم فى سمو الحياة الانسانية أكثر من العقائد الدينية . فالتعاطف
مع الطبيعة كلها . والبحث عن سرها ، وحب المساهمة فى تحسينها .
والخروج بذلك من الأنانية إلى الحياة الكونية . ذلك ما سيظل يفعله
الانسان ، لأنه إنسان ، لأنه يفكر ويشعر . ومن الأمور التى ستبقى بعد
زوال الأديان ، والتى لم تحققها الأديان حتى الآن — إلا فى صورة ناقصة — ،
اجتماع الأفراد بحرية للاشتراك فى انفعال فنى رفيع أخلاقى . فذلك
ما سيبقى من الطقوس الدينية ، ولكن هذا الانفعال يمكن ويجب
أن يستقل عن الدين .

إن العلم والفلسفة والأخلاق تؤدى جميعا إلى الشعر ، وتؤدى بالتالى
إلى ما يشبه العاطفة الدينية ، وكلما ضعفت العقائد الدينية وجب على
الفن أن يقوى ويسمو . إن فى الأديان شعراً سيبقى بعد زوال عقائدها
وسيحل محل الأنبياء فرديات متفوقة فى كافة ميادين الفكر الانسانى
فى الشعر ، فى الفلسفة ، فى العلم ، فيستطيع كل منا أن يختار من بينهم
نبيه ، وأن يؤثر العبقرية التى تلائم ذكاءه الشخصى وتتوسط بينه وبين

الحقيقة الخالدة خيراً من غيرها . سيخلق كل امرىء إلهه ، وسيخلق إنجيله ، وسيكون كاهن نفسه . وسيكون من الممكن أن تعيش هذه الاعتقادات المختلفة جنبا إلى جنب كما يمكن أن تعيش النباتات المختلفة فى أرض واحدة .

لن يستغنى الانسان عن الفلسفة . لن يستغنى عن القفز فى المجهول ، إن الفكر الانسانى أشبه بطائر السنونو : لم تهيأ جناحاه لطيران يمس الأرض ، بل لانتفاضة جريئة عالية فى الفضاء الحر ، وإنما المهم إذاً أن ينهض ، وهذا شاق ولا ريب . إلا أن رنوه الأبدى إلى المثل الأعلى لاينى يضع تحت جناحيه هواء . وسيزداد هذا التطلع إلى المثل الأعلى قوة حين يتخلص من الدين . ولقد كانت الأديان تقوم بوظيفة تربوية ، فتعمل على صيانة الشعب المختار ، وحماية التراث القومى ، وواجب التربية الحديثة أن تقوم بهذه الوظيفة ، وهى المحافظة على العرق والعمل على تقدمه ، وهكذا تكون التربية عونا للفن والأخلاق والدين فى هذه النظرة الحياتية الأخلاقية الاجتماعية ، ويمكن أن يعرف علم التربية بأنه ( فن ملاءمة الأجيال الجديدة مع شروط أقوى حياة وأخصبها بالقياس إلى الفرد ، وإلى النوع ، فللتربية غاية اجتماعية وغاية فردية ، وليس لها من غرض إلا البحث عن الوسائل التى توفق بين أقوى حياة فردية وأوسع حياة اجتماعية ) .

إلى هنا وينتهى رأى جويو فى تصويره لمستقبل الدين . ويخيل إلينا لأول وهلة أنه لم يتعمق فى نظرته للدين ، وإلمامه به إلماماً قوياً ، وفهمه لجوهره وغاياته ، والظاهرة التى تتراءى لنا من دراسة جويو للدين أنه

كغيره من المفكرين الذين ناهضوا الدين . قد نظروا إلى العقيدة الالهـية ، وإلى الديانات نظرة لا تخلو من قصور . لأنهم فسروا الأديان على ضوء ما أضيف إليها من أباطيل وترّهات ، وما نسج حولها من خرافات وأساطير ، ولأنهم لم يفهموا الدين جملة موحدة ، وإنما فهموه أجزاء متفرقة مشتتة يناقض بعضها بعضاً فى غالب الأحايين ، وهذا هو الخطأ بعينه الذى ارتكبه رجال الدين أنفسهم وارتكبته هذه الفرق الضالة الكثيرة العدد التى كانت تلتمس لوجودها عوناً فى بضع آيات من التنزيل نزلت لتعالج شئوناً خاصة ، وليست من المبادىء العامة فى شىء . فتفسرها على هواها ، وما يتفق وأغراضها . حتى أصبحت كل فرقة فى تناحر شديد ، وتصارع مستمر مع غيرها مما كاد يقضى على سماحة العقيدة وبساطتها وسموها .

فلو قدرنا ونحن ندرس الديانات عمل البيئة . وحكم الوضع الجغرافى، وطبيعة الظروف التى نزلت فيها الديانات أول ما أنزلت . ولو لاحظنا أن للديانات مبادىء عامة ، وغايات محدودة لا تتبدل ولا تتغير ، وإنما هى باقية ما بقى الزمن وما بقى الانسان ، وإن لها بعد ذلك الوسائل التى اصطنعتها لتحقيق هذه المبادىء ، والوصول إلى هـذه الغايات ، وأنها كيفت هذه الوسائل حسب ما كانت تمليه عليها طبيعة البيئة ، وحكم الظروف التى كانت تحيط بما أنزلت عليهم من أمم غابرة ، وأن المعوّل دائماً ليس فى المحافظة على الوسائل ، وإنما على تحقيق المبادىء ، والوصول إلى الأهداف . . ! إذا قدرنا كل ذلك ، ونحن نتعرض لدراسة الديانات لما وجد من يجرؤ على أن يقول مثل جويو « إن الدين صائر للزوال » .

والحقيقة أننا نجد فى آراء جويو هذه ليس قصر نظر فحسب ، وإنما تناقض شديد ، واستنتاج غريب لا يتفق فى شى مع حقيقة الطبيعة البشرية ، ولا مع سنة التطور والارتقاء للانسان ، والأشياء ، والكائنات . فإذا قضينا نحن كما يقول « جويو » على عقائدنا الدينية الراقية النظيفة التى آمنت بها عقولنا ، واطمأنت إليها قلوبنا وأفئدتنا لنصطنع عقائد جديدة لأنفسنا وفق النظريات العلمية . والاحساسات المتدافقة المتناقضة فى نفوسنا كان ذلك هو مبدأ الحيرة ، والقلق ، والاضطراب ، ومنتهى الخطر على الجنس البشرى التعس ، ذلك أن طبيعة إحساساتنا البشرية ضعيفة عمياء تتأثر ، وتنفعل ، وتتغير دائماً من النقيض إلى النقيض لأنها تخضع فى حياتها لعوامل أخرى خارجة عن إرادتها تكيفها حسب ماتشاء . ولأن عقلنا البشرى يتميز بالعجز والقصور عن الكمال . فلا سبيل له إلى الكمال المطلق أبد الآبدين ، وإلا لوقفت المعرفة الانسانية عند حد معين لا تتعداه وليس ذلك من سنة التطور ، ولا من طبيعة الحياة فى شىء . وإلى هنا ندرك مدى القلق المروع ، ومدى الحيرة والفزع الشديد الذى سيقع فريسته الجنس البشرى ويكاد يقضى على مابقى له من أمل فى الحياة .

ولقد اعترف « جويو » بأن استئناس الانسان وخروجه من حياته الفردية البدائية المتوحشة الأولى . إلى حياته الجماعية المنظمة التى أوجبت له حقوقا ، وفرضت عليه واجبات . كان ذلك أثر من آثار العقيدة الدينية ، وأصبح الدين ملازماً لهذه المجتمعات يتشكل معها بأشكال مختلفة حسب ما كان يتفق لها من وعى وإدراك . فهل نستطيع أن نقضى على هذا العامل الخطير فى حياة الجماعات البشرية إلا إذا أردنا أن يرجع

الانسان القهقرى ليعيش كما كان يعيش أخاه فى الغابة تتسلط عليه الغرائز الفردية المتدنية وتغشاه الأنانية المعربدة القاتلة ، وهل ذلك يتفق فى شىء مع طبيعة التطور فى الانسان والكائنات .. ! ثم يعيب «جويو» بعد ذلك على الأديان إيمانها بالغيبيات ، ويتنبأ بأن إنسان المستقبل سيتخلص منها ، وهذا هو النظر السطحى بعينه .. ! فهل نستطيع نحن أن نبرىء الفلسفة المادية ، والكثير من العلوم الطبيعية من الغيبيات ..! إن كثيراً من هذه الفلسفة والعلوم تقوم فى أصولها على الفروض والتخيلات فإذا لم نسمّ هذه الفروض والتخيلات نوعاً من الغيبيات فماذا نسميها إذاً .. !

ونختتم تعقيبنا على «جويو» بما قاله «كالفين» «إننا إنما نفهم من الدين بمقدار ماوهبنا من نعمة الله» . وبما قاله الكاتب الايطالى «ماتزينى» «.. ليس هناك انتصار للروح أو خطوة ارتقائية للمجتمع البشرى إلا ومرجعهما عقيدة دينية راسخة ، فللدين قيمة سيكولوجية خطيرة فى ضمير الكون وفى أعماق النفس البشرية . إنه سلام للقلب . وراحة للنفس . إنه رصيد كبير من المقاومة لدفع اليأس والقلق الذى يؤدى إلى هدم الانسان وتحطيمه . فلنكن كما قال مفكر غربى «كن كما شاء لك القدر أن تكون مسلماً .. أو مسيحياً .. أو يهودياً .. أو بوذياً .. ولكن لا تنس أن لك ديناً تنزع إليه ، وعقيدة تحرص عليها ، وواجباً نحو الله تؤديه ، فإن هذا مصدر القوة ، والأمل فى الحياة» .

وبعد : فما هى عقيدة الاسلام ؟ ماهيتها ، وطبيعتها ، ماذاتياتها الخاصة التى تنفرد بها ..؟ هل جاءت بتصحيح لماسبقها من عقائد إلهية فى الديانات

الوضعية والسماوية ؟ بماذا تصورت الكون ، وتصورت الناس والأشياء؟ ما التكييف الذى أضفته على حقيقة الوجود وصلته بالعالم ؟ ما التراث الذى خلفته وحظه من القوة والضعف . . ؟

والشىء الخطير الذى لا يمكن أن نغفله عندما نتحدث عن كل ذلك . هـذه الصلة القوية التى تربط التطور البشرى ، مع التطور فى الديانات فما لاشك فيه أن النضوج فى الديانات يسير جنباً إلى جنب مع النضوج فى الانسان ، ونستطيع أن نقرر هنا بدون تحفظ إن الديانات تنقل لنا صورة صادقة من طبيعة العصور والأمم التى نزلت فيها واستعدادها لتقبل التصحيح لفكرة الألوهية على وضع آخر يخالف ما تصورته عنها فيما سبقها من ديانات.

وإذا كان الفيلسوف الانجليزى المتصوف « ألدوس هكسلى » يقول فى كتابه : «الفلسفة الدائمة» .«.. أن جميع الأديان يجمعها رباط واحد ، وتستمد وجودها وحياتها من نبع واحد وتتفق وما تدعو إليه من حب وإيثار ورحمة للانسان » .

فالإسلام يقول : ( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) والمسيحية تقول: ( عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ) واليهودية تقول: ( لا توقع ما يؤذيك بالناس ذلك هو لب التوراة وبقيته تعليقات ) ، والبوذية تقول : (لاتفرض على الناس مايؤلمك) والكنفشيوسية تقول: ( لا تنزل بالناس ما لا تحب أن ينزلوه بك ) ، والهندوسية تقول : ( لا تحدث بالناس ما قد يسبب لك الألم إذا حدث لك ) انتهى .

وقد علقنا نحن على ذلك فى كتابنا ( هذا هو الاسلام ) بقولنا :

« ولكن(١) ذلك كله لن يحملنا على أن نعتقد أن الأديان جميعها صور مكررة فى جوهرها ومبادئها . ومناهجها .ودعواتها لشىء واحد. لأن ذلك يقتضينا أن نلغى التاريخ ، وأن نلغى سنة التطور البشرى . بل نلغى عقولنا فلا نستطيع أن نحكّمها فيما كانت تستسيغه البشرية وتهضمه فى طور من حياتها بعد طور آخر . ومن تطور فى الوعى والإدراك إلى تطور نحو المعرفة . والنضوج العقلى .

وأصدق ما نقوله فى هذا الموضوع أننا لا نستطيع أن نغفل من مراحل التطور البشرى إذا أردنا أن ندرس تاريخ تطور الأديان وما تحمله من مبادىء ونظم . وعقائد وآراء ، لأن هذه الأديان وصفاتها تسير جنباً إلى جنب مع المراحل التى كان يجتازها البشر فى طريق تعقلهم وتحضرهم .

ولقد اصطنعنا نحن هذا الأسلوب العلمى المعتمد على التاريخ فى بحثنا عن كيفية تطور العقيدة فى الانسان . واستنتجنا معتمدين فى ذلك على الأساطير . وعلى التاريخ : استنتجنا أن العقيدة كانت تتشكل فى الانسان . وتتميز فيه بمقدار ما بلغه من وعى وإدراك ورقى » .

هذا وإن كان ذلك لا يمنعنا من أن نعترف بأنه يوجد بعض الشبه فى التخيلات والصور التى رسمتها الديانات ، وخصوصا فيما دعت إليه من غيبيات ، كما يوجد شبه آخر بينها ضئيل فى بعض التعاليم والعبادات ، وتصور الخير والشر ، ولكن حقيقة العقيدة الالهية ، وطبيعة الدين وغاياته

---

(١) راجع ذلك بتوسع فى كتاب « هذا هو الاسلام » للمؤلف ص ٧٠، ٧١

وما يهدف إليه تختلف اختلافا كليا فى كل منها عن الأخرى . . . !
والاسلام نزل بعد أن سبقته ديانتان سماويتان هما اليهودية والمسيحية
وديانات أخرى وضعية عقدت فكرة الألوهية ، وأضفت عليها من
الآراء الفلسفية والتأويلات اللاهوتية . ما جعلها تخرج عن طبيعتها
السهلة البسيطة . القوية الناضجة . فجاء الاسلام ليقضى على الوثنية
والمجوسية وليواجه فى الوقت نفسه اليهودية والمسيحية فيصحح فكرتهما
عن حقيقة الوجود وعن صفات الله العليا . . !

والظاهرة الواضحة التى نلمسها فى الاسلام هى التوحيد المحض . هى
الوعى التام الناضج لحقيقة الإله ( قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد
ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ) — ( هو الأول والآخر والظاهر
والباطن وهو على كل شىء قدير ) فصفة الخالق فى العقيدة الاسلامية هي
الكمال المطلق للاله ( الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى
السماء وهو السميع العليم ) — ( ليس كمثله شىء ) — ( لا تدركه الأبصار
وهو يدرك الأبصار ) ( ولله المثل الأعلى ) . وهذا هو غاية
ما يتصوره العقل الناضج . ويصل إليه الادراك البصير لحقيقة الله جل
وعلا . وإذا كان هذا هو الكمال المطلق بعينه فى التصور لحقيقة الله .
والذى سيظل ملازما لذاته العليا بدون تبديل أو تغيير إلى أبد
الآبدين .

فلم يكن هناك بد من أن يترتب على ذلك أن دعوة الإسلام جاءت
دعوة عالمية . وكانت هى الخاتمة النهائية للدعوات السماوية على الاطلاق .
والذاتية التى يمكن أن نطلقها على الإسلام أنه الدين الذى جاء ليواجه

العقل البشرى . ويحاجه فى كل شىء ، وأنه الدين الذى آمن بالفرد ، وما كمن فيه من وعى وتطور نحو الرقى والكمال ، فالقرآن يقول ( ولقد كرّمنا بنى آدم ) ومبلغ الدعوة الإلهية يؤمر من قبل ربه ( قل إنما أنا بشر مثلكم ) . ولو تتبعنا نحن ما توحى به الدعوة الاسلامية . وتصوره من مبادىء وغايات لوجدنا أنها جاءت لتتمشى مع الواقع فلم تدع إلى مثاليات لا تتفق مع طبيعة البشر ، وإنما وعت تماماً الناحية السيكولوجية التى تختمر فى نفس الإنسان ، وتكمن فى ضمير التطور البشرى ، ففرضت لكل شىء فروضه ، وعالجت كل أمر وما يتفق وطبيعته ، ولا يعزب عن الوصول إلى تصحيحه ، ولذلك تجدها فى شئون كثيرة لم تحرم ما كان فى الاستحالة المادية تحريمه ، وإنما جعلت فيه تضييقاً يكاد يشبه التحريم فيما يتأتى لمستقبل العالم من اتساع أفق الحياة وتعدد مشاكلها . . ! وذلك مثل الرق الذى أتى الإسلام فوجده دعامة قوية من دعائم النظم الاقتصادية والاجتماعية . ولم يكن قد تهيأ بعد فى نفوس الارقاء الاستعداد النفسى ، والتكافؤ الشخصى للحرية حتى يقضى عليه دفعة واحدة . وإن كان قد فتح له أبواباً كثيرة يتلاشى فيها مستقبلا مما ورد بكثرة فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية ..! ولكنه مع ذلك حرم تحريماً قاطعاً الرق الذى يأتى عن طريق النخاسين بالقنص والتصيد والاختطاف . . !

وكذلك مثل تعدد الزوجات . فبالرغم من أنه أعطى الفرد حرية الزواج من أربعة . وذلك لأغراض نفسية واجتماعية كان يعيها تماما مثل القضاء على العلاقات الجنسية غير المشروعة التى كانت سائدة حينذاك ولعدم الاكتفاء الجنسى الذى كاد يسود العالم بطريقة خطرة فى العصور الأولى كما يفهم من حديث عائشة رضى الله عنها :

قالت(١) : « إن النكاح فى الجاهلية كان أربعة أنحاء . فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليَّتَه أو بنته فيصدقها ثم ينكحها ، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة منه فى نجابة الرجل ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر . يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل ، والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لاتمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن . فإذا حملت إحداهن ، ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطه ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك » انتهى .

إلا أن الاسلام مع إباحته تعدد الزوجات أعطاه شيئاً من التضييق فقد قال تعالى : ( وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ) . .

وما يقال عن الرق وتعدد الزوجات يقال أيضا عن الطلاق الذى أحله الاسلام لاليكون كما يمثل اليوم فى مجتمعنا الاسلامى بتلك الطرق الشائنة ، وإنما جعله منفذاً للخروج من الحياة غير المتحملة لتنافر

(١) صحيح البخارى كتاب النكاح .

الطباع ، واليأس من السعادة الزوجية . ولذلك نرى الرسول عليه السلام يقول فى كراهية الطلاق إلا للضرورة القصوى ، والاضطرار الذى لا مفر منه ( إن أبغض الحلال عند الله الطلاق ) .

وهكذا نرى أن التصور الكامل لحقيقة الوجود . وفكرة الألوهية فى الاسلام استتبع أيضا الوعى الكامل لسيكلوجية النفوس . ولطبيعة الأشياء ، فتراه فى كل شىء يواجه الواقع ، ولا ينأى ألبتة عن الحقيقة ، ولا يعزل البشر عن طبيعتهم فيصور لهم مثلا عليا لا يبلغونها . ويدعوهم إلى تعاليم لا يهضمونها . فتقرير الحق ، ومخاطبة العقل ، والايمان بالفرد ، والسمو بالأخلاق الانسانية ، والارتفاع بالكرامة البشرية ، وارتباط السلوك الانسانى بالايمان بالله هى الأسس القوية التى قام عليها الاسلام .

يقول القرآن الكريم : ( لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ) . ( وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ) . وهذا هو منتهى الإيمان بالفرد ، والتقديس لحريته البشرية .

وإذا كان لنا أن نستطرد فى الكلام عن العقيدة فى الإسلام أكثر من ذلك ، فلا مانع من أن ننقل هنا فقرات أخرى مما كتبناه عن صفة من صفات الإسلام الذاتية فى كتابنا ( هذا هو الإسلام ) حيث قلنا :

والصفة(١) العاشرة من هذه الصفات . أن الاسلام حارب

---

(١) راجع ذلك بتوسع فى كتاب ( هذا هو الاسلام ) للمؤلف ص ١٢٩ .

الكهنوتية . والسلطة الدينية . فلكل إنسان نير البصيرة . ناضج العقل الحق فى طرق باب الاجتهاد . ولو كان من عامة الناس .

وهذه الصفة تقتضينا أن نراجع ما قررناه فى غير موضع من هذا الكتاب . وهو ربطنا بين العقيدة وتطورها فى الانسان ، وبين تطوره هو فى قوة مداركه وسير تحضره .. ! فليس هناك شك فى أن الإيمان بالفرد ، والاعتراف بذاتيته ، وحريته ، هما من الدلالات القوية على تحضره ، وقوة إدراكه ، ووزنه الصحيح للأمور ، والاسلام جاء بعد أن سبقته ديانتان سماويتان ، وديانات أخرى لا حصر لها . ولكنها جميعاً لم تبرأ من النظام الكهنوتى ، ومن قيام السلطات الدينية التى كانت حائلا شديداً منيعاً بين الانسان وبين حريته الفكرية ، وإرادته العقلية ، والتى قيدت الانسان ليس فى حياته الاجتماعية فقط ، وإنما فى همساته . وخفقاته ونجواه مع نفسه ، وليس ذلك إلا إيمان منها بقصور الانسان، وعجزه ، وعدم اعترافها بحريته ، وتقديرها لذاتيته ... ! ولكن الاسلام جاء والانسان حائر مضطرب ، يحاول أن يستنقذ نفسه من حياته هذه ، وأن يثب إلى الدخول فى طور آخر من أطواره فمهد له الطريق ، وأخذ يده نحوه فآمن بذاتيته ، وأخذ يخاطبه فى كل ما دعا إليه من مبادىء بالعقل والمنطق دون ضغط أو تعسف ) .

والشيء الذى لا يمكن أن نغفله هنا أن العقيدة الاسلامية تصورت الكون والعالم تصوراً كاملا ناضجاً يُكمِّل معنى العقيدة عن فكرة الألوهية . وعن غاية الدين للبشر وذلك فيما سبقها من ديانتين سماويتين هما اليهودية ، والمسيحية . ولذلك نرى الاسلام يدعو إلى الايمان .

والتصديق بما جاء به موسى وعيسى والنبيون من قبلهما من الوحي الإلهي فالقرآن يقول : ( قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . وما أنزله إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ) ، باعتبار أن هاتين الديانتين دعتا إلى التوحيد الصحيح قبل أن يلاحقهما ماحدث فيهما من تغيير .

فما لاشك فيه . ومما لم يختلف فيه أى مؤرخ من المؤرخين أن الأسفار الخمسة التى تمثل العهد القديم لديانة بنى إسرائيل كتبت بعد موت موسى عليه السلام بعدة قرون ، ولم يعرف كاتبها الحقيق ، وبعضها كتب فى الأسر ؛ ولذلك دخلت فيها عناصر غريبة عنها من الديانة البابلية .

وإذا كنا قررنا أن كل ديانة ينطبع فيها ماكان يسود العصر الذى وجدت فيه من طبائع وأشياء ، فإن هذه الظاهرة واضحة فى الديانة اليهودية وضوحاً بيناً ؛ فهى تدعو إلى الأثرة والتعصب ، وتشيد بمبدأ القوة والغلبة ، والتعطش إلى سفك الدماء ؛ وحب الانتقام ؛ حتى أنهم كانوا ينتظرون خلاصهم من الأسر على يد طاغية غاز جبار . إلى أن تنبأ لهم نبيهم زكريا فى رؤياه . بأن خلاصهم سيكون على يد ملك عادل وديع مسالم حيث قال : « ابتهجى جداً يا ابنة صهيون . اهتفى يابنت أورشليم . هوذا ملكك يأتى إليك : هو عادل ومنصور وديع . راكب على حمار . على جحش بن أتان » .

وهكذا نرى أن الديانة اليهودية كانت بمثابة نقطة تحول فى العقيدة

من فكرة التعدد فى الآلهة إلى وحدانية الله . وإن كان تصور اليهود لم يخل من التفكير الساذج فى صفات الله ، وفى علاقة الخالق بالخلق ، فلقد نسبوا إلى ( الإله[1] أعمال الإنسان وحركاته . فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة ، وأنه كان يصارع ، ويأكل ويشرب ، ويخشى مركبات الجبال وأنه دفن موسى حينامات فى موآب) ولم تذكر كتب العهد القديم أى شىء عن خلود النفس ولا عن الجزاء ، والعقاب يوم البعث ، وإنما جميع الأيتام تأوى بعد الموت إلى مكان سفلى سحيق يسمونه «الجب[2] أو شيول هى الهاوية التى تأوى إليها الأيتام بعد الموت ، ولا نجاة منها لميت . . . » «وأن الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد» .

وإذا وقفنا وقفة قصيرة عند الدعاء الذى وجهه (الملك[3] «ازيكياس» وهو مريض إلى إلهه وجدناه يقول له فيه «اشفنى» لأنه ليس شؤول هو الذى يمدحك ، ولا الموتى هم الذين يثنون عليك . فإن الذين ينزلون فى الحفرة لا يعتمدون على وفائك ، وإنما الأحياء هم وحدهم الذين يمدحونك كما أفعل أنا اليوم) . وهذا من غير شك يصور ماذهبنا إليه ، وهو أننا لا يمكن أن نغفل ألبتة مقدار التطور فى الديانات وصلته الوثيقة بالتطور البشرى ، وأن كل ديانة من الديانات تؤرخ فى الواقع حقيقة العصر الذى نزلت فيه ، وأخلاق البيئة وطباعها التى نبتت فيها .

وغاية ما نقوله عن العقيدة فى الديانة اليهودية أنها كانت ديانة محلية

---

(١) كتاب الله للعقاد ص ١١٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) « الفلسفة الشرقية » للأستاذ محمد غلاب .

قاصرة تحتاج إلى تكملة ، وإلى امتداد ، ولذلك ظل اليهود زمناً طويلا ينتظرون نبياً جديداً إلى أن بعث فيهم المسيح عليه السلام .

وهكذا نزلت المسيحية للعالم فكانت ثورة أخلاقية ، وروحية ، هزت الضمير الإنسانى من ركوده وغفلته ، جئت لألقى ناراً فماذا على لو اضطرمت النار ، والظاهرة التى نلاحظها بارزة فى الديانة المسيحية هى الدعوة إلى الروحانية الصافية الخالصة . هى التحقير من شأن السعى للدنيا ، وتغليب الجانب الروحانى فى الإنسان على الجانب المادى لأن العالم فى ذلك الوقت لم يكن ينقصه تنظيم وسائله المادية التى برع فيها علماء اليهود والإغريق ، والرومان ، وإنما كانت تنقصه يقظة الضمير ، ويقظة الروح التى كان ضارباً بينها وبينه سداً منيعاً . فجاءت الديانة المسيحية لتعالج المشكلة من ناحيتها الطبيعية ، فتغالت وأسرفت فى الدعوة إلى الروحانية لتخفف من حدة المادية وسيطرتها وغطرستها فتتكيف أعمال الإنسان جميعها بمراقبة الضمير ، وتغذية الروح ولذلك نرى المسيح يقول (ماجئت لأنقض الناموس بل لأكمله) .

ويقول أيضاً من خطبة له لمريديه وهم على الجبل :

(طوبى[1] للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات . طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطشى إلى البر لأنهم يشبعون ... طوبى للرحماء لأنهم يرحمون . طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ... قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل . ومن قتل يكون

(١) انجيل متى الاصحاح الخامس .

مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم : إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم . فإن قدمت قربانك إلى المذبح وتذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فاترك هناك قربانك . كن مراضياً لخصمك ... سمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً . ومن أراد أن يخاصمك . ويأخذ ثوبك . فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلا واحداً فاذهب معه اثنين . سمعتم أنه قيل تحب قريبك ، وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم . فأى أجر لكم ؟ أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك ، وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون ؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا ؟ فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل ) .

وكان يخاطب اليهود فيقول لهم : ( لو كان لكم إيمان كحبة خردل لأمرتم هذه الشجرة أن تخرج من منبتها ، وتنغرس فى ماء البحر فتطيع )

وكان يصور قيمة الحياة كلها ، وكيان الإنسان نفسه فى تقوى الله ومراقبته ، والإحساس الدائم اليقظ بوجوده . وأن الإنسان الذى ينبعث من وجدانه فى تصرفاته وأعماله حب الله ، والعمل لمرضاته هو كل شىء . ولا يعادله أى كائن آخر فى الحياة ( ما ذا ينفع الإنسان لو

ربح العالم كله وخسر نفسه ، وماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه ) .

( أعطيك(١) مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات ) .

هكذا نزلت المسيحية بعد اليهودية لتكيف حياة العالم تكييفاً آخر فتقرر أن الفضائل هى فى الرحمة ، والإيثار ، والحب ، وأن كسب الحياة هى فى إحياء الوجدان البشرى ،وتحريره من كل شىء عدا الله. وقتل مافى الانسان من أنانية فردية . فكانت بمثابة رد فعل عنيف لما كان يسود المجتمع اليهودى من تأصل النفعية المادية فيه ، ومن قتل للأنانية الفردية المتغطرسة التى أصبحت غريزة فيه تتكيف بها حياته . . . !

ولن نستطيعَ هنا أن نغفل الرد على من يزعمون أن الديانة المسيحية لم تع فى دعوتها حقيقة الطبيعة البشرية ، وخضوع الانسان لظروف الحياة المادية ، وإلى أن يكون له حقوق قبل المجتمع الذى يعيش فيه كما أن عليه واجبات ... وردنا على هؤلاء أنه ما كان للديانة المسيحية مفر من أن تسلك غير هذا الطريق الذى يتفق كل الاتفاق مع طبيعة الأشياء ، لأنها نزلت فوجدت المجتمع اليهودى غارقا فى الماديات إلى أذنيه . قائما سداً منيعا بينه وبين كل شىء فيه معنى الروح ، أو معنى الضمير ، حواسه كلها متجهة إلى الأنانية الفردية القاتلة . والتعصب الأعمى البغيض فالتغالى والإسراف فى الشىء يستلزم حتما التغالى والإسراف فيما يضاده ليحدث التأثير المطلوب ، وتتحقق الغاية المرجوة .

---

(١) انجيل متى الاصحاح السادس عشر .

وبعد . فلعلنا نكون قد أعطيناك صورة صادقة عن العقيدة فى الديانتين الكتابيتين قبل الإسلام ، وهما اليهودية والمسيحية لتتحقق من صدق نظريتنا ، وهى أن التطور فى الديانات السماوية يسير جنبا إلى جنب مع التطور البشرى .

وأصدق ما نقوله فى هذا الموضوع . أن العقيدة فى الديانة اليهودية كانت تحولا بالعقيدة الدينية من فكرة التعديد إلى فكرة التوحيد . وأنها كانت بمثابة إرهاص لما سيأتى بعدها من ديانات . . !

وأن العقيدة فى المسيحية حولت العالم من طريق الأنانية وحب الذات والتعصب الأعمى إلى طريق الإيثار والمحبة والرحمة فكانت بمثابة علاج لما انتاب العالم من مرض مزمن متأصل فيه .

أما العقيدة فى الإسلام فجاءت لتقرر الحق المطلق فى أى صورة من الصور الكونية ، واعية تماما حقيقة الإنسان وطبيعته . مقدرة ما فيه من قوة ومن ضعف ، وما فيه من عقل ومن وجدان ، فربطت بين سلوك الإنسان وإيمانه الصحيح ، برباط قوى مكين . حتى أننا لا نبعد عن الحقيقة لو قلنا إنها استوعبت الكمال المطلق بكل معنى من معانيه . !

هذا رأينا صورناه لك معتمدين على المنطق وعلى التطور التاريخى للأديان ، ولعل من الأوفق هنا أن نقرنك رأيا مضادا لرأينا مع احتفاظنا بالتعقيب عليه حتى نكون قد أكملنا بذلك الأسس المنهجية التى اصطنعناها لأنفسنا فى مثل هذه البحوث ، وهى عرض الرأى وما يضاده من آراء .

وما ننقله هنا من آراء هى للمستشرق الألمانى « جولد تسيهر » قال :

« إن الإسلام(١) ، كما يبدو عند اكتمال نموه ، هو نتيجة تأثيرات مختلفة تكون بعضها باعتباره تصوراً وفهما أخلاقيا للعالم ، وباعتباره نظاما قانونيا وعقيديا ، حتى أخذ شكله السُّنِّى النهائى ، وعلينا كذلك أن نتحدث عن التيارات التى أثرت فى اتجاهات نهر الإسلام ، لأن الإسلام ليس مذهباً واحداً ، بل حياته التاريخية تتأكد فيما نشأ فيه من اختلافات ، وهناك نوعان من التأثيرات التى تحدد الاتجاه الذى يسير فيه أى نظام من النظم مهما كان نوعه ولونه ، هنالك أولا ما فى النظام نفسه من قوى داخلية ذاتية تعجل نموه التاريخى ؛ وهناك ثانيا التأثيرات الروحية التى ترد عليه من الخارج ، وتضيف إليه ثروة جديدة ، وتجعله خصبا ، كما تعمل على أن يسير فى طريق التطور . حقا إن فعل التأثيرات الأولى قد أحس به بلا شك فى الإسلام وتاريخه ، ولكن أثر الضرب الثانى من هذه التأثيرات ، أى التأثيرات الروحية التى جاءته من غيره ، واستوعبها وتمثلها هو الذى يميز أهم عصوره فى رأى الباحثين .

ويبين ذلك إذا عرفنا أن نمو الإنسان مصطبغ نوعاً بالأفكار والآراء الهلينستية ؛ ونظامه الفقهى الدقيق يشعر بأثر القانون الرومانى؛ ونظامه السياسى ، كما تكون فى عصر الخلفاء العباسيين ، يدل على عمل الأفكار ، والنظريات السياسية الفارسية ، وتصوفه ليس إلا تمثلا لتيارات الآراء الهندية ، والأفلاطونية الجديدة الفلسفية . على أن من الحق أن نقرر أن الإسلام فى كل هذه الميادين قد أكد استعداده

---

(١) راجع كتاب العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٤ .

وقدرته على امتصاص هـذه الآراء وتمثلها ، كما أكد قدرته كذلك على صهر تلك العناصر الأجنبية كلها فى بوتقة واحدة ؛ فأصبحت لا تبدو على حقيقتها إلا إذا حللت تحليلا عميقاً ، وبحثت بحثاً نقديا دقيقا .

وهذا الطابع العام يحمله الإسلام مطبوعا على جبهته منذ ولادته فمحمد مؤسسه لم يبشر بجديد من الأفكار كما لم يمدنا أيضا بجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره وباللا نهاية . لكن هذا وذاك لا ينقصان من القيمة النسبية لطرافته الدينية » .

ويستطرد بعد ذلك فيقول فى مكان آخر من الكتاب :

« من(١) الخطأ الخطير أن ننسب للقرآن أكبر القيم فى بيان طابع الإسلام بوجه عام ، كما أننا من باب أولى لا نستطيع أن نؤسس حكمنا على الإسلام مستندين إلى هذا الكتاب وحده المقدس لدى الأمة الإسلامية ، والواقع أن هـذا الكتاب لم يحكم الإسلام إلا فى خلال العشرين سنة الأولى من نموه . ففى خلال حياة الإسلام التاريخية كلها ظل القرآن فى رأى أتباع دين محمد عملا أساسيا محترما باعتباره موحى به كما ظل كذلك موضع إعجاب عظيم إلى حد لم يظهر به أى عمل من الأعمال الأدبية العالمية ، ولكن بالرغم من أن الإسلام فى أطوار نموه التالية قد اتخذ القرآن أساسا — وهو أمر طبيعى — وبالرغم من أنه كان يوزن به جميع منتجات العصور المتأخرة ، وبالرغم من أن كل شىء قد تصور أنه متفق معه أو حُووِل تصور ذلك — بالرغم من هذا كله

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٣٣ ، ٣٤ .

فإننا لا يمكن لنا أن تتناسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن يكفى وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية .

إن الرسول نفسه قد اضطر بسبب تطوره الداخلى الخاص ، وبحكم الظروف التى أحاطت به . إلى تجاوز بعض الوحى القرآنى . إلى وحى جديد . فى الحقيقة . وإلى أن يعترف أنه ينسخ بأمر الله ما سبق أن أوحاه الله إليه ، فإذا كان الأمر كذلك فى عصر النبى، فمن الأولى أن يكون كذلك — بل أكثر من ذلك — عندما تجاوز الإسلام حدود البلاد العربية ، وتأهب لكى يصير قوة دولية .

إننا لا نفهم الإسلام بلا قرآن ولكن القرآن وحده بعيد عن أن يكفى لمواجهة العقلية الإسلامية التامة فى سيرها التاريخى .

ويختتم « جولد تسيهر » تصوره للعقيدة الإسلامية بقوله :

«من[1] العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً ، وخالياً من المتناقضات ، ولم يصلنا من المعارف الدينية الأكثر أهمية وخطرا إلا آثار عامة نجد فيها ، إذا بحثناها فى تفاصيلها ، أحيانا تعاليم متناقضة ، ورسالة النبى الدينية تنعكس فى روحه بألوان مختلفة ، باختلاف الاستعدادات السائدة فى نفسه . إذاً كان لزاما على علم الكلام المنسق أن يتولى منذ أول الأمر حل الصعوبات النظرية الناشئة عن مثل هذه المتناقضات .

ويبدو فضلا عن ذلك أنه . فيما يتعلق بمحمد نفسه ، شرع منذ القدم

---

(١) انظر ص ٦٨ ، ٦٩ من العقيدة والشريعة فى الاسلام .

فى البحث عن تناقضه فيما بشر به ، ولا غرو ! فقد كان وحى النبى ، حتى فى حياته معرضا لحكم النقاد الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص ، وكان عدم الاستقرار ، والطابع المتناقض البادى فى تعاليمه موضع ملاحظات ساخرة ، ولهذا فبالرغم من إصراره على القول بأن الله أوحى « قرآنا عربيا غير ذى عوج » سورة الزمر : ٢٨ ، ويراجع أيضا سورة الكهف : ١ ، وسورة فصلت : ٢ فقد اضطر إلى الاعتراف فى الوحى المدنى بأن القرآن : ( منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » انتهى .

هكذا يقرر هذا الباحث العالم . ويلقى أحكاماً بدون تمحيص ، ولا سند ولا تعمق مما لا يتفق فى شىء مع صفات الباحث المدقق الذى ينشد الحق ، ولا يتأثر بأى عامل آخر مهما كانت قوته وسيطرته . . . والشىء الذى نحب نحن أن نقرره هنا قبل أن نأخذ فى ردنا على «جولد تسيهر» أولا : أن كثيراً من هؤلاء العلماء الغربيين يضعون الدين على مشرحة النقد كأى علم من العلوم التاريخية ، أو الفلسفية ، دون وعى لأوجه الاختلاف الشديد، فى كل منهما ، ومايتميز به من سمات وطبائع وغايات . ثانياً : أنهم يعقدون مقارنات بين الديانات فى بعض تعاليمها وما قررته أو دعت إليه ، ثم يلتمسون شبهاً بينها فيحكمون بلا تحفظ بأن هذه الديانة قد نقلت عن تلك كذا وكذا من التعاليم ، أو تصور الكون والحياة الأخرى . . ! وهذا هو الخطأ الجسيم الذى ما كنا

نحب أبداً أن يتورط فيه أمثال هؤلاء العلماء الأفذاذ...! لقد قررنا عند الكلام فى تطور الديانات السماوية أن الصفة البارزة فيها جميعاً أنها نزلت لتكييف حياة المجتمع الذى نبتت فيه ، وأنها فى حقائقها الأولى وقبل أن يضاف إليها شىء صورت الكون والوجود ، ووضحت معنى الحياة بأسلوب يتفق ومقدار ما اجتازته قافلة الإنسانية من تطور وإدراك . ! غير أن هناك حقائق أزلية . وأسس ناموسية تهادنت على الأخذ بها جميعاً . فاتهام ديانة من الديانات بأخذها من الأخرى سواء أ كان المأخوذ عنها ديانة وضعية أم سماوية هو منتهى التحيز والمغالطة ، والإسراف فى الاتهام بدون دليل ، ومع ذلك فإن هؤلاء السادة من العلماء لو تعمقوا قليلا فى دراسة النفس البشرية — ولا نقول نفس الرسول الموحى إليه — لتبين لهم أن هناك شيئاً مما يسمى الإيحاء الذاتى ، والإيحاء النوعى ؛ كثيراً مايعطى الإنسان القدرة على تخيل شىء لم يقرأ عنه أو يسمع به قبلا .. ! ثالثاً : لا يفرق هؤلاء العلماء بين الدين فى حقيقته المنزلة . وبين ماأضفته عليه الفرق المتعددة المتناقضة المذاهب التى نشأت بعد عصره الأول ، وإنما يأخذون ذلك على أنه من الدين ، وهذا هو المنكر الذى لا يقرهم عليه أى منصف ، فالحقيقة أن الدين ليس مسئولا ألبتة عما أضيف إليه من آراء جديدة هدامة نسجتها حوله فرق كثيرة ضالة وسمتها ديناً وما هى من الدين فى شىء .. ! رابعاً : أنهم لا يأخذون آيات التنزيل الحكيم على أنها شىء لا يتجزأ ، وأنها يكمل بعضها بعضاً ، وأن هذه الآيات لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما نزلت فى فترات متباعدة لتصور مسائل عامة ، وتعالج مشاكل طارئة أمام تكوين المجتمع الدينى ، وإنما

يفهمونها ويهضمونها مستقلة بعضها عن بعض دون أن يراعوا الظروف والمناسبات ، وهذا للأسف هو الخطأ بعينه الذى وقع فيـه كثير من علماء الدين .

وعلى ضوء كل ذلك سنعقب بكلمة قصيرة على ما أثاره «جولد تسيهر» عما ذكرناه لك آنفاً . . وأول شىء فى الشطر الأول الذى يعتمد عليه «جولد تسيهر» فيما يذهب إليه التأثيرات الخارجية التى أتت إليه من الخارج وهى ما سماها بالتأثيرات الروحانية مثل وجود الفرق المتعددة التى نشأت فى الاسلام بعـد عصر الخلفاء الراشـدين ، واصطنعت فيه مذاهب متعددة متغايرة المعنى والأسلوب ، وهذا المنحى فى الدراسة ، والاستنتاج الذى يذهب إليه «جولد تسيهر» يدل على مغالطة شـديدة لأننا مع تسليمنا بحـدوث هـذه التأثيرات الخارجية التى حملتها الفرق المتعددة إلى الإسلام إلا أننا لا نغفل أنها كانت شراً وبلاء ونقمة على المسلمين ، وأنها كانت تحمل فى طياتها عناصر الانحلال لوحدة الإسلام ومقوماته ، وأنها التمست لوجودها ظروفاً مهيأة لا يسأل الإسـلام عنها ألبتة ، ولا تنال فى شىء من قدسية الـكتاب الـكريم وكماله . . ! ففهم القرآن كجزء لا يتجزأ ، وكمجموعة عناصر يكمل بعضها بعضاً . هو كمال العقيدة فى الإسلام . ! أما فهمه بغير ذلك فهو الانحراف الذى لا يقره الإسلام ، ومع أن الظروف التى هيأت الجو لوجود هذه الفرق ، وبالتالى لإحداث هذه التأثيرات نشأت فى أول أمرها دنيوية — أى نشأت من النزاع على الخلافة — بين على ومعاوية الذى ارتبط به نشوء الخوارج ، والقدرية ، والمرجئة والشيعة وغيرهم من الفرق الـكثيرة المتعددة التى تفرعت عنها . . نقول بالرغم

من أن هذا الباعث الأول دنيوى . فإننا ندلل هنا بما لايدع مجالا للشك على أن العقيدة الإسلامية كملت وازدهرت فى عهد النبى ، وقبل أن يرفع إلى الرفيق الأعلى ، وأن طبيعة الدين الإسلامى ذاته فى بساطته ووعيه لواقع الحياة تنفر من التأويلات اللاهوتية التى حاربها الإسلام فى أول أمره ، وهى التى اصطنعتها الفرق ، وعلم الكلام فى الإسلام .

ويظهر أن « جولد تسيهر » فى غفلته أو تغافله اعتمد فيما يذهب إليه من أن النبى لم يبشر بجديد من الأفكار على ما أوجدته هذه الفرق من مذاهب ، هى فى الغالب جملة معارف كهنوتية من ديانات فارس وبابل والصين والهند .

ونحب أن نقول « لجولد تسيهر » ولمن ينحو منحاه من المستشرقين ، فيقسمون الإسلام ويسمونه بتسمية هذه الفرق . ! أنهم حتى بمجرد نسبتهم هذه الفرق للإسلام يظلمون الحق ويجانبون الصواب . . لأن الإسلام بعيد عنها فى روحه وتكييفه لمعنى الحياة ، وأن من يريد أن يعرف الإسلام فليعرفه من مصادره الأولى فقط ، وقبل أن توجد هذه الفرق التى كانت سبباً فى الانحراف بالمسلمين عن الطريق القويم الذى شرعه الله ورسوله ... ! وإن من مفاخر القرآن أنه أتى مجملا ليتفق مع سلة التطور التاريخى للأشياء والإنسان والكائنات . فلا تتعارض نصوصه ، وتعاليمه مع واقع الحياة أبداً ، ثم ليترك مجالا للعقل لا ليستخدم التأويلات اللاهوتية فى فهم معانيه . وإنما ليفصل ما أجمل ، ويرسم السبل لتحقيق ما دعا إليه من أهداف محددة .

وهذا الحديث الذى رواه البغوى عن معاذ بن جبل يصور ماتذهب

إليه . وهو أن الرسول عليه السلام لما أرسله إلى اليمن « قال : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بكتاب الله . قال : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسوله . قال : فإن لم تجد فى سنة رسوله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو . قال : فضرب رسول الله على صدره وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » . . .

ثم إن القرآن والنبى الذى أتى به من عند ربه ، ظلا فى قلوب المسلمين حتى فى عصر انحرافهم عن الاسلام ، يحتلان مكان القدسية ، والسمو ، والكمال المطلق فيروى عن يزيد بن معاوية أنه لما حملت إليه رأس الشهيد الحسين بعد موقعة كربلاء المشئومة قال لجلسائه وهو يقلب الرأس بشىء فى يده « أتدرون من أين أتى هذا ؟ إنه قال : أبى على خير من أبيه ، وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر . فأما أبوه فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا نداً ، ولكنه أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على التماس سند فى فرع من الفروع دون نظر إلى أصل من الأصول المعلومة . أو استهداء غاية من الغايات المرسومة . وهذا هو أصل التفكير المنحرف الهدام فى فهم العقيدة فى الإسلام . . !

أما مايثيره فى الشطر الثانى من أن القرآن لا يكفى وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية ، وأن الرسول بسبب تطوره الداخلى ، وبسبب الظروف التى أحاطت به فى حملته — حسب تعبيره — إلى تجاوز بعض الوحى القرآنى إلى وحى جديد ، فيستدل من ذلك على أنه إذا كان حدث هذا فى عصر النبى القصير فالقرآن لايستطيع أن يواجه وحده عمر الإسلام الطويل... !
وردنا على ذلك أنه كان يجدر بالمستشرق النزيه أن يدرس تطور المجتمع الإسلامى فى عصر النبى ليظهر له أن هـذا النسخ وتجاوز بعض الوحى إلى وحى آخر جديد لم يحدث إلا لأن المجتمع الاسـلامى كان فى طور التـكوين ، وهو خاضع بحكم الظروف لمـا يطرأ عليه من مشكلات ، ويعترضه من مسائل ..! وبدلا من أن يحمد للوحى وللرسول هذا الصنيع لمرونتـه ، وعدم هروبه من واقع الحياة يحمل ذلك على عدم التـكافؤ فى القرآن لمواجهة تطور عقلية الاسلام التاريخية . ونسى أن هـذا النسخ والتجاوز عن بعض الوحى انقطع بعد أن تم تـكوين المجتمع الاسلامى وأصبح المسلمون أمة لها مقوماتها ، وكيانها الخاص ، وبعـــد أن كمل الوحى ، وتم الدين بنزول هـذه الآية الـكريمة : ( اليوم أكملت لـكم دينـكم وأتممت عليـكم نعمتى ورضيت لـكم الاسلام دينا ) .

ثم يأتى الشطر الأخير من كلامه ، ويقرر فيه أننا لا يمكننا أن نستخلص من القرآن رأياً عقيـدياً موحداً خالياً من المتناقضات ، ولم يصـلنا من المعارف الدينية الأكثر أهمية إلا مسائل عامة لو بحثناها فى تفاصيلها نجد أن تعاليمها يناقض بعضها بعضا ، وأن النبى مع إصراره على القول بأن الله أوحى إليه « قرآناً عربياً غير ذى عوج » فقد اعترف بأن القرآن

« منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » الخ . . ولست أدرى سر هذا التخبط الشديد والأحكام التى تلقى على عواهنها بدون سند أو دليل مما ليس من سمات العلماء والباحثين فى شىء .

وأغلب الظن أنه يشير إلى مسألة القضاء والقدر فى القرآن فيصفها بالتناقض ، وبأنها تحمل المعنى وما يضاده ..! ولقد نبهنا نحن فيما تقدم فى هذا الكتاب ، على أن انحراف هؤلاء المستشرقين ومن وجد قبلهم من الفرق الاسلامية عن الفهم الصحيح للعقيدة فى الاسلام ، أنهم يفسرون التنزيل الحكيم كأجزاء مستقلة بعضها عن بعض ، وأنهم لا يعنون بدراسة المناسبات والظروف التى اقتضت فى حينها نزول الوحى الالهى. وأنهم بعد ذلك كله يتغاضون عن الالمام بحياة الرسول عليه السلام . وكيف كان ينظر إلى هذه المسألة ويكيف بها حياته ، وحياة أتباعه من المؤمنين ، فيربطون بين ذلك كله وبين ما يجب أن تكون عليه نظرتهم الصحيحة لمسألة الجبر والاختيار فى القرآن ، وسنتحدث عنها بإسهاب فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

أما الشبهة الثانية من الشطر الأخير وهى أن القرآن فيه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، والتى يستدل بها على عدم العقيدة الموحدة فى القرآن . . فكأن هذه الآية الكريمة كانت تتنبأ عن دعوى هؤلاء المستشرقين ومن سلك طريقهم من قبل من الضالين العابثين ( فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... ) الخ .

فالقرآن صور جوهر العقيدة تصويراً واضحاً بيناً جازماً ، وحدد في مبادئه وتعاليمه حدوداً مستقيمة غير معوجة لما أباحه ، وما حرمه ، ثم نزلت بعد ذلك آيات من التنزيل لتصور مسائل خاصة لظروف طارئة تفهم على مقتضى أصول الدين الثابتة ، وما يتفق وجوهره الخالد الذى لا يتغير ، والذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وأخيراً لعلنا نكون قد أعطيناك صورة واضحة صادقة عن العقيدة فى الاسلام وما رسمته للإنسان من تصور للكون ، وفهم لمعنى الحياة... وإذا كان لنا أن نعرف بعد ذلك الأدوار التى مرت بها ، والتطور التاريخى لها . ثم ما وقف أمامها من حواجز وأشياء وعوامل رجعية كادت تخرجها عن طبيعتها السمحة الصافية . القوية الخالصة . فلننتقل معاً إلى الفصل الثانى من الكتاب حيث نمر مروراً سريعاً بالمراحل التى اجتازها الاسلام .

# المراحل التي اجتازها الإسلام

يقتضينا المنهج العلمى فى هذا البحث أن نذكر هنا الانبعاثات الخاصة ، والروح القوية التى اكتنفت الإسـلام ، وسيطرت سيطرة تامة على أسسه الرئيسية ، وأصوله العامة التى قام عليها كدين سماوى ، وكدعوة عالمية للجنس البشرى جميعه .

ثم نمر بعد ذلك مروراً سريعاً بمـا كان يعتور حياة شبه الجزيرة العربية ، وبما كان يعتور حياة العالم كله وقتئذ من عوامل ودوافع نحو الخـير أو الشر .

وأول شيء نحب أن نسجله هنا : أن الإسلام فى كل أسسه ، وأصوله يكمل بعضه بعضاً بحيث لو عطل أحد هـذه الأسس والأصول كان فى ذلك هدم لبقية الأسس ، والأصول الأخرى .. !

ثانياً : أن التعاليم . والأحكام . والعبادات . وكل الأوامر . والنواهى التى تفرعت عن هذه الأسس ، والأصول . لم تثبت . وتفرض على المسلمين دفعة واحدة ، ولم تأخـذ شكلها النهائى إلا بعـد أن توفرت للمسلمين مقومات الدولة فى كافة شئون الحياة ، وبعـد أن تحققت لهم إمكانيات خاصة تتفاعل ، وتستجيب ، ويتحقق بمقتضاها ما فرضه الإسـلام من واجبات وأحكام وما نهى عنه من منكرات ومحرمات . . والشيء الذى

لم يختلف فيه أحد حتى الآن أن تشريعات الإسلام . وأحكامه لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما نزلت بالتدريج مسايرة مصالح المجتمع . مراعية تماماً ماكانت تتطلبه احتياجات الدولة ، ومطالب الأمة ، وما يتزاحم أمام تكوينها من المشاكل ، وما يطرأ عليها من المقتضيات التى تتطلب حلا وعلاجاً . وفق الروح العامة للإسلام .

ثالثاً : أن التعاليم والمقومات التى جعلت للمسلمين كياناً خاصاً لا يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض ، وبالتالى لا يمكن أن يؤخذ ببعضها ويترك البعض الآخر ، وإلا خرج المسلمون عن طبيعة دينهم ، ولونوه بلون آخر غريب عنه ، فوجهة نظر الاسلام فى تنظيم مسائل الحياة ، وفى معالجة المشاكل الاقتصادية ، والاجتماعية ، إذا لم يأخذ بها المسلمون جميعها لا بالإيمان فقط ، وإنما بالعمـــل والتطبيق لا يمكن أن نطلق عليهم الاسلام بمعناه الكامل الدقيق .

رابعاً : أن الروح التى سيطرت على الاسلام فى كل ما أقامه من أسس ، واعتمد عليه من أصول ، أنه كان يسعى دائماً إلى تحقيق الجوهر ، والوصول إلى الغايات فى كل ما جاءت تنشد تحقيقه ، وإقامته رسالته الخالدة . ! دون أن يتمسك بالوسائل التى كثيراً ما تتغير وتختلف بحكم الزمن ، وطبيعة البيئة .. وهنا تبرز لنا هذه الروعة العميقة فى مرونته ، وهى حرصه دائماً على سعادة البشر ، وعدم إغفاله واقع الظروف ، ومطالب الانسان الحياتية ، فكان النسخ الذى حدث فى أحكامه ، وقضاياه ، وأوامره وذلك فى مدة نزول التشريع الاسلامى وهى تبلغ ما يقرب من اثنين وعشرين عاماً وبضعة شهور .

خامساً : هذا الرباط القوى المكين فى انسجام . واتفاق بين المادة والروح . بين حياة الانسان الدنيوية ، وحياته الأخروية ، حتى أننا نلمح فى سهولة ويسر هذه الصلة المتينة التى لا تنفصم أبداً بين الأمور التعبدية . والسلوك الانسانى . . افكل ما فرضه من عبادات ، هو فى الواقع تغذية للانسان . وتربية لنفسه وروحه جميعاً لتكون ، ثمرة أعماله طيبة . وليكون ذلك ثمناً يقدمه لفوزه بالآخرة ، فليست نظرة الاسلام أن « اعطوا ما لقيصر لقيصر واعطوا ما لله لله » كما دعت المسيحية إلى ذلك . وإنما أن تأخذ الحياة جميعاً ، أن يرتبط الايمان والعبادة بالعمل والخلق . والجهاد المستمر فى مشاكل الحياة كلها ، فالرهبنة ، والتقشف والزهد فى الحياة ، والعبادة ليل نهار ، والتحقير من شأن السعى فى الدنيا ، وعدم الحرص على النشاط المادى المشروع كما يدعو إلى ذلك رجال الصوفية اليوم ، وبعض علماء الدين . ! ليس كل ذلك مما يقره الاسلام فى شىء . ولنسجل هنا شواهد ناطقة تقرر هذا المبدأ الخطير فى العلاقة بين الدين والانسان فى حياته التى يحياها ، وما يحيط به من وقائع ضرورية ، والتزامات حياتية لنعلم أن الاسلام جاء متفقاً تماماً مع ما ركب فيه من غرائز ، وإحساسات ، واستعدادات . فلم يدعه إلى مثل عليا ليس من طبيعته أن يبلغها ، وإنما وعى تماماً فى كل مادعاه إليه الناحية السيكولوجية فى حياته وفى طبيعة الكون الذى يعيش فيه فلنستمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين

وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ) .

والنبي عليه السلام يقرر ارتباط العبادة بالسلوك الانسانى عندما جاءه وابصة بن معبد يسأله عن معنى البر فقال له النبي عليه السلام : « جئت تسأل عن البر ؟ قال نعم قال : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والاثم ماحاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » وقال فى موضع آخر فى الحديث الذى رواه أبو ذر الغفارى عن النبي قال عليه السلام : « هل لى أن أقول لك ماهو العمل الأكثر قيمة وفضيلة من جميع الصلوات والصوم والصدقات ؟ هو الاصلاح بين عدوين » وروى أبو هريرة أن بعض الناس تحدث إلى النبي عليه السلام عن امرأة معروفة بصلواتها وصومها وصدقاتها ، لكن لسانها كان يجرح من حولها فقال عنها النبي : « إن مصيرها إلى النار » وأجاب عن سؤال « بأن أفضل الاسلام هو إطعام الجائع ، ونشر السلام بين عرفت ومن لم تعرف » .

وهكذا نرى أن نظرة الاسلام فيما أوجبه وفرضه من أمور تعبدية ليست هى العبادة لذاتها فقط ، وإنما لتكون بمثابة إيحاءات قوية لقلب الانسان ، وهمسات متواصلة فى ضميره ليتمثل فى كل أعماله وتصرفاته بالعدل ، والحق ، والاستقامة ، وليجعل صلاته بغيره صلات التعاون والمحبة والسلام ، ولتكون ثمرة إنتاجه فيما يبلوه من الحياة النفع والخير لبني جنسه من البشر أجمعين . !

هذه الأشياء الخمسة التى ذكرناها ، وما ينطوى تحتها من سمات وصفات لا يحصيها العد كانت بمثابة نقطة تحول كبير فى حياة العالم . وكانت بمثابة ثورة خطيرة فى التفكير البشرى ، وفى علاقات المخلوقات بالخالق ... ! فلنستعرض حياة الجزيرة العربية ولنتخلل صفوف العالم لنرى ماذا كان يسوده من نظم ، وما كان يكيف به حياته من مبادئ وذلك قبيل ظهور الاسلام .

ونظرة يسيرة لأحوال الجزيرة العربية تظهر لنا بوضوح لا يقبل الشك هذه الحياة الجاهلية الغاشمة التى كان يحياها عرب الجزيرة . فكان قانونهم السلب ، والنهب ، والاعتداء ، والاغارة على المستضعفين الذين لا يملكون وسائل القوة لدفع الضر والأذى عن أنفسهم ، وأعراضهم وأموالهم ...! وكانت حياتهم الاجتماعية فى منتهى الفوضى والانحطاط . فوأد البنات خشية الاملاق سائد بينهم ، والصلات الجنسية غير المشروعة ليست محرمة عليهم بقانون ، ولا عرف ، ولا تقاليد . . !

وأصدق شىء يصور حياة العرب فى الجاهلية ما ننقله عن بعض المصادر الوثيقة التى بين أيدينا ، وهى أنه لما هاجر المسلمون إلى الحبشة خوفاً من اضطهاد قريش لهم خشى زعماء قريش مغبة هذه الهجرة . وخطرها عليهم فبعثوا برسولين إلى نجاشى الحبشة ليعمل على رد هؤلاء المهاجرين إلى ديارهم وقومهم ، وكان الرسولان هما : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبى ربيعة فجمع النجاشى المهاجرين فى مجلسه مع الرسولين ليعلم حجة كل من الطرفين . واستمع إلى عمرو بن العاص وهو يعرض رأى قريش فقال : « أيها الملك . إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان

سفهاء ، فارقوا دين قومهم . ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم . لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه » .

فالتفت النجاشى إلى المهاجرين يسألهم : « ماهذا الدين الذى فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل » ؟ قام جعفر بن أبى طالب يوضح له فقال : « أيها الملك . كنا قوما أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ؛ ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ؛ وأمرنا بصدق الحديث ؛ وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ؛ ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ؛ وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ؛ وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . . » الخ .

وروى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : « كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً ، جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به » .
وقال الكلبى : « كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار

فنظر إلى أحسنها فاتخـذه رباً ، وجعل ثلاثاً أسافى لِقِـدْرِهِ ، وإذا ارتحل تركه » .

هذه كلها صور تبين لك مدى الجهل ، والانحطاط ، والإسفاف الذى كان مسـيطراً على العرب مؤثراً فى حياتهم الدينيـة ، والاجتماعيـة ، والخلقية ، والنفسية ، فإذا بالإسـلام يأتى فيرسم لهم طرقاً أخرى فى الحياة ، فيخرجهم من حياتهم هذه المظلمة القاتلة إلى حياة سامية ممتازة ، تعطيهم القوة والـكفاءة لقيادة العالم البشرى فى طريق السمو ، والنضوج والـكمال .

وهكذا رأينا هؤلاء البدو الرحل غير المستقرين ، والذين كانوا فى شبه عزلة عن العالم ، والذين كانت معيشتهم فى منتهى القسوة والشظف لطبيعة بلادهم القاحلة الجدباء ، الفقيرة فى كل مصدر من مصادر الثروة ، وفى كل منبـع من منابع الإنتاج . . رأينا هؤلاء العرب البدو بعد أن لمس الإسـلام قلوبهم ، واتصل بشعورهم الواعى ، وسـيطر على آفاق تفـكيرهم ، وبجرى حياتهم يعطون للعالم أروع المثل فى الخلق الـكريم ، والعدل المطلق ، واليقظة التامة ، والارتفاع بالـكرامة البشرية التى كانت ممتهنة مهيضة ، تـكاد تلفظ نفسها الأخير . فالايمان بالمبدأ ، والاستشهاد فى سبيله ، والحرص على إقامة الحق ، وإحياء العدل ، وعدم الاعتـداء على الغير ، وإنمـا رد العـدوان فقط ، وعدم الا كراه فى الدين هى الايحاءات القوية ، والأوامر الصريحة التى ما فتىء القرآن يرددها ويدعو إليها أتباعه .

قال المستشرق المعروف أميل درمنغم :

« وفى(١) الغالب يقابل بين وضع المسلمين الأولين ، والنصارى الأولين . أجل إن فى دعاء الشهيد النصرانى الأول القديس اتيان لجلاديه ما يثير العجب أكثر مما يثيره الشهيد المسلم الأول خبيب بن عدى الذى دعا على قاتليه بقوله : ( اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحدا ) ، ولكن كلا الرجلين قد مات فى سبيل إيمانهما راجيين نيل الشهادة ، وهذا مع النظر إلى اختلاف الأحوال فى الأمرين لا فى المبدأ . فأما فى الدولة الرومانية الكثيرة التمدن ، فقد كان قدماء النصارى العزل من السلاح من أبناء بلاد ذات حكومة منظمة ، وإن شئت فقل : كانوا من رعايا قيصر الذى أمر عيسى بأن يعطى له ماله . فكان يحكم عليهم كما حكم على سقراط ، وأما فى جزيرة العرب التى كانت أمور الناس فيها فوضى ، والتى كان أهلها مفرقين إلى قبائل وعشائر محارب بعضها لبعض فكان الانسان لا يخرج فيها من منزله إلا حاملا سيفه أو حربته ، فكان المسلمون يدعون إلى الحرب دعاً بفعل منطق الهيئة وسير الأمور ، وكانوا إذا ما حاربوا فلحقهم فى الدفاع المشروع عن أنفسهم .

لم يشرع الجهاد لهداية الناس بالسيف ففى القرآن : ( لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ) ، والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال ، وبألا يبدأوا بالاعتداء ، وما تجده فى القرآن من الآيات المبثوثة فى سوره على غير ترتيب حول الجهاد ، فتشير إلى حوادث ذلك الزمن

---

(١) حياة محمد لأميل درمنغم ترجمة عادل زعيتر ص ١٦٦ .

الراهنة . وإلى ما كان يجب على محمد أن يسلكه هو وأصحابه فى المغازى تبعاً لتبدل الأحوال ، ولذلك نرى أنه ليس من الشريعة شمول تلك الآيات واستخراج مبدأ عام منها ، وذلك إلى ما كان يقع من اختلاط المصالح المادية بأمور الايمان . وطفو تلك على هذه عند العمل فى الغالب ، وتحول الجهاد من وسيلة إلى غاية . والتضحية بالروحى من أجل الزمنى .

وكان بعض المسلمين منذ زمن محمد . لا يرون فى الجهاد غير وسيلة لأخذ المغانم . فكانوا إذا لقوا فى طريقهم إلى غزوة ، رجالا قتلوهم من غير أن يتثبتوا ، عادين إياهم من المشركين تسويغاً لما صنع بهم . فجاء القرآن ينهى عن ذلك ويدفعه بشدة ، وإذا كان محمد يفرط فى القسوة عند اشتباك الفريقين ، وإذا كان يقابل العدوان بالعدوان . والمكر بالمكر، فإنه قلما كان يقسو فى حالة دعته ، بل كان يبدو معتدلا إلى الغاية ، كما يشهد بذلك أمره حين فتح مكة . فقد أبدى فى أثناء هذا الفتح من الكرم وعظمة النفس مالا تجد مثله فى التاريخ إلا نادراً .

وكان محمد يوصى جنوده بأن يرحموا الضعفاء والشيوخ والنساء والأولاد ، وكان ينهى عن هدم البيوت ، وإهلاك الحرث ، وقطع مثمر الشجر ، وكان يأمر بألا يسل مسلم حسامه إلا عند أقصى الضرورة ، وسنرى أنه أنحى باللائمة على بعض رجاله(١) فعوض بالمال عما اقترفوه

---

(١) يعنى بذلك خالد بن الوليد الذى كان من أشجع قواد المسلمين . والذى اطلق عليه بحق سيف الله المسلول ، وذلك عندما أخذ بثأر قريب له من بنى جذيمة فأثخن فيهم قتلا بقسوة ، وصرامة . ولم تأخذه بهم شفقة ، ولم يرع فى ذلك =

وهو الذى كان يرى أن النفس الواحدة خير من كل الغنائم » انتهى .

هذه هى حياة العرب وأخلاقهم قبل الاسلام . وما صارت إليه بعده . والبحث يقتضينا قبل أن نستطرد فى الكلام عن المراحل التى أمسك فيها الاسلام بقيادة السفينة البشرية فأدار دفتها نحو الحق ، والعدل ، والسمو بالانسان ، إلى أن تحولت من يده إلى يد أخرى ، لظروف خارجة عن إرادته ..! نقول البحث يقتضينا قبل ذلك كله أن نستعرض هنا حالة العالم من الواقع التاريخى لتطوره ، لنرى ما كان يتفاعل فيه من عوامل الخير والشر ، وما كان يسيطر عليه من دواعى القلق والاضطراب ، أو الهدوء والاطمئنان . . لنرى ماذا أفاد العالم أو خسر بتأثير هذه الرسالة الجديدة الخالدة فى مجريات حياته ، وفى أعماق نفسه .. !

والواقع التاريخى يقرر لنا أن العالم خلال القرنين السادس والسابع الميلادى كان فى حالة مفزعة من الجهل ، والتأخر وتناحر الطبقات ، حتى أن القانون الرومانى الذى يعتبره كثير من المؤرخين

---

= الحدود التى رسمها النبى فى القتال . ولا آداب الحروب التى كان يأخذ بها المسلمون فى حروبهم فى الغزوات ، فلما نبىء النبى بما صنع خالد استفظع عمله . وظهر عليه الغضب والاشمئزاز ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال فى جمع غفير من المسلمين : « اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل خالد » منكراً عليه هذه الروح الجاهلية الغاشمة التى لم تراع عرضاً ، ولا طفلا ، ولا شيخاً . وهذا ما يتنافى بدون شك مع آداب الحروب الاسلامية التى تنهى عن الخيانة ، والغدر ، وعن التمثيل بالقتلى ، وعن التعرض لشيخ قعيد ، أو امرأة ، أو طفل ، بل حتى عن العبث فى منابع الرزق للأعداء المحاربين التى تتمثل فى قيمهم المنقولة أو غير المنقولة .

مفخرة البشر ، والذى كان مؤثراً فى حياة معظم العالم وقتئذ كان لا يخلو من الظلم ، وعدم الاعتراف بالمساواة ، والعدالة العالمية .. وإذا مالاحظنا أن الفلسفة ، والتفكير الإغريقى قد هذب من هذا القانون بعض الشىء . وقد خطا به خطوات كبيرة نحو الايمان بالحق ، وعدم التلون مع الأغراض إلا أننا نجده حتى بعد أن طعم بهذا التفكير الإغريقى الذى قام على المحبة ، والعدالة ، كان يبرر السيادة على الأمم الضعيفة ، واستعبادها وكان يجحد بالمساواة العالمية لأن الله خلق العالم طبقتين كما تذهب إلى ذلك الفلسفة الاغريقية . طبقة الأسياد وهم الاغريق . وطبقة العبيد وهم غيرهم من الأمم الضعيفة .. وإذا ما نظرنا إلى نوع من العدالة تكيف به القانون الرومانى فى تطوره التاريخى وجدناه لم يكن مدفوعاً إلى ذلك من تلقاء نفسه ، أو من تلقاء القائمين عليه حبا فى الحق والعدالة . وإنما كان مضطراً إلى ذلك اضطراراً بفضل ضحاياه العددين من أبناء الشعب الذين كان ينصب عليهم من أسيادهم الظلم ، والاستعباد كأبشع ما سجلته الانسانية فى تاريخها الطويل .. ولنذكر هنا من واقع التاريخ صوراً تفضح قصور هذا القانون وعيوبه بالرغم من أنه مازال مؤثراً فى حياة البشرية إلى وقتنا هذا ، ! وهذه الفقرات ننقلها من مؤلف ظهر حديثاً بعنوان «أساس العدالة فى القانون الرومانى » وقد نقل مؤلفه عن العلامة « تيبه ليف » ما يلى :

قال « ثارت ثائرة(١) العامة لأنهم يحاربون فى سبيل حياة روما

---

(١) راجع كتاب أساس العدالة فى القانون الرومانى للدكتور على حافظ ص ٤٠ ، ٤١ .

وسياستها وهم مع ذلك عبيد أذلاء فى المدينة ، وقد أوقد هذه العداوة شيخ كبير ، اندفع إلى « الفورم » يئن مما به من بلاء ، وكان ثوبه ملوثاً بالأقذار ، وكان جسده شاحباً منهوك القوى ، وكان معفر الشعر ، واللحية ، فكشف عن الجراح التى لقيها فى القتال ، ولما سئل ما باله يهيم مشوهاً على وجهه . وقف بين الناس كأنه خطيب سياسى ، وشكى جدب أرضه التى اكتسحها العدو ، وهدم داره التى حرقها ، وضياع ماله الذى سلب ، وما فرض عليه من جزية فى زمان عسير ، وما تراكم عليه من رباً أكل حقه الموروث عن أبيه ، وجده ، وذهب بسائر ماله ، وامتد الربا كالوباء إلى جسمه . فلم يَسُقْهُ الدين إلى العبودية وكفى ، ! بل طوقه بالأغلال ، والأصفاد ، وساقه إلى السجن والتعذيب . ثم كشف عن آثار السوط المعلّمة فى ظهره ، فتصاعدت عند ذلك صيحات الساخطين إلى كبد السماء ، ولم ينحجز الثائرون « فى الفورم » ، ولكنهم انقضوا يجتاحون المدينة ، وأكرهوا القناصل والأشراف أن يبتوا فى أمره . وأحاط بالمدينة خطر خارجى يهددها ، فألزم « السنات » تحت هذا التهديد من الداخل والخارج أن يقرر أنه لا يحل لأحد أن يضع فى السجون والأغلال مواطناً رومانياً حتى لا يمنعه من أن يقيد اسمه فى سجل الجند لدى القناصل ، ولا يحل لأحد أن يحوز أو يبيع مالا لجندى طالما كان تحت السلاح ، ولا أن يقاضى أبناءه ، ولا أحفاده ، ! ولم تكن هذه الصورة إلا مثلا لذلك النضال يوم صارت العامة قوة متجمعة فى المدينة يشاركون فى بناء سلطان روما بمالهم ودمائهم وهم مع ذلك مستضعفون يحملون أعباءاً ثقالا .. ! فقد ناءوا بالديون والربا ، ولم

تكن لهم حماية من الدائنين لأن الانسانية يومئذ كانت تأخذ الغريم بدينه ، وذلك بأن الغرماء لم تكن لهم أموال ترد عنهم ديونهم فضمنتها أبدانهم ، والمدين الذى لا يرد دينه يمسى عبداً لدائنه ، فيبيعه ، ويعذبه ، ويملك فيه حق الحياة والموت ، وكان تاريخ القروض فى ذلك الزمان تاريخاً لآلام الانسان وجهاده فى سبيل حريته ، ولسنا نملك برهاناً على مدى آلام العامة من ديون تفرضها المدينة على العامة ، ويستدينها العامة من الأشراف كأنما يدفعها الأشراف باليمين ليأخذوها بالشمال ، ويدخلون المدينين المعسرين فى ملكيتهم الخاصة ، ولم يكن للربا حد معلوم ، ولم يكن للعامة قضاء على الأشراف ، ولم يكن لهم عاصم من العذاب . وقد أبقى لنا المؤرخون والفقهاء حدثاً مشهوداً فى تاريخ هذه الحقوق . فقد جمعت الآلام كلمة العامة فاعتزلوا روما ، وأووا بجموعهم إلى الجبل المقدس حتى تقر لهم المدينة بحقوق ظاهرة معلومة تكون بينهم وبين الأشراف عقداً مكتوباً ، وحداً لا يتعداه الدائنون ، واعترف الأشراف بطرف من الحقوق فى قانون الاثنى عشرة لوحة ، ومع ذلك لم تكن هذه الحقوق إلا خطوة ضيقة فى سبيل حرية الانسان ، وهى أدنى إلى تخفيف العبودية من إقرار الحرية للعامة . فقد نالوا حينئذ أن لا يتجاوز الربا ١٢ ٪ فى السنة ، وأن يستبق الدائن مدينه ٦٠ يوماً قبل أن يبيعه عبداً ، أو يقطعه إرباً . . . »

واستمر أشراف روما سادرين فى بغيهم وظلمهم ووحشيتهم التى لم يرو التاريخ لها مثيلا حتى استطاع العامة المضطهدون أن يغيروا هذا القانون ، وأن يفكوا الأغلال التى ظلوا مصفدين فيها أزمنة طويلة

سحيقة فى البعد ، وكان ذلك « بفعلة(١) رجـل من المرابين ، وكان فظاً غليظ القلب ذا شهوة دنيئة ، فاستسلم لأغلاله شخص يدعى « بوليليوس » ليكفل دين أبيه ، وكان « بوليليوس » فتى جميلا أهلا لأن يستدر بجماله وشبابه الرحمة ، ولـكنه أوقد جذوة الشهوة والحطة فى نفس ذلك المرابى فحسب أن زهرة ذلك العمر ثمرة دانية لدينه ، فطفق يغرى هـذا الفتى بكلام فاحش ، فتصام الفتى عن الغى فحمل عليه المرابى بالنذير والوعيد ، وجعل يذكره بأصله ، وسوء حاله ، ولـكن الفتى أصر على أن يستمسك بذكر ما وهبتـــه الطبيعة من سمو ، واحتقر الأقدار التى أردته ذليلا ، فأمر به المرابى أن يعرى ، وأن يجلد ، فمزقت السـياط جسده ، فانطلق فى المدينة يستصرخ الناس من فحش ذلك المرابى ، ومن وحشية قلبه ، فتبعته أفواج من الناس ترثى لشبابه ، وتستنـكر ذلك الظلم ، وخافوا أن يمسهم هم وأبناؤهم مثل ماأصاب ذلك الفتى ، وجمعوا جموعهم فى « الفورم » ، وعدوا إلى مجلس « السنات » ، وباغتوا القنصلين بثورة قائمة ، فعقد مجلس « السنات » ، وكلما جاء شيخ من أفراد « السنات » وقع الثائرون على قدميه باكين ، وكشفوا له عن ظهر ذلك الفتى الممزق ويومئـذ قضت مظلـةفرد على أغلال المعاملات ، وشرع يومئذ قانون حرم أن يوضع فرد فى الأصفاد ، والأغلال ، إلا من ارتـكب جرماً حكم فيه القضاء بحكم يستوجب الأغلال ، والأصفاد ، وحرم أن يجعل لدائن سبيلا على أشـخاص المدينين ، فليس لهم حق إلا على أموال

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢ .

المدينين . فحلت أغلال المدينين جميعاً ، وحرم بعدئذ أن يغل مدين» انتهى .

هـذه هى حياة الدولة الرومانيـة فى تشريعاتها ، ونظمها الاجتماعية والاقتصادية ، وهى التى انتقلت بدورها فيما بعـد إلى روما المسيحية . وبذلك تلونت روما بلون جديد ، واصطبغ قانونها بالصبغة المسيحية . . والظاهرة التى نلمسها بعد أن سيطرت المسيحية على روما ، وأصبحت هى الدين الرسمى لها أن السلطات التى كان يزاولهـا قياصرة روما انتقلت إلى يد البابوات ، ورجال الـكنيسة ، وبذلك أضحى القانون الرومانى موقوفا على خدمة أغراض المسيحية فقط ، وتدخلت المسيحية فى خاصة الشئون الخارجية والداخلية للأمم التى تدين بالمسـيحية . ! حتى إن البابا استخدم نشاطه الدينى الملحوظ للتحكم فى تيجان الملوك والأمراء :

« فهنرى (١) الرابع » ملك الرومانيـين الذى توج إمبراطوراً ، وهو أقوى ملوك المسيحيين بأسا ذهب ذليلا خاضـعا إلى ( كانوسا ) سنة ١٠٧٧ م لاستعطاف البابا « جريجوار » السابع ، واسترضائه ، لمـا أنذره البابا بأنه إذا لم يحضر إلى روما للتوبة عن خطاياه وعن سوء حكمه خلعه .

هـذا الإذلال الذى بقى فيه هنرى الرابع فى الثلوج عارى القدمين فى فناء محـكمة « الـكونتس ماتلدا » بالقرب من رجيو فى جبال أنباين منتظراً إذن البابا بالدخول إليه ليغفر له ذنوبه لم يبق بعده هيبة للتاج ،

---

(١) واجع القانون الدولى العام لعلى ماهر باشا ص ٥٩ ، ٦٠ .

ولم يتعين بعده للإمبراطور أن يدعى أنه الرئيس الأعلى فى العالم ، ولا أنه غير مسئول إلا أمام الله ، ! وعلى الضد من ذلك ادعى البابا النيابة عن الله فى الأرض ، ومزج السلطة الروحية بالسلطان . كما ادعى أن الجنس الإنسانى رعاياه . وأن الملوك مسئولون أمامه ، وأن له خلعهم لأنه هو الذى يوجههم . . . . » فى مثل هذا الجو الخانق المقيد للحريات لفظ القانون الرومانى نفسه الأخير ، وأوقف تطوره التاريخى نحو إقامة الحق ، والمحافظة على العدل الإنسانى ، ومحاولة تكميل النقص ، ومحو الظلم الذى كان يرزح تحته ، عندما كان يخضع لحكم أشراف روما القديمة ، والمصادر التى بين أيدينا تذكر فى وضوح أن الانحلال الخلقى ، والقلق الاقتصادى بلغ نهايته فى الدولة الرومانية فى القرنين السادس والسابع الميلادى . فبالرغم من القضاء على الحرية الفكرية والنشاط العقلى ، ووقوف المعرفة حول مناقشات دينية متناقضة فى طبيعة المسيح وهل له طبيعة واحدة وهى الطبيعة الإلهية التى تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية ! أو طبيعتين وهى ازدواج طبيعة المسيح بطبيعة الإله .

بالرغم من كل ذلك فقد « بلغ(١) الانحلال الاجتماعى غايته فى الدولة الرومانية الشرقية على كثرة مصائب الرعية ، وازدادت الإتاوات ، وتضاعفت الضرائب ، حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومة ، ويمقتونها مقتاً شديداً ، ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية ، وكانت الإيجارات والصادرات ضغثاً على إبالة ، وقد حدثت

---

(١) راجع كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبى الحسن على الندوى ص ٥ ، ٦ .

لذلك اضطرابات عظيمة وثورات ، وقد هلك عام ٥٣٢ فى الاضطراب ثلاثون ألف شخص فى العاصمة وحدها ، وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد فى الحياة . أسرف الناس ، ووصلوا فى التبذّل إلى أحطّ الدركات ، وأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أى وجه ، ثم إنفاقه فى التظرف والترف وإرضاء الشهوات .

لقد ذابت أسس الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق ، حتى صار الناس يفضلون حياة العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم فى حرية ، وكان العدل كما يقول ( سيل ) يباع ويساوم عليه مثل السلع ، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع .

يقول ( جيبون ) وفى آخر القرن السادس وصلت الدولة فى ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم فى حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذى لا يزداد كل يوم إلا ذبولا » .

هذه هى حالة الدولة الرومانية فى القرنين السادس والسابع الميلادى وإذا كنا قد أسهبنا فى دراستها بعض الشىء ، وعرضنا عليك صوراً لتشريعاتها القانونية ، وحياتها الاجتماعية والخلقية . فذلك لأن هذه الدولة التى ورثت حضارة الإغريق . كانت فى الواقع تمثل الحضارة الإنسانية أصدق تمثيل ..! ولولا ظروف قاسية اعترضتها فوجهتها وجهة أخرى بانتقال كل السلطات الدينية والدنيوية إلى أيدى الكنيسة ، مما أوقف القانون والفكر لخدمة أغراضها أول الأمر ، ثم من استشهاده

بين يديها آخر الأمر ، حتى إذا ما جاء القرن السابع الميلادى كانت فى حالة خطيرة من الفساد ، والانحدار الشديد . . ! نقول : لولا هذه الظروف القاسية التعسة لكان للعالم البشرى شأن آخر غير ما رزح تحته من الظلم والجهل والانحطاط حقباً طويلة .

وإذا ماوجهنا نظرنا إلى أمم أخرى من العالم ، ممن ينطبق عليهم معنى الدولة ، ومقوماتها وقتئذ . نجد دولة الفرس ، والصين ، والهند . وهذه الدول بدورها كان يسودها الفساد الخلق ، والتفاوت الطبقى ، والإفلاس فى الوعى بحقائق الحياة كأدق ما يفهم من هذه الكلمة . فالملوك الذين تداولوا حكم فارس كانوا يعتقدون بأنه يجرى فى عروقهم الدم الإلٓهى . وكانت رعيتهم تعتقد معهم فى ذلك فكانوا يُكَفِّرُونَ لهم عن ذنوبهم ، وينشدون فى احتفالاتهم الأناشيد الدينية بألوهيتهم باعتبارهم فوق البشر ... والمجتمع الإيرانى الذى يمثل عهد الساسانيين كان يسوده نظام طبقى شـــديد القسوة يحمل فى طياته التفاوت المفزع فى الحقوق والواجبات ، وحظوظ الحياة لأفراد المجتمع . لأنه كان مؤسساً على اعتبار النسب والحرف وما تستحقه كل طائفة من حقوق لا تتعداها ، ومن منزلة لاتطمع فى الارتفاع إلى أرقى منها ... « فكانت(١) الحكومة تحظر على العامة أن يشترى أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذى منحه إياه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقه الله لها ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من

(١) المصدر السابق .

وظائفهم . وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد فى المجتمع » .

أما الصين فإنها قد تخلفت دون الأمم القديمة عن أن تؤثر فى حياة العالم بنظم وتعاليم جديدة لأنها كانت فقيرة فى ذلك كل الفقر حيث لم يبعث فيها نبي أو رسول . وإنما كان زعماؤها الدينيون وهم غالباً من المعلمين يقفون عند رسم السلوك الإنسانى فقط ، ولا يتعدون فى تفكيرهم وتعاليمهم هذه الحدود .

وإذا مادققنا النظر فى عقائد الصين الساذجة نجد أنها لم تتخط المرحلة البدائية لحياة الإنسان الأول ، فلم يتوفر لها أى شىء من الوعى فى فهم حقيقة الكون ، ومعنى الوجود ، وإنما كانت دياناتها ديانات محلية محدودة لم تتخط حدود الدولة الصينية إلى غيرها من الأمم والشعوب لأنها فى حقائقها ، وأصولها لم تحمل شيئاً جديداً للعالم ، ولم تختمر فيها عناصر قوية ، وبواعث ارتقائية تضيف إلى ثروته فى الوعى بحقيقة الوجود شيئاً ، أو تخطو به خطوات نحو التقدم والرقى .

وأظهر الديانات التى كانت تسود الصين حتى القرن السابع الميلادى هى ديانة « لادتسو » — « والكونفوشيسية » ، وبالرغم من أنهما اتفقتا فى عبادة الأوثان إلا أنهما اختلفتا فى تعاليمهما وتكييفهما لمعنى الحياة .!

فأتباع « لادتسو » كانوا زاهدين متقشفين يستمرئون حياة الذلة والمسكنة ، واحتقار النفس البشرية ، فلايتزوجون ، بل يحرمون النظر إلى النساء والاتصال بهم على أى وضع من الأوضاع .

أما أتباع « كونفوشيوس » فكانوا على النقيض من ذلك يحتفلون بالحياة المادية ، ويجعلون المنفعة الملموسة هي وحدها أساس اعتقاداتهم . فالتفكير الميتافيزيقي ، والبحث فيما وراء الحس لم يحتلا أدنى حيز في تفكيرهم ، وإنما تكونت عقائدهم من جملة آراء ، وتعاليم لمعلمهم « كونفوشيوس » حتى انتهى بهم الأمر أخيراً إلى عبادته ، وإقامة التماثيل له بعد موته ثم التقرب إليها زلفى . . . ! ومن هذا نرى أن التطور في الديانات لم يصل إلى البيئة الصينية ، وإنما وقفت عقائدها جامدة لم ينلها شيء من سنة التطور والارتقاء . ولذلك ظلوا أزمنة طويلة يعبدون الأسلاف والأبطال ، وكانت أرواح(١) أسلافهم مقدمة بالرعاية على جملة الأرواح التي يعبدونها ، ويمثلون بها عناصر الطبيعة . أو مطالب المعيشة ، ولا يقدر الصيني قرباناً هو أغلى في قيمته ، وأحب إلى نفسه من قربانه إلى روح سلفه المعبود ، وهو يحتوي الأغذية ، والأشربة ، والأكسية ، والطيوب ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التي يعتقدون أنها تحتاج إلى كل شيء كانت تحتاج إليه وهي في عالم الأجساد .

والخير والشر عندهم هو ما يرضي الأسلاف أو يسخطهم من أعمال أبنائهم ، فما أرضى السلف فهو خير ، وما أسخطهم فهو شر . وقد يختارون فرداً من أفراد الأسرة ينوب عن جده المعبود فيطعمونه ويكسونه ، ويزدلفون إليه ، ويحسبون أن روح الجد هي التي تتقبل هذه القرابين في شخص ذلك الحفيد » .

---

(١) في كتاب « الله » للعقاد ص ٧٩ .

أما الهند فكانت تمثل فى ذلك الوقت منتهى التأخر والانحطاط الذى سجله التاريخ فى كل عصوره المختلفة ، فمن آلهة كثيرة متعددة تسمى بأسماء القوى الطبيعية المختلفة مثل إلــه المطر ، وإلــه النار ، وإلــه النور وإلــه الريح ، وإلــه البحار ، إلى استخدام بعض الديانات لخدمة الأغراض الجنسية المنحطة ، فلقد كانت بعض الفرق الدينية فى الهند « تعبد(١) النساء العاريات ، وكانت النساء يعبدن الرجال العراة ، وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزءون الراهبات والزائرات فى أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته ، وينال فيها الفاجر بغيته » .

وإذا كانت الديانة البرهمية ، وهى التى سادت الهند ، وما زالت مسيطرة على عقائدها حتى الآن ، قد تحللت ، من عبادة الأسلاف ، والأوثان ، ووصلت إلى التوحيد على نحو ما ، فإنها لم تخل من التعصب الأعمى ، والحقد الدفين ، وتبرير النظام الطبقى على أبشع صورة ، حتى أن البوذية التى بشر بها « بوذا جوتاما » قبل المسيح بخمسة قرون ، والتى قامت فى أساسها على تبسيط العقائد البرهمية وتلطيفها ، لم تستطع أن تصمد طويلا أمام تغالى البرهمية ورجعيتها ، على الرغم من أنها لم تنقض أصلا من أصولها ، أو تقض على ركن من أركانها . وإنما تميزت عنها فقط « فى تبسيط(٢) العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان ، فأخرجتها من حجابها المكنون فى المحاريب إلى المدرسة

---

(١) كتاب ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبى الحسن الندوى .

(٢) كتاب الله للعقاد ص ٧٤ — ٧٥ .

والبيت وصفوة المريدين ، ولا تعتبر البوذية إضافة فى صميم العقائد الدينية ، بل إضافة فى آداب السلوك ، وفلسفة الحياة ، وإضافة فى عرض الآراء على غير المستأثرين بها قديماً من سدنة الهيكل والمحراب » .

ولكن الشيء الذى يسترعى التفاتنا أكثر أن النظام الطبقى الذى طبق فى الهند واستمد عناصر وجوده من أصول الديانة البرهمية قد قسم العالم إلى أربعة أقسام :

(١) البراهمة : وهم طبقة الكهنة ، ورجال الدين .
(٢) شترى : وهم رجال الحرب .
(٣) ويش : وهم رجال الزراعة والتجارة .
(٤) شودر : وهم رجال الخدمة .

وهذا التقسيم قائم على أساس أن الإله خلق لمصلحة العالم « البراهمة(١) من فمه ، وشترى من سواعده ، وويش من أفخاذه ، والشودر من أرجله ، ووزع عليهم فرائض وواجبات لصلاح العالم . فعلى البراهمة تعليم « ويد » أو تقديم النذور للآلهة وتعاطى الصدقات ، وعلى الشترى حراسة الناس ، والتصدق ، وتقديم النذور ، ودراسة « ويد » ، والعزوف عن الشهوات ، وعلى ويش رعى السائمة ، والقيام بخدمتها . وتلاوة « ويد » ، والتجارة والزراعة ، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث » .

---

(١) راجع كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٣ .

« وقد منح القانون الهندى طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة ، فقد قرر أن البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق وأن مافى العالم هو ملك لهم ؛ لأنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر — من غير جريرة — ماشاءوا ؛ لأن العبد لا يجوز له أن يملك شيئاً وكل ماله لسيده » .

هكذا قطعنا هذه المرحلة فى تصوير حياة الجزيرة العربية ، وفى تصوير حياة العالم أجمع لنتبين موقف الإسلام ، ونستظهر مكانته وسط ذلك كله . ثم نمضى معه فى طريق نموه ، وسيطرته على العالم بما أقامه من أصول حضارية ، وما دعا إليه من مبادئ وتعاليم ، وتصوير للعلاقة بين الخالق والمخلوق ، أو بين المخلوقات بعضهم بعضاً ، وما شرعه لهم من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية بلغت فى وعيها ، ونضجها ، وهضمها للواقع الطبيعى ، وللتقدم البشرى المثل الأعلى للحياة .

ولكننا نحب قبل أن نمضى فى رحلتنا تلك فنجتاز مع الإسلام المراحل التى قطعها مؤثراً فى حياة العالم ، مكيفاً له نظرته ، وحكمه على الأشياء ، والأمور والناس وكل كائن آخر من الكائنات إلى أن وقفت أمامه عقبات صلدة ، وطرأت عليه عوامل خارجية حالت بينه وبين التقدم والازدهار ، ثم زحزحته آخر الأمر عن مكان قيادة البشرية إلى يومنا هذا . . نحب قبل كل ذلك أن نرجع أولا إلى ما سجلناه أول هذا الفصل من خصائص ذاتية للإسلام لنرى كيف واجه بها العالم الذى أريناك صورة صادقة لما كان يعتوره من عوامل الجهل ، والتأخر ، والانحطاط .

وأصدق ماينبغي أن نقرره هنا أن الإسلام أحيا الوجود البشرى وحرره من جميع البواعث الاستعبادية سواء كانت متسربة إليه عن طريق العقائد الموروثة أو متسلطة عليه بحكم الأوضاع الاجتماعية ، والاقتصادية .. وليس بصحيح مايذهب إليه بعض الفلاسفة والمستشرقين الغربيين من أن الإسلام صور العلاقة بين الخالق والمخلوق بالعبودية فرسخت بذلك فى نفوس المسلمين مشروعيتها ، وانحطت من جراء ذلك حريات الإنسان ، ومداركه ، وعزة نفسه ...! ويستنتج هؤلاء من ذلك أسباباً لضعف المسلمين يرجع معظمها إلى فقدانهم الحرية الشخصية ، وتأخرهم باستمرائهم حياة العبودية لحكامهم الذين كانوا يزعمون استمداد سلطاتهم من الله مباشرة .

وجوابنا على هؤلاء أنهم لم ينفذوا إلى معرفة الأهداف الرائعة والحقائق السامية فيما صوره الإسلام فى الوحى المقدس ، وفى الأحاديث النبوية الكريمة من العلاقة والصلة التى تربط العالم بالإله خالق الكون ، ومنظم الوجود بحكمة خبير بصير .

فالواقع التاريخى ، والحكم الصحيح على الأشياء والنفسيات والأمور جميعاً يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن تصوير الإسلام للعلاقة بين الخالق والمخلوقات كانت فى جملتها وتفاصيلها على الضد من ذلك فى كل شيء ، لأن الإسلام نزل ، والوعى الإنسانى لم يكن قد بلغ مرحلة الإيمان بالمساواة المطلقة بين الجنس البشرى ، وأن الناس جميعاً خلقوا من طينة واحدة ،لأنهم كانوا يؤلهون من بينهم أفراداً ، أويعتقدون أنهم من فصيلة أرقى منهم وأزكى وأطهر . وهذه الآيات التى أتى بها الوحى الكريم فى

الكتاب المقدس مثل «وَعِبادُ الرَّحمٰنِ الذينَ يمشُونَ عَلى الأرْض هَوْناً ، وإذا خَاطَبَهُمْ الجَاهلونَ قالوا سَلاماً » . ومثل « قُلْ يا عِبَادِيَ الذينَ أسْرَفوا على أنْفُسِهِمْ لاتَقْنَطُوا منْ رَحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفرُ الذُّنوبَ جميعاً » . ومثل « وإذا سَألكَ عِبَادي عَنِّي فإنِّي قَريبٌ أجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعانِ . . . » هذه الآيات التى خاطب الله فيها الناس بكلمة عبادى هى فى الواقع تحرير للانسان ، وارتفاع بكرامته البشرية ، وتخليص له من كل ما كان مسيطراً على عقله ، وتفكيره وضميره . فالإنسان حر ، قوى غير خاضع لشىء ولا لأى كائن من الكائنات مهما كانت سطوته وجبروته . فقوى الطبيعة بمظاهرها العظيمة التى كان يقف أمامها مندهشاً مبهوراً فيعظمها ويؤلهها مُسَخَّرَةً له ، وباستطاعته أن يقهرها ويستخدمها فى خدمة أغراضه ومنافعه ، وغيرُه من الناس مهما امتلكوا من المال ، والسلطان ، والجاه لايزيدون عنه ، ولا يفضلونه بشىء ، وإنما هو وسواه من أفراد الجنس البشرى سواء فى الخلقة وفى الحقوق والواجبات . وأفضلية بعضهم على بعض لا تأتى إلا عن طريق الخلق النبيل ، والعمل الصالح ، والإنتاج المفيد لخير الإنسانية .

فالخضوع ، والذلة ، وقتل الحرية ، والكرامة البشرية التى كانت سائدة العالم عن طريق الوراثة ، وعن طريق العادات ، والتقاليد التى نشأت فى أول أمرها من عبادة الأسلاف ، والأوثان ، والتى انحدرت إليه من عهود الجهل ، والظلام ، وبدائيته الأولى . مما لم يستطع أن يتخلص منها فى جميع أطواره التاريخية حتى بعد أن سادته العقائد الراقية ،

والفلسفات المهذبة ، لأن بنى إسرائيل كانوا يعطون لأنفسهم الفضل على غيرهم باعتبارهم شعب الله المختار .

والفلسفة الإغريقية التى سبقت نزول المسيحية ، وازدهرت ، وأثرت فى تاريخ العالم ، وكيفت حياته تكييفاً آخر كانت بدورها تجحد بالمساواة ، وتقسم العالم إلى سادة وعبيد ، ثم نزلت المسيحية ، ولكنها لم تتخلص من الكهنوتية الدينية ، التى شرَّعت الاعتراف ، ومنحت القسس والرهبان سلطة التوبة ، وغفران الذنوب ، وتقدير الجزاء والعقاب ، ومنح السعادة فى الآخرة .

كل ذلك قضى عليه الإسلام بتقريره العبودية لله وحده قضاء لاهوادة فيه .

فتقرير الصلة بين الإنسان وخالقه فى القرآن هى أرق وأروع ما وصل إليه الاعتزاز بالإنسان ، وإشعاره بكرامته وقوته لأنه ليس هناك من شىء مهما عظم يستطيع أن يخضعه أو يذله ، أو يستعبده ، فتحرير وجدان الإنسان وعقله ، ونفسه من تقديس أى شىء ، والذلة والخضوع له ، وإهدار إنسانيته فى سبيله . ا هى الإيحاءات القوية ، والأسس القويمة التى أقامها الإسلام لتصوير العلاقة بين الإله والإنسان فليست تصوير العبودية هنا قائمة على الملكية ، والخوف ، والبطش ، والرهبة ، كما فهم ذلك بعض المستشرقين ، والمنحرفين من رجال الصوفية ، وإنما هذا التصوير ، وهذا التحديد للعلاقة فى الإسلام لاتفيد إلا تخليص الإنسان من الذلة والخنوع ، والخضوع لأى شىء ، ولأى

كائن مهما كانت قوته وجبروته عدا الله الذى يتساوى أمامه الكل ، والذى يرعى المحسن الصالح ، ويحبه ، ويكون أقرب إليه من حبل الوريد ، وينأى عن المسىء المفسد ، ويغضب عليه ثم يحاسبه على ما ارتكبت يداه من إثم وظلم وفساد . . .

فكلمة عبادى هنا ليست مرادفة لكلمة العبودية والاستعباد الذى مثل على مسرح البشرية قبل نزول الإسلام بصورة قاسية مفزعة فيها امتهان مروع للكرامة البشرية ، والقيم الإنسانية بدليل قوله تعالى « وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » وقوله « تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعالمِينَ نَذِيراً » ... ! ثم انظر إلى هذه الظاهرة الرائعة العميقة المعنى ، وهى أن تكرير كلمة عبادى ، وعبادُ التى جاءت فى آيات التنزيل لم تكن موجهة لغير المتقين المؤمنين القريبين من الله . وهذه الظاهرة إن دلت على شىء فإنما تدل على أن الله تكفل برعايتهم ، وشملهم بعطفه وحبه ورضاه . ومما يوضح ذلك ويزيده قوة ويقيناً هذه الآية الكريمة التى نزل بها الوحى لتقرر للناس « بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ » .

ولنسق إليك هنا نماذج مما سجلها التاريخ لتعلم إلى أى حد ارتفع الإسلام بالإنسان ، وآمن بذاتيته ، وحريته ، ونهض بوجوديته ولتعلم من ناحية أخرى كيف سيطر على النفوس بروعته وجلاله ، ومبادئه المثالية ، وتعاليمه الناضجة .

يروى عن أبى موسى أنه قال : « انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى

مجلسه ، وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين ، وقد قال له عمرو وعماره إنهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بَدَرَنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك . فقال جعفر : لا نسجد إلا لله » .

« وأرسل سعد بن أبي وقاص قبل معركة القادسية ربعى بن عامر رسولا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرية وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد . وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له ضع سلاحك ، فقال إنى لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتمونى ، فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت ، فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها ، فقالوا له : ماجاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

« وقال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه فقال أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فقسمه ، وقسم للأعرابى فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه إليه فقال ما هذا ؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فأخذه فجاء به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا يارسول الله ؟ قال قسم قسمته لك ، قال ما على هذا تبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا — وأشار إلى حلقه — بسهم فأموت فأدخل الجنة ، فقال إن تصدق الله ليصدقك ، ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقتول فقال أهو هو ؟ قالوا : نعم ، قال صدق الله فصدقه » . ثم اقرأ هذه القصة التى سجلها الطبرى عن أبى عثمان المهدى قال : « لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم فى أجازته ، ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية لتهاونهم ، فأقبل المغيرة بن شعبة . والقوم فى زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة ، لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه ، فقال كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم . ! إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى . وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض . وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتمونى ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول » .

ولا يطاوعنا القلم أن نمضى دون أن نزيدك أمثلة ، ونشخص لك صوراً من هذه النماذج السامية البالغة حد الروعة والكمال ، والتى تصور فى الواقع الإسلام تصويراً دقيقاً فى كل ما دعا إليه من مبادئ راقية ، واستحدثه

من نظريات جديدة لحياة العالم ، فكان فى هدوئه الظاهرى يحمل ثورة خطيرة هزت النفس البشرية من أعماقها ، وأيقظت الكرامة البشرية بعد أن كانت شبه معدومة . . والواقع أن هذه النماذج الموثوق بصحتها ، والتى نسجلها هنا . ! ستريناا إلى حد بعيد مقدار الوعى الذى أضفاه الإسلام على حياة العالم فيما أوجده من دعائم خلقية واجتماعية ، وما أقامه من أسس اقتصادية وسياسية جديدة ، تبرزها فى وضوح هذه النماذج التاريخية فيما تتميز به من صفات ، وسمات ، وإيحاءات .

خرج(١) المقوقس ليلا من الحصن ، والمسلمون محاصرون له ، وعبر النيل إلى جزيرة الروضة ، ثم أرسل إلى عمرو جماعة كان منهم أسقف بابليون ، فلقيهم عمرو وأكرمهم ، فأدوا رسالتهم . فقالوا : « إنكم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا . فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا! إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شىء » .

فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به ، وحبس الرسل عنده يومين حتى

(١) انظر كتاب « الأدب العربى فى مصر من الفتح الاسلامى إلى الفاطميين » للأستاذ عبد الرازق حميده .

يروا حال المسلمين ، إذ أبيح لهم أن يسيروا فى العسكر ويروا مافيه . ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال : « ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا : وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » .

وعاد الرسل وقد وقع فى نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان فقالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم » .

فأقسم المقوقس : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم .

وأرسل المقوقس إلى عمرو كى يرسل إليه وفداً للمفاوضة فأرسل إليه جماعة فيهم عبادة بن الصامت ، وكان أسود شديداً ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيب الروم إلى شىء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى الروضة ، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال : « نحوا عنى ذلك الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى » فقال العرب جميعاً : « إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . ثم قالوا فكان قولهم عجيباً عند المقوقس : إن الأسود والأبيض سواء عندهم لا يفضل أحد أحداً إلا بفضله وعقله وليس بلونه ، فدعا المقوقس عبادة أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه ، فقال له عبادة :

« إن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود ، كلهم أشد سواداً منى . . . وإنى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا فى الجهاد فى الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ، ولا طلب للاستكثار منها . . . لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها ، يسد بها جوعه ليله ونهاره ، وشملة يلتحفها . . . لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة » .

وقال أبو يوسف : « حدثنى(١) عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء قال : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عماله أن يوافوه بالموسم فوافوه ، فقام وقال : يا أيها الناس إنى أبعث عمالى هؤلاء ، ولاة بالحق عليكم . ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دمائكم ولا من

(١) مستقى من كتاب : « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » للاستاذ سيد قطب .

أموالكم ، فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم . قال : فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد ، فقال : يا أمير المؤمنين . عاملك ضربني مائة سوط ، فقال عمر : أتضربه مائة سوط ؟ قم فاستقد منه ، فقام إليه عمرو بن العاص فقال له : يا أمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على عمالك كبر عليهم ، وكانت سنة يأخذ بها من بعدك ، فقال عمر : ألا أقيده منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيد من نفسه ؟ قم فاستقد . فقال عمرو : دعنا إذن فلنرضه . قال فقال : دونكم . قال فأرضوه بأن اشتريت منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين ! » .

« وغنم المسلمون أبراداً يمانية فخص عمر بن الخطاب منها برد ، وخص ابنه عبد الله برد — كأي رجل من المسلمين — ولما كان الخليفة في حاجة إلى ثوب فقد تبرع له عبد الله ببرده ليضمه إلى برده ، فيصنع منهما ثوباً . ثم وقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب . فقال : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ، فوقف رجل فقال : لا سمع لك علينا ولا طاعة . قال عمر : ولم ؟ قال الرجل : من أين لك بهذا الثوب ، وقد نالك برد واحد وأنت رجل طوال ؟ قال : لا تعجل ، ونادى يا عبد الله فلم يجبه أحد . قال : يا عبد الله بن عمر . قال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : ناشدتك الله البرد الذي ائتزرت به أهو بردك ؟ قال : اللهم نعم . قال الرجل : الآن مر . نسمع ونطع » .

وهذا أبو بكر رضي الله عنه كان قبل أن يتولى الخلافة « يحلب للضعفاء ممن حوله بالسنج أغنامهم ؛ فلما ولى الخلافة سمع جارية تقول:

اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لـكم فـكان يحلبها ، وربما سـأل صاحبتها : يا جارية ! أتحبين أن أرغى لك أم أصرح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربمـا قالت : صرح . فأى ذلك قالتـه فعل ! » .

« وكان عمـر بن الخطاب — فى خلافة أبى بكر — يتعهـد امرأة عمياء بالمدينـة ، ويقوم بأمرها ، فـكان إذا جاءها ألفاها قد قضيت حاجاتها ، فترصـد عمر يوماً ، فإذا أبو بكر هو الذى يكفيها مؤونتها ، لا تشغله عن ذلك الخلافة وتبعاتها . عنـدئذ صاح عمر حين رآه : أنت هو لعمرى ! » .

« وهذا عثمان بن عفان — قبل الخلافة — ترد عير له من الشام فى وقت نزل فيه البرح بالمسلمين من الجدب ، فإذا هى ألف بعير موسوقة براً وزيتاً وزبيباً . فيجيئه التجار يقولون : بعنا من هـذا الذى وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس . . فيقول : حبا وكرامة . كم تربحونى على شرائى ؟ فيجيبون : الدرهم درهمـين . فيقول : أعطيت أكثر من هذا . فيقولون : يا أبا عمرو . ما بقى فى المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليـك أحد ، فمن الذى أعطاك ؟ فيجيب : إن الله أعطانى بكل درهم عشرة . أعندكم زيادة ؟ فيقولون : لا ، فيشهد الله على أن هذه وما حملت صدقة لله على المساكين والفقراء من المسلمين » .

ونختتم هذه النماذج السامية البالغة حد الروعة والـكمال بهذا النموذج الأخير ، فقد روى ابن جرير بسنده عن ابن أبى زيد قال :

« دعا(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن عبد الله بن أُبَىّ قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول أبى بأبى أنت وأمى ؟ قال : يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فقال : فقد صدق والله يارسول الله أنت وَالله الأعز وهو الأذل ، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر منى ، ولئن كان رضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ! فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبى على بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال : أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يأويك ظله ، ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله ، فقال يا للخزرج ، ابنى يمنعنى بيتى ، فقال : والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه ، فاجتمع إليه رجال فكلموه . فقال : والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله ، فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال : اذهبوا إليه فقولوا له خله ومسكنه ، فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبى صلى الله عليه وسلم فنعم » .

والآن ماذا نستشف من وراء كل هذه النماذج التى قدمناها إليك ؟ نستشف منها : —

أولا : إيمان الإسلام بالوجود الإنسانى ، وبعث الكرامة البشرية .

ثانيا : المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات ، وفى تكافؤ الفرص بين الناس بعضهم بعضا .

(١) ذكره الطبرى فى سياق تفسيره للقرآن الكريم .

ثالثاً : التحرر الكامل للإنسان من ضغط الضرورات سواء نشأت عن اعتبارات اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو نفسية . . ! ولذلك نرى أن الإسلام بهذه الإيحاءات جميعاً التى سيطرت على عقل المسلم وقلبه وشعوره فى المرحلة الأولى من الدعوة لم يكن فى حاجة إلى مجهود كبير يبذله فى سبيل نشر راية الإسلام ، ولم يكن فى حاجة إلى مناقشات جدلية ومحاورات منطقية . وإقناع عقلى يبذله فى سبيل التبشير برسالته الجديدة للعالم . . والشيء الذى لا يمكن أن نتجاهله أن الإسلام لم ينشر بالسيف وتحت ضغط الضرورات — ونحن نعنى هنا الإسلام الصحيح الصادر عن الإيمان بالقلب ، والاقتناع بالعقل — كما نشر بالإعجاب ، والدهشة الرائعة ، والسمو الرفيع الآسر للقلوب والعقول جميعاً ، والذى كان يتجلى بقوة ووضوح فى سلوك المسلمين الأول ، وفى صفاتهم النفسية ، والعقلية التى كانت تظهر فى بساطة وروعة بين غيرهم من الأمم التى كانوا يسعون إلى غزوها . . ! كما أنه لم ينشر — إلا فى حدود ضيقة — نتيجة لمواعظ ، وإرشادات ، وتبشيرات بالدين الجديد .

فانتشار الإسلام فى قوته وكثرته وعنفه لم يكن فى الواقع إلا عن طريق هذه المشاهد والصور التى كانت تظهر بوضوح فى سلوك أتباعه ، ومعاملتهم بعضهم بعضا ، وفى تخلقهم بصفات سامية نبيلة بثها الإسلام فى نفوسهم وحملوها هم إلى غيرهم من الأمم سواء عن طريق الغزو ، أو التجارة ، أو الرحلات .

وقد ذكر الكونت دى كاسترى فى كتابه : « الإسلام(١) خواطر وسوانح » أن الإسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة إليه ، وتعليم مبادئه كما فى الديانة المسيحية ، ولو أنه كان للإسلام أناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب فى انتشاره السريع . . ! فإنا شاهدنا الملك « شارلمان » يستصحب معه على الدوام فى حروبه ركباً من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدائن ، والأقاليم ، بجيوشه التى كان يصلى بها الأمم حرباً تجعل الولدان شيباً ، ولكنا لا نعلم للاسلام مجمعاً دينيا ، ولا رسلا وأحباراً وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح فلم يكره أحد عليه بالسيف ، ولا باللسان » .

هذا هو الإسلام أعطيناك صورة صادقة عنه فى كل ما أقامه من دعائم وأسس ونظريات لحقيقة الوجود ، وحياة العالم .. والشىء الذى نحب أن نعرفه بعد ذلك كله : إلى متى ظل الإسلام مؤثراً فى حياة العالم بدعائمه الاجتماعية ، وأسسه الاقتصادية ، ونظرياته الأخلاقية باعتباره الدين الوحيد الذى آخى بين الدولة والدين ، والذى ربط الأمور التعبدية بالسلوك الشخصى للانسان ، والذى وسع الحياة جميعها بما فيها من روحانيات وماديات ، فمزج بينها جميعاً بطريقة لم تكن معروفة للعالم من قبل . !

ومما لا شك فيه أن التطور الذى صاحب الإسلام منذ عهد النبى

(١) منقول من كتاب «مصر فى فجر الاسلام» للدكتوره سيده اسماعيل كاشف

حتى آخر عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب كان يجرى فى مجراه الطبيعى مسيطراً ومؤثراً فى سلوك الدولة كما فى سلوك الفرد ، فكانت كل الانبعاثات والتصرفات التى تصدر عن الهيئة الحاكمة أو المحكومة تأتى وفق جهاز الدعوة الدقيق فيما رسمته من دعائم اجتماعية ، وأسس اقتصادية ، ونظريات أخلاقية شأنها فى ذلك شأن أى دعوة عالمية وسعت العالم جميعه ، ولكننا نلاحظ أن التوفيق الذى لازم الإسلام فى تطوره قد انحرف عن طريقه المرسوم فى الإسلام إلى طريق آخر لا يتفق فى شىء مع الأهداف المثالية التى جاء الإسلام ليحققها ويثيرها بقوة واندفاع فى ضمير الإنسان وشعوره ، وهذا التحول الذى طرأ على الإسلام ابتدأ فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وإن كان ظهر فى حدود ضيقة لم تسترع نظر الخليفة فى خطرها ومساوئها ، وما تحمله من بذور الفسوق عن السير فى طريق الإسلام الصحيح الذى أتى فى نهاية الأمر بكارثة عظمى للاسلام كدولة لها قوتها وشكيمتها وتأثيرها فى العالم ، وللمسلمين كأمة انتابها الضعف ، والانحلال والانحطاط ، وفقدت كل إمكانيات الحياة الخصبة الراقية القوية .

وكما بسطنا هنا غير مرة نظرية الإسلام فى استخدامه الفروض التعبدية كوسيلة فعالة لتقوية بناء دولته الاجتماعى ، والاقتصادى ، والأخلاقى ، فمن البديهى أن يترتب على ذلك أن التفريط فى أى ركن من هذه الأركان هو تفريط فى الواقع للواجبات الدينية ، والفرائض التعبدية ، لأن الإسلام متصل بعضه ببعض اتصالا وثيقاً قوياً ، فالأخذ بجزء منه ، وترك أجزاء أخرى فيه هدم للأجزاء جميعها سواء منها المأخوذ والمتروك ،

ذلك لأن طبيعة هذه الأجزاء التى يشملها جميعها ، والتى أقام بها أركانه كدين وكدولة معاً تنفعل ببعضها ، ولا تؤتى ثمرتها إلا بالأخذ بها جميعا .

والإسلام أقام دعائمه الاجتماعية على أساس المساواة المطلقة فى الحقوق ، والواجبات ، والجزاء ، والعقاب ، وتكافؤ الفرص للمسلمين جميعاً ، وما وجد فى الظاهر ولم يكن وفق هذا الأساس كانت له ظروف خاصة لم يغفلها هذا الدين الذى جاء متفقاً مع واقع الحياة ، وطبيعة الظروف والأشياء ، فعدم إلغائه للرق دفعة واحدة لا يمكن أن نحمله على أنه نقصان من جانبه فى خصائص المساواة المطلقة لأنه بالرغم من أنه جاء فوجد الرق أساساً من أسس اقتصاد العالم فإن نفوس كل الرقيق لم يكن توفر لها بعد التكافؤ الشخصى ، والاستعداد النفسى للانتفاع بهذه الحرية ، ومع ذلك فقد فتح له أبواباً كثيرة جمة يتلاشى فيها بعد حين ، فضلا عن أنه أعطى الرقيق حقوقاً تتساوى مع حقوق الحر بل مع حقوق أسيادهم .! فى الحديث الشريف : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس » . . .

ثم تأتى بعد ذلك وجهة نظر عمر بن الخطاب فى عدم أخذه بمبدأ المساواة فى الأعطيات ، وقوله هذه الجملة المأثورة لما روجع فى ذلك : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » . . . ومع عدم موافقتنا على وجهة نظر عمر رضى الله عنه فى ذلك ، إلا أننا لا يمكننا أن نتصور أبداً أن عمر كان يجحد بالمساواة المطلقة ، وكان يقر

النظام الطبقى لأن خصائص عمر فى تصرفاته ، وطباعه النفسية ، وما أخذ به نفسه من أشياء ، وما حكم فيه من أقضية كل ذلك ينفى ميل عمر إلى الأخذ بعدم المساواة التامة ، أو إقراره أى وضع ـ مهما كان ضئيلا ـ من أوضاع النظام الطبقى .. ونظرة يسيرة إلى ما يرويه التاريخ عنه من أنه فرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف وفرض لابنه عبد الله ألفين . ولما راجعه عبد الله فى ذلك وقال له إنه شهد من الغزوات مالم يشهد أسامة ؟ ! كان رده على ابنه « أن أسامة كان أحب إلى رسول الله منـــك ، وأبوه أحب إلى رسول الله من أبيك » ثم موقفه من جبلة(١) بن الأيهم وعمرو بن العاص وحرصه على إخضاعهما لمبدأ المساواة المطلقة كل ذلك ينهض دليلا لا يقبل الشك على أن نظرة عمر إلى الأعطيات لم تمس أبداً جوهر المساواة المطلقة التى جعلها الإسلام دعامة قوية من دعائمه الاجتماعية ، وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على أنها لم تكن إلا تمجيداً لذكرى الرسول عليه السلام ، ولم تكن إلا عاطفة صادقة نبيلة لذاته الكريمة فى أشخاص أحبائه ، والمقربين إليه . وهذه كما ترى حدودها ضيقة موقوفة تنتهى بوفاة هؤلاء الصحابة الأجلاء الذين صدقوا الله ورسوله ؛ ومع ذلك فقد ارتأى عمر فى أخريات عهده أن يسوى فى العطاء بين المسلمين غير أن المنية عاجلته فلم يحقق ما أراد .

هذه كلها أشياء يقتضينا دراسة التطور التاريخى للاسلام أن نثيرها

---

(١) تكلمنا عن ذلك بإسهاب فى كتابنا « هذا هو الاسلام » ص ١٥٩ — ١٦٠ — ١٦١ .

هنا لنعلم أن التوفيق الذى لازم تطور الاسلام التاريخى لم يتخل عنه إلا فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان بعد مبايعته خليفة المسلمين بستة أعوام على وجه التقريب .

ونحن نقرر هنا قبل كل شىء أننا لا نتهم عثمان فى إيمانه القوى ، ولا فى أخلاقه الرفيعة وإنما نعتقد أن سيرة عمر بن الخطاب فى قوة شخصيته ، وفى صرامته فى الحق ، وفى عدله المطلق ، وفى عقليته الجبارة هى التى قتلت عثمان لعدم ملئه المكان الذى كان يشغله عمر ، ولعدم تكافؤ شخصيته مع المشاكل الجسيمة ، والتطور السريع الثائر فى قوة اندفاع الدعوة وانتشارها بسرعة لم يعرف التاريخ لها مثيلا ، وما ترتب على كل ذلك من وجود آفاق جديدة للحياة لم يكن يعرفها العرب من قبل وذلك فيما سيطر عليه الإسلام من بلاد شاسعة ، ومن أمم وشعوب ذات حضارات قديمة وذات طباع متنافرة ، وأخلاق متباينة ونظرة للحياة متغايرة .

وسنرى أن عثمان فى عدم وعيه لحقائق الأمور . وفى عدم موهبته فهم النتائج التى تترتب دائما على المقدمات قد تغاضى فى عهده عن فتح ثغرة — ولو كانت ضئيلة غير كالحة الوجه — فى هيكل النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى بناه الاسلام ، إلا أنها قضت فى نهاية الأمر على ما أقامه من دعائم اجتماعية ، وأسس اقتصادية وفق نظرته الخاصة .

قلنا فى غير هذا المكان أن الإسلام أقام دعائم دولته على أسس دينية محضة باعتبار أن دعوته وسعت كل مشاكل الحياة الروحية والمادية معاً .

وكل مايتفق مع التطور الطبيعي للانسان، والحوادث، والأشياء جميعها. فلم يحدث أي شذوذ في التآخي بين كل ماهو مادي، وكل ماهو روحاني وإنما شملها الانسجام التام، والتفاعل المحمود النتائج..! من أجل ذلك كان الإسلام مصيبا وموفقاً في تنشـــئة دولته وإقامتها معتمداً على دعوته الروحانية، بجانب نظمه، وتشريعاته المادية لحياة الإنسان.

وما نريد أن نقوله هنا : هو أن الدولة ابتدأت أول الأمر. وفي حدود ضيقة في آخر عهد عثمان — أن تضع العراقيل أمام سير الإسلام في مجراه الطبيعي، لتحوله عن وجهته الصحيحة في إقامة نظمه الاجتماعية والاقتصادية إلى طريق آخر، وصبغته بصبغة أخرى لم يعهدها في عهد النبي عليه السـلام، ولا في عهد الخليفتين السابقين، غير مشـفقة عن النتائج الخطيرة التي ترتبت نتيجة لذلك كله، مما سنسهب الآن في شرحه وكشف الستار عنه.

فالإسلام عندما جاء كان أول شيء دعا إليـه في إلحاح وإصرار قتل العنجهية العربية في نفوس العرب، والتفاخر بالأنساب والألقاب، فقضى بذلك في غير هوادة ولا تؤدة على التفريق والتمـيـيز في الحقوق، والواجبات بين الناس بعضهم بعضا.

يقول القرآن الكريم : « يَا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَا كُمْ مِن ذَكَرٍ وأنْثَى وجَعَلْنا كُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ »، ويروى عن النبي عليه

السلام أنه قال : «لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» ، وقال أيضاً : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وقد تحققت هذه الدعوة إلى المساواة المطلقة بكل صورها فى عهد النبى وعهد خليفتيه أبو بكر وعمر ، أما فى عهد عثمان بن عفان فقد أصبح الركن الاجتماعى مهدداً فرجع العرب إلى عنجهيتم الجاهلية الغاشمة . وأصبحوا ينظرون إلى غيرهم من الشعوب نظرة التحقير . وعدم المساواة لهم فى الحقوق ، وفرص الحياة . ! ونحن هنا لانترجم عن شعور المسلمين من العرب كافة . وإنما نترجم عن شعور الدولة وممثلها فقط سواء فى الأمصار أو فى الجزيرة العربية .

وهناك بعض المؤرخين ممن يلتمسون عذراً لعثمان فى تركه هذه العصبية العربية تنمو ضد الموالى ، وتزداد الكراهية تجاههم وتأخذ طريقها الإيجابى على مر السنين حتى نجدهم بعد وقت قصير وقد فقدوا مكانتهم الاجتماعية فى الدولة ، وقد حرموا المساواة التامة بينهم وبين العرب ، وذلك لأن استشهاد الخليفة الثانى كان نتيجة لمؤامرة فارسية ..! فوقوع هذه الحادثة وضعف الطبيعة البشرية هما المسئولان إلى حد كبير عن الاضطهاد الذى وجد الموالى أنفسهم فيه ...! ولكن مهما يكن من الأمر ، ومهما بلغت هذه الحادثة فى بشاعتها وخطورتها فلم يكن يجوز لعثمان أن يتهاون بالتضحية بركن خطير من أركان الإسلام وهو الركن الاجتماعى . لأنه ترتب فيما بعد على ذلك نتائج فى منتهى الخطورة تجاه التطور التاريخى للاسلام وتحوله عن مجراه المرسوم .

ويكفى أن تعلم أن المسألة لم تقف عند المساواة أو عدمها فقط . وإنما أصبح الموالى لما وجدوا حقوقهم الاجتماعية مهضومة فى الدولة ، هم المسيطرون على الحركة الفكرية فى الجزيرة العربية ، وفى الأمصار يملكون وسائل التأثير فى توجيهها نحو الخير أو الشر ، وقد كان منهم المخلصون للدين وهم القلة ، وغير المخلصين وهم الكثرة ، وهؤلاء الأخيرون لم يقف شرهم عند حد إحداث الفتن والقلق والدسائس لتفتيت الوحدة الإسلامية ، وإنما أرادوا أن ينالوا من الاسلام والمسلمين بطريق آخر وهو اصطناع أحاديث كثيرة لاتتفق ألبتة مع روح الاسلام وأهدافه المثالية فى شىء .

ولكن يجب ان نفرق هنا بين الدولة - أى الهيئة الحاكمة وحاشيتها - وبين جمهور المسلمين من العرب فى معاملة الموالى والنظرة إليهم ، ومكانتهم فى نفوسهم لأننا إذا وجدنا العرب قد سادوا المسلمين بحكم ما فى أيديهم من سلطات ، فإننا نجد المخلصين من الموالى للاسلام قد احتلوا فى نفوسهم من جهة اخرى مكان السيادة والتقدير لعلمهم وورعهم ، وتقواهم ، ونشاطهم فى خدمة الدين فيروى عن ابن الصلاح فى رحلته أنه قال :

« روينا(١) عن الزهرى أنه قال : قدمت على عبد الملك بن مروان فقال من أين قدمت يا زهرى ؟ قلت من مكة . قال : فمن خلفت بها

---

(١) مقدمة لحدا بخش فى كتاب « الحضارة الاسلامية » تأليف فون كريمر » وترجمة الدكتور مصطفى طه بدر .

يسود أهلها ؟ قال : قلت عطاء بن أبي رباح . قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى . قال : فيما سادهم ؟ قلت بالديانة والرواية ، فقال : إن أهل الديانة والرواية ينبغى أن يسودوا الناس ، قال : فمن يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاووس بن كيسان ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى ، قال : فيم سادهم ؟ قلت : بما سادهم به عطاء قال : من كان كذلك ينبغى أن يسود الناس . قال : فمن يسود أهل مصر قلت : يزيد بن أبي حبيب . قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى ، فقال كما قال فى الأولين ، ثم قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول الدمشقى ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى ، عبد نوبى اعتقته امرأة من هذيل ، فقال كما قال ، ثم قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى . فقال كما قال ، ثم قال : فمن يسود أهل خراسان ؟ قلت : الضحاك بن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالى؟ قلت : من الموالى ، فقال كما قال ، ثم قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قلت : الحسن بن أبي الحسن ، قال : من العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى ، قال : ويلك ، فمن يسود أهل الكوفة ؟ قلت : إبراهيم النخعى ، قال : من العرب أم من الموالى ؟ قلت : من العرب ، قال : ويلك يا زهرى ، فرجت عنى ، والله لتسودن الموالى على العرب حيث يخطب لها على المنابر ، وإن العرب تحتها ، قال : قلت يا أمير المؤمنين إنما هو أمر الله ودينه فمن حفظه ساد ، ومن ضيعه سقط » .

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فمما لا شك فيه أن الموالى

اتجهوا بكليتهم إلى البحوث الدينية ، وإلى رواية الحديث فسيطروا بذلك على الحركة الفكرية فى البلاد الإسلامية ، بينما شغل العرب بالحروب الكثيرة ، والهجرة إلى الأمصار للتجارة ، وارتجاع الأموال الضخمة ...!

ولكن السؤال الذى يلاحقنا قبل أن نمضى فيما نحن فيه هو : هل كانت سيطرة الموالى على الحركة الفكرية فى البلاد الإسلامية خيرا أم شرا بالنسبة للإسلام كدين وكدولة معاً ؟ أما جوابنا نحن فإنها كانت شرا أصيب به الإسلام ديناً ودولة ... ! ديناً لأن الموالى اضطروا إلى أن ينضموا إلى الحزب الهاشمى الذى كان يناوئ دولة الأمويين ، وينكر عليهم الخلافة ، ويرى أنه أحق بها منهم ، وقد كان من جراء اصطناع الأمويين لأحاديث منسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبرر عدم مساواة الموالى بالعرب ، بالرغم من أن المساواة مبدأ أساسى نزل به الوحى ، وتحقق فى صور عديدة شتى فى حياة الرسول عليه السلام بالرغم من كل ذلك فقد وجد الموالى أنفسهم أمام أحاديث موضوعة تستند عليها الدولة فى هضم حقوقهم الاجتماعية ، فأدلوا هم الآخرين بدلوهم فى هذا السبيل ، وقد كانوا كما ذكرنا يملكون السيطرة على الحركة الفكرية ، فاصطنعوا أحاديث كثيرة توحى بأحقية آل البيت فى الخلافة ، وبالتالى تسم قيام الدولة الأموية على الغصب ، والاعتداء على حق آل البيت من الهاشميين .. ونحن وإن كنا لا نبرىء ذمة الموالى من ذلك ، إلا أننا نحمل المسئولية جميعها على الدولة الأموية لأن موقف الموالى رغم شططهم كان بمثابة دفاع عن النفس أمام ضياع حقوقهم ، وفقدان منزلتهم فى المجتمع العربى .

والشر الذى أصيب به الإسلام كدين جاء من سيطرة الموالى على التوجيه الفكرى للمسلمين ، فبعد أن كانت العقيدة سهلة بسيطة ليس فيها شيء من التعقيد أصبحت بفضلهم عسيرة معقدة بفعل التأويلات الكثيرة لآيات القرآن الكريم ، وبفعل الأحاديث الموضوعة والمبثوثة هنا وهناك لأغراض سياسية مما نوهنا عنه سابقاً ، ونعتقد أن قيام الفرق الكثيرة المتناقضة المذاهب والمبادىء التى زعزعت كيان المسلمين وكانت إلى حد كبير عنصرا خطيراً فى التطور التاريخى للإسلام ، وتحويله عن منحاه الطبيعى إلى منحى آخر .! نعتقد أن ذلك كان أثراً قوياً من سيطرة الموالى على الحركة الفكرية فى عهد الأمويين . فالإنحراف فى فهم الإســـلام ، والشر الذى تجسم وراء ذلك كله يرجع أولا : إلى موقف الأمويين من الموالى ، وثانياً : إلى سيطرة الموالى على الحركة الفكرية ، فلو اعترف للموالى بمكانتهم الاجتماعية ، ومنزلتهم السياسية فى الدولة ، ولو عوملوا على أساس المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات ، وكل فرص الحياة ، وهى التى جعلها الإسلام أهم أساس أقام عليه بناء دعوته ... ! لو عوملوا كذلك بالرغم من قيادتهم للتوجيه الفكرى للسلمين لما كان لهم سند ، وباعث يعتمدون عليه فى استحداث التأويلات لآيات القرآن المجيد ، وفى وضع الأحاديث الكثيرة المنسوبة بهتاناً وزوراً إلى رسول الله عليه السلام ... وإن كنا لا نغفل أنه كان لمن أسلم من اليهود سواء أكان من يهود المدينة أو من نزح إليها واستوطنها نشاط جم فى خلق هذه التأويلات وفى ابتداع الأحاديث الموضوعة حتى أننا نرى ابن خلدون يذكر فى مقدمته :

« أن العرب(١) لم يكونوا أهل كتاب ولا علم . وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية . وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدون منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى ، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حِمْيَر الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم . وأمثال ذلك وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم فى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما ترجع إلى الأحكام فتتحرى فى الصحة التى يجب بها العمل ، وتساهل المفسرون فى مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم ، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة فتلقيت بالقبول يومئذ » انتهى .

وقد ذكر أيضاً ابن كُثَيِّر فى تفسيره عن كعب الأحبار أنه « لما أسلم(٢) كعب فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضى الله عنه

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ .

فربما استمع له عمر فترخص الناس فى استماع ما عنده ، ونقلوا ما عنده من غث وثمين » . وقد تنبه عمر آخر الأمر إلى كذبه فحرم الأخذ عنه ، ونهاه عن الرواية عن النبي وإلا نفاه .. ! ولكن بالرغم من دخول كل هذه الاسرائيليات فى التفسير ، وفى اصطناع الأحاديث ونسبتها إلى النبي فإننا نعتقد أن ضررها كان محدوداً بالنسبة لضرر الموالى البليغ لأنهم لم يكتفوا بالتوجيه الفكرى فقط ، وإنما ملكوا ناحية التأثير العقلى ، والتوجيه العملى بقيام الدولة العباسية .

أما الشر الذى أصيب به الإسلام كدولة من جراء هضم حقوق الموالى الاجتماعية والسياسية فإن الموالى كانوا شوكة دائمة فى جنب الدولة . وكانوا يعملون فى الخفاء للقضاء عليها قضاء لا هوادة فيه فشغلوها بالحروب الداخلية ، وبما كانوا يثيرونه حولها من القلاقل والفتن التى حدت من نشاطهم فى الغزو والفتوحات فى أنحاء المعمورة وهى التى كانت تسير بخطى واسعة فى عهد النبي وخليفتيه وفى الست سنوات الأول من عهد عثمان بن عفان . . . ! وإن من يقرأ قصة الحجاج الثقفى وسعيد ابن جبير يتبين له أنه لم يكن يقف أمام الموالى فى سبيل القضاء على دولة بنى أمية ، أى إعتبار من الاعتبارات ، فلقد خرج ابن الأشعث على الحجاج وانضم إليه سعيد ، ولما قبض عليه وجىء به إلى الحجاج قال له : «ياشقى(١) ابن كسير . أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا اعربى فجعلتك إماماً . ؟ قال : بلى . قال : أفما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة ، وقالوا لا يصلح القضاء إلا لعربى فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعرى ، وأمرته

---

(١) الكامل للمبرد .

أن لايقطع أمراً دونك ؟ قال : بلى . قال : أو ماجعلتك فى سمارى وكلهم من رءوس العرب ؟ قال : بلى . قال أو ما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرقها فى أهل الحاجة ثم لم أسألك عن شىء منها ؟ قال : بلى . قال فما أخرجك على ؟ قال بيعة كانت لابن الأشعث فى عنقى . فغضب الحجاج ، ثم قال : أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك فى عنقك من قبل ؟ والله لأقتلنك » .

وهكذا كما ترى كان من نتيجة تهاون عثمان فى تهديد ركن خطير من أركان الإسلام ، وهو الركن الاجتماعى الذى يتمثل فى المساواة التامة بين المسلمين جميعاً أن أوقف تطور الإسلام عن طريقه الطبيعى المرسوم ، ووجه إلى طريق آخر لا يتفق ، ومارسمه الإسلام من دعائم اجتماعية ، وقوانين خلقية .

وإذا كانت الدعائم الاجتماعية للإسلام قد هددت فى عهد عثمان كما رأيت ، ثم قضى عليها القضاء الأخير فى عهد الأمويين ومن تلاهم من عباسيين وفاطميين وغيرهم ممن نصبوا أنفسهم خلفاء للمسلمين ... ! نقول إذا كانت هذه الدعائم ابتدأ التفريط فيها فى عهد عثمان ، فهناك ماهو أشد من ذلك خطراً ، إذ ابتدأت الأسس التى بنى عليها الإسلام نظريته الاقتصادية تتزحزح هى الأخرى عن مكانها ، وتتحلل من الروح الإسلامية التى سيطرت عليها ابتداء من عصر النبى عليه السلام حتى آخر عصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فما لاشك فيه أن الإسلام احتفل بالتنظيم المالى لحياة الإنسان المعيشية ، فأعطى له حقوقاً كما أوجب عليه مسئوليات تجاه المجتمع الذى يعيش فيه . فهو إذا كان لم يحرم الملكية

الفردية باعتبارها ضرباً من ضروب النشاط ، ودافعاً قوياً للاستثارة في العمل . وإذكاء الحيوية في الإنسان ، واستنهاض كل طاقاته البشرية للسعي في الحياة وتوفير كل الإمكانيات الحياتية مما يرقى به ويسعده هو والمجتمع الذي يعيش فيه ، إلا أنه عندما أباح هذه الملكية الفردية سواء في المال أو في الثروات المنقولة أو غير المنقولة ، أو في غير ذلك من كل مايقوم بمال لم يجعلها مطلقة غير مقيدة بشيء أو خاضعة لمصلحة المجتمع وإنما أحاطها بقيود جعلتها مثل الوظيفة الاجتماعية التي يزاولها الفرد لمصلحة المجموع ، فملكية الإنسان للمال أو ما يقوم به ليست ملكية أصيلة ، له أن يتصرف فيه كما يشاء ، لأن هذا المال الذي كونه وارتجعه ساهمت فيه البيئة وساهم فيه المجتمع بطريق غير مباشر ، لأنهما المجال الحيوي الذي زاول فيه نشاطه ، وارتجع منه هذا المال ، فمن العبث والظلم أن يستبد به ويعطله ولا يوظفه في البيئة التي استثمره منها . ومن الإجحاف والجحود والأنانية أن ينفقه في الترف والملذات ، والشهوات الدنيئة التي تصيب المجتمع بأبلغ الأضرار ... ! ومع كل ذلك لو بحثنا في أصل هذا المال أو ما يقوم به من ثروات منقولة أو غير منقولة ، أو غير ذلك وجدناه في النهاية يرجع إلى أنه ملك لله وحده الذي خلق البشر ، وسخر لهم الشمس والقمر والنجوم ، ورزقهم من الطيبات ، فالقرآن الكريم يقول : « وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » ويقول في موضع آخر بشأن حث المسلمين على إعطاء المكاتبين من الأرقاء المال لينعموا بالحرية . « وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ » فهذه الآيات صريحة في أن المال وكل مايقوم به من ضرورات الإنسان الحياتية هو ملك لله وحده والناس فيه خلفاء عن الله ... !

فانظر معى إلى هـذه الروعة البالغة فى تصوير الإسلام للمـال ، وتفسيره له هذا التفسير المحدد على أنه من الأشـياء العامة للبشر ، ومن المنافع الطبيعية مثل المـاء والهواء وكل ما هو ضرورى لحياة الإنسان . وهنا يختلف الإسلام مع التفسير الماركسى للمـال وقيمته وما يكيف به حياة الإنسان من خير أو شر ... !

فالنظرة الماركسية إلى المال وقيمته ، وما يتفاعل فيه من عوامل لحياة الإنسان ، نظرة ضيقة وقفت بالإنسان عند الدائرة المـادية فقط بجعلها الحياة كلها خاضعة للتفسير المادى للتاريخ . . !

أما الإسلام فنظرته إلى المال ، و ما يقوم به، نظرة أوسع وأشمل فلم يجعل الإنسان مستعبداً له ، ولم ينظر إليه إلا على أنه وظيفة يزاولها من يحسن القيام بها لصالح المجتمع البشرى . . . ! بدليل قول الله تعالى فى مكان آخر : «وَلا تُؤتوا السُّفَهاءَ أَموالَكُمُ الَّتى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً» . . . ونرجو أن ننبـه هنا على أن معنى الآيات الكريمة التى تفيد بأن « المـال ملك لله » ، والتى تحث على « أن ينفق فى سبيل الله » أن معنى هـذه الملكية لله أنه من المنافع العـامة الشائعة التى يشترك فى الانتفاع بها البشر جميعاً كل بقدر كفايته واستعداده واحتياجه فهو كالأشياء الطبيعية التى لم يتواضع العالم منذ أقدم العصور على أن يملكها فرد وحده أو ينفرد بالتصرف فيها إنسان مطلق الإرادة كما أن سبيل الله هنا هو مسرح الحياة للمجتمع الذى وجد فيه هذا المال ، فيجب أن ينفق لسد حاجاته الضرورية ، وما يتفرع عنها من مستلزمات ثقافية وإنشائية .

فالإسلام يحرم تحريماً قاطعاً تجمع الثروات فى أيد واحدة ، وتعطيلها عن العمل كما يحرم الاحتكار على أى وجه من الوجوه ، فالقرآن الكريم يقول : « وَالذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم » ، ويقول الرسول عليه السلام : « أى مال ذهب أو فضة أوكىٔ عليه فهو جمر على صاحبه حتى ينفقه فى سبيل الله » .

ويقول أيضاً : « هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى أخريات خلافته : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لأخذت فضول أموال الأغنياء فوزعتها على الفقراء » .

هذه هى نظرية الإسلام الاقتصادية ، وقد تحققت على أكمل صورة فى عصر أبى بكر وعصر عمر رضى الله عنهما ، فأبو بكر كما هو معروف كان يعيش من عمله فى التجارة قبل الخلافة ، فلما أصبح خليفة للمسلمين استمر فى عمله فى التجارة ليوفر قوته وقوت عياله ، ولكن المسلمين رأوا أن عمله فى التجارة لا يتفق مع عبء الخلافة ومسئولياتها فقالوا له : « إن هذا الأمر لا يصلح مع التجارة » ، فقال أبو بكر : وبم أعيش إذاً ؟ فقالوا له : خذ كفايتك وعيالك من القوت من بيت المال ، فقبل أبو بكر ، ولكنه عندما حضرته الوفاة أوصى بأن يحصى

ما أخذه من بيت المال فيرد إليه من ماله الخاص وأرضه .

وهذا عمر بن الخطاب سئل وهو خليفة للمسلمين عما يحل له من مال الله ؟ فقال : « أنا أخبركم بما أستحل منه يحل لى حلتان : حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ ، وما أحج عليه وأعتمر ، وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغنـاهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم » .

هذا ولقد كان أبو بكر وعمر يخشيان أن يفتن المسلمون عن دينهم وأن يغضوا النظر عما رسمه لهم من مثل عليا للحياة ، نتيجة للثروات الضخمة التى أخذت تترى عليهم من الفتوحات الكثيرة ، والانتشار السريع للإسلام فى أنحاء المعمورة ، ولذلك منع عمر كبار الصحابة أن يهاجروا إلى الأمصار حتى لا يفتن بهم المسلمون ، وحتى لا تستهويهم من ناحية أخرى مظاهر الثراء والترف الذى كان سائداً فى إمبراطورتى فارس والروم بطريقة شائنة مسرفة ، وهى التى خلفهم المسلمون عليها .

وكان عمر رضى الله عنه لا يغفل عن محاسبة عماله فى الأمصار فقد قاسم سعد بن أبى وقاص ماله عندما كان والياً على الكوفة وبعث بما أخذه منه إلى بيت مال المسلمين ، وكتب إلى عمرو بن العاص عامله فى مصر يقول : « إنه فشت لك فاشية عن متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر » ، فرد عليه عمرو يقول : « إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا عما تحتاج إليه نفقتنا » ، فكتب إليه عمر بن الخطاب يقول : « إنى قد خبرت من عمال السوء ما كفى وكتابك

إلى كتاب من أقلقه الآخذ بالحق ، وقد سئت بك ظنا ووجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك فاطلعه طلعة ، واخرج إليه ما يطالبك ، واعفه من الغلظة عليك ، فإنه برح الخفاء » .

هذه كلها نماذج لم يكن لنا بد من تسجيلها هنا لنعلم أن التطور التاريخي للإسلام قد انحرف عن سيره الطبيعي منذ عهد عثمان بن عفان بالقضاء على ركنين خطيرين من أركان الدعوة هما الركن الاجتماعي والاقتصادي ، وقد أوضحنا بما لا مزيد عليه كيف هددت الدعائم الاجتماعية في عهد عثمان ثم انهارت تماماً فيما تلاه من عهود ، وها نحن أولاء بعد أن ذكرنا هنا الأسس الاقتصادية وفق نظرة الإسلام ، وكيف تطورت متمشية في سيرها الطبيعي في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر نرى أنها وجهت وجهة أخرى ابتداء من عهد عثمان ، لأننا نجد أن ما كان يخشاه أبو بكر وعمر من فتنة المسلمين بالمال قد تحقق في عهد عثمان ، والمراجع(١) التاريخية التي بين أيدينا تذكر أن عثمان كان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم غير ضياعه بوادي القرى وحنين التي قدرت بمائتي ألف دينار كما خاف إبلا وخيلا كثيرة ، والزبير بن العوام ترك عند وفاته من الأموال العقارية ما تقدر قيمته بين خمس وثلاثين ، واثنين وخمسين مليوناً من الدراهم على اختلاف في الروايات ، وأنه كان يملك في المدينة وحدها إحدى عشرة داراً غير ما كان يملكه من الدور في البصرة والكوفة والفسطاط والاسكندرية .

---

(١) ابن خلدون . طبقات ابن سعد .

كما قدرت ثروة طلحة بن عبيد الله بمائة كيس من الجلد يشتمل كل كيس منها على ثلاثة قناطير من الذهب ... !

وإن كانت هذه المراجع لم تغفل شدة عطف عثمان والزبير وطلحة على الفقراء والمساكين وإطعام الجائع وابن السبيل والتصدق بالمال الكثير..! غير أننا نعتقد أن النظام الاقتصادى فى الإسلام لم يقم على الصدقات وإعطاء السائل والمحروم ، لأن ذلك كان متروكاً لوجدان الإنسان فى عهد الإسلام الأول ، أما بعد أن أصبح المسلمون كدولة لها مقوماتها ولها تأثيرها الخطير فى حياة العالم كله ، فإن احتياجات الفرد ومسئولياته أصبحت فى ذمة الدولة ، وأصبح التكافل الاجتماعى بين المسلمين منوطا بالتزامات بيت المال تجاه فقراء المسلمين ، ولولى الأمر أن يأخذ مايشاء من رءوس الأموال ليحقق التكافل ، ويوجد التوازن بين المسلمين كما كان سيفعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فضلا عن أن الإسلام كما قلنا يحرم اكتناز المال وتجمعه فى أيد واحدة ، ويعمل على تفتت الثروات . ! فهو يحرم الاحتكار على أية صورة من الصور ، كما يحرم أن يقوم نظامه الاقتصادى على أساس الإقطاع بأى نوع من الأنواع أو وجه من الوجوه ..! كما أن الإسلام ينهى أن يقوم أى بناء فى مجتمعه على المسألة « فاليد العليا خير من اليد السفلى » ، وهذا عمر بن الخطاب يذهب يوماً لزيارة أهل الصفة الذين اتخذوا مسجد رسول الله عليه السلام مأوى لهم يتعبدون فيه ليل نهار ، بعد أن حالت بينهم الشيخوخة ، وحال بينهم العجز عن الخروج إلى الغزوات ، والسعى فى الحياة ، فلما صلى بهم عمر العصر سألهم : مم يعيشون ؟ فعلم أنهم يعيشون على الصدقات ،

فانكر عليهم ذلك ، وقال لهم هذه الجملة التى تلخص دستور الإسلام الاجتماعى والاقتصادى : « ليس فى الإسلام سولة » .

والرسول عليه السلام يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

ويقول أيضاً : « لكل نبى رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله » ، ولا يعنى بالجهاد هنا الغزوات والتبشير بالإسلام فحسب وإنما يعنى كل ما يفيد المجتمع الإسلامى من جميع أوجه النشاط الثقافى والصناعى ،

وهكذا نجد أن هذا التهاون من عثمان عفا الله عنه قد كانت له نتائج جد خطيرة فى عهد الأمويين ، وما تلا عهدهم من عهود ، لم تهدر فيها الدعائم الاجتماعية ، والأسس الاقتصادية فحسب ، وإنما قضى على الاعتبارات الخلقية التى جعلها الإسلام عنصراً خطيراً من عناصر دعوته ، ويكفى أن نعلم كيف اغتصبت المبايعة ليزيد بن معاوية لندرك قوة الحواجز الصلدة التى وقفت حجر عثرة أمام تيار الإسلام الصحيح . ولندرك عوامل الانحلال التى أخذت تعمل فى جسمه الحى بقوة وقسوة ... ! فالمصادر التاريخية الوثيقة تذكر أن معاوية ذهب إلى مكة ودعا زعماء المسلمين عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين بن على وقال لهم : « قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم ، يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد

باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه » .

فأجابه عبد الله بن الزبير ، وخيره بين أن يصنع كما صنع رسول الله إذ لم يستخلف أحداً ، أو كما صنع أبو بكر ، إذ عهد إلى رجل ليس من بنى أبيه أو كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه .

فقال معاوية مغضباً : « هل عندك غير هذا ؟ » .

قال : « لا ... »

والتفت إلى الآخرين يسألهم قائلا : « فأنتم ؟ » فوافقوا ابن الزبير .

فقال متوعداً : « أعذر من أنذر ! .. إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح ، وإنى قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة فى مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه ! » .

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : إن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفهما » .

ثم خرج بهم إلى المسجد ورقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم أمر دونهم ، ولا يقضى

إلا على مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله .!»
فبايع الناس . وهكذا تمت البيعة ليزيد ... !

حتى إننا إذا ما تركنا العصر الأموى إلى ما تلاه من عصور أخرى نجد الانحراف عن الإسلام يزداد قوة واتساعاً ، ويصطبغ بصبغات دخيلة لا تتفق مع دعائمه وأسسه وأصوله فى شىء ، بل إنه فى الواقع حاربها فى مهد نزوله بقسوة وصرامة ، فالعهد العباسى اصطبغ بالصبغة الفارسية . وبما كان يسود عهد الساسانيين من أوتقراطية مسرفة فى الحكم ، ومن تكالب على الترف والشهوات ، ونفاق خبيث بين رجال البلاط ، ولعل أكبر شاهد على سيطرة الفرس على أدوات الحكم الفعلى للبلاد الإسلامية ، أن الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون كانت فى الواقع انتصارا للفرس على العرب ، ثم أصبحت الخلافة الإسلامية بعد ذلك تصطبغ بالصبغة التى تكون عليها حاشية الخليفة دون نظر لأى اعتبار من الاعتبارات الإسلامية ، فإنه(١) لما ولى المعتصم الخلافة ، وكانت أمه تركية أهمل العنصرين العربى والفارسى ، واعتمد على الأتراك وأسند إليهم مناصب الدولة كما فعل أخوه المأمون مع الفرس » .

وقد بلغ من عناية المعتصم باقتناء الأتراك أن بذل فيهم الأموال ، وألبسهم الديباج ومناطق الذهب ، واستقدمهم من أسواق الرقيق من سمرقند ، وفرغانة ، ومن بلاد ما وراء النهر بوجه عام .

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، وتاريخ الخلفاء للنجار .

ولما ولى الخلافة ابنه الواثق استفحل أمر الأتراك ، واشتد نفوذهم ومما يذكر أنه بلغ من نفوذ الأتراك أن الخلفاء كانوا يقطعونهم الولايات الإسلامية على أن يؤدوا لدار الخلافة جزية معينة على نمط ما كان متبعاً فى نظام الإقطاع فى أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر ، ولم يكن من السهل أن يترك هؤلاء الأتراك دار الخلافة فى بغداد أو سامرا وما فيها من نعيم وترف ، فكانوا يستخلفون بدورهم نواباً عنهم يحكمون هذه الولايات باسمهم ، ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر ، وينقشون اسمهم على السكة بجانب اسم الخليفة .

غير أن الظاهرة التى يتميز بها عصر العباسيين ، وما تلاه من عصور هى الترف المسعور ، والتكالب على الشهوات فى شراهة وإسراف ، حتى أننا نرى أن زفاف « بوران » بنت الحسن بن سهل إلى الخليفة المأمون « مما لم(١) يعهده المسلمون من قبل ، لقد نثر والد العروس فى ذلك من الأموال مالم ينثره ولم يفعله ملك قط فى جاهلية ولا فى إسلام — كما يقول المؤرخ المسعودى — فقد نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاق باسماء ضياع ، وأسماء جوار ، وصفات دواب، وغير ذلك ... فكانت البندقة إذا وقعت فى يد رجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر حظه وإقبال سعوده ... كما نثر على سائر الناس الدنانير من الذهب والدراهم من الفضة ونوافح المسك ، وبيض العنبر » .

غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد من التحلل المسرف من مبادئ

---

(١) ملامح من المجتمع العربى للأستاذ عبد الغنى حسن .

الدين ، ونظمه وأوامره ، وإنما سار الفساد إلى أبعد أشواطه يفت فى عضد الدولة الإسلامية ، حتى جعلها تلفظ النفس الأخير ، فمن يصدق أن عاصمة إسلامية كبغداد أيام العباسيين . والقاهرة أيام الفاطميين تقام فيها بيوت للإثم ، وتشيد دور للدعارة بإذن السلطان مع حمايته لها من جمهور الثائرين من المسلمين ... !

إننا نرى من « المواخير(١) والحانات فى عصر الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل تنقلب إلى دور للدعارة فى العهد البويهى ، وفى أيام « عضد الدولة بن بويه » بالذات ، ثم يقر ذلك الوضع الشاذ الغريب فى بلد إسلامى كالعراق الفارسى ، وترسم على هذه البيوت ضريبة تدخل حصيلتها إلى بيت المال . . . ! ثم تنتشر العدوى إلى مصر الفاطمية فنرى صاحب كتاب « الخطط » يشير إلى بيوت الفواحش التى كانت تجبى عليها الرسوم ، ويضمن تحصيلها ضامن ، تحت يده عدة صبيان ، وعليها جند مستقطعون وأمراء ؛ وكانت تشتمل هذه الضريبة ـ أو يشتمل تحصيلها ـ على ظلم شنيع ، وفساد قبيح ، وهتك قوم مستورين ، والهجوم على بيوت أكثر الناس ، وكان يختلط فى تحصيل رسوم الدعارة الشريف مع غير الشريف ، ويستوى فى شرور جبايتها الخبيث والطيب .

ومما يدل على إقرار الفاحشة فى مصر الفاطمية والأيوبية والمملوكية قول المؤرخ المقريزى فى موطن آخر من خططه ... ومقرر

(١) المصدر السابق .

ما على كل جارية أو عبد حين زولهم بالحانات لعمل الفاحشة ، فيؤخذ من كل ذكر وأنثى مقرر معين » .

وإلى هنا ونقف فنراجع ما كتبناه فى هذا الفصل لتبين أن التوفيق الذى لازم الإسلام فى تطوره التاريخى كدين ودولة تخلى عنه تماماً فى أواخر عهد عثمان بن عفان . وأن دفة الإسلام وجهت بعد ذلك وجهة أخرى مغايرة كل المغايرة لقواعده الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، واستمر هذا التيار الغريب عن روحه يتجاذبه ، ولم يقف إلا فترة وجيزة فى عهد عمر بن عبد العزيز لكى يسترد أنفاسه فقط ، ثم واصل بعد ذلك السير فى هذا الطريق الذى أدى بنا كسلمين إلى الضعف والتأخر والانحلال ...!

ولعل الدوافع التى دفعتنا إلى أن نسهب فى هذا الفصل من الكتاب تحقق الغاية المرجوة منها وهى تنبيه المسلمين إلى أن الإسلام لم يتحقق بقوته وشموله وسيطرته كدين ودولة معاً إلا فى عهد النبى وخليفتيه أبو بكر وعمر بن الخطاب فقط .

أما دولة الأمويين — عدا خلافة عمر بن عبد العزيز — وكذا دولة العباسيين والفاطميين وغيرهم ممن كانوا يحكمون باسم الإسلام فإننا لا نستطيع أن نؤمن بأنهم أقاموا خلافات دينية إسلامية بالمعنى الدقيق حسب نظرة الاسلام ، وبالتالى ليس الاسلام مسئولا عن تصرفاتهم ،

لأنهم فسقوا عن الطريق المستقيم الذى رسمه الاسلام لإقامة دولة يغذيها الدين ، فالمراحل التى اجتازها الاسلام محققاً أهدافه المثالية كلها وقفت بانتهاء خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

بقى بعد ذلك أن نبحث فى العناصر الدخيلة على الاسلام والتى كانت عاملا خطيراً من عوامل ضعف المسلمين وانهيارهم ، فلننتقل إلى الفصل الثالث لندرس الفرق التى وجدت فى الاسلام .

# الفرق في الإسلام

نحن نعلم أن عوامل الوعي ، وبواعث اليقظة والنهوض مهيأة الآن أمام العالم الإسلامي ، منفعلة بها نفوس أبنائه في أنحاء المعمورة . . ! بل أكثر من ذلك نرى أن رجال الفكر الغربيين قد اتجهوا إلى دراسة الإسلام وتتبع مراحله حتى عصرنا هذا باعتباره الدين الوحيد الذي قاد البشر في أحلك مراحل التاريخ . وباعتباره الدين الوحيد الذي خاطب الإنسانية جميعاً ، فكانت دعوته عالمية لم تقتصر على أمة دون أمة ، أو جنس من البشر دون جنس آخر . بل إنه الدين الوحيد الذي تعمق في دعوته وفيما بسطه من مبادئ إلى أعمق دخائل الإنسان ، فآخى بذلك بين الماديات والروحانيات بطريقة منسجمة رائعة لم يعرفها العالم من قبل سواء في الدعوات الإلهية أو البشرية ، فكون حضارة قائمة على إحياء وجودية الانسان وإحاطتها بسياج من الخلق النبيل ، والاخاء الحميد ، والكرامة المصونة . . ! ولكننا عندما نتتبع آراء هؤلاء العلماء الغربيين في الاسلام ، نراهم فريقين فريقا يقف أمام الظواهر فيفسر الاسلام على ضوء ما يرى عليه المجتمعات الاسلامية الآن من تأخر وجهل وانحطاط أو على ضوء دراسة التاريخ الاسلامي منذ العهد الأموي حتى الآن . أو على ضوء ما ابتدعته الفرق المتعددة ، وعلم الكلام في الاسلام...ولكننا نقول لهذا الفريق إن الاسلام ليس مسئولا عن كل ما توحي به هذه الظواهر ، لأنه في تطوره لم يسر في اتجاهه الطبيعي ، وإنما انحرف عن

مجراه فى أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان مما سنسهب فى توضيحه فى هذا الفصل من الكتاب . . ! أما الفريق الآخر من العلماء الغربيين وهم هؤلاء المفكرون الأحرار غير المتعصبين ، الذين لا يقفون أمام الظواهر ، وإنما يسعون إلى استكناه ما وراءها فإنهم لا يعترفون بأن الاسلام كان يحمل للبشرية عناصر تقدم ، وارتقاء ، ومدنية فحسب ، وإنما يتنبأون بأن الاسلام سيمسك بقيادة الانسانية من جديد ، فيكيف للعالم حياته تكييفاً آخر ، يتفق ومبادئه فى الإخاء والتعاون العالمى ، وما رسمه من دعائم اجتماعية وأسس اقتصادية ، وغايات مثلى لكل قيم الحياة . ونكتفى هنا برأى مفكر واحد من هؤلاء وهو « المستر جيب » حيث يقرر فى كتابه «حيثما يكون الاسلام»(١)..إن الاسلام مازال فى قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً فى تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى فى أفريقا والهند وأندونيسيا بل وتلك الجامعة الاسلامية الصغيرة فى الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة فى اليابان لتبين كلها أن الاسلام ما زال له القدرة التى تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات . ! فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بد من الالتجاء إلى الاسلام لحسم النزاع » .

ونحن هنا نكشف النقاب عن البواعث التى أوجدت الفرق فى الاسلام باعتبارها كانت من عوامل الهدم التى وضعت فى طريقه ،

---

(١) « الاسلام والنظام العالمى الجديد » تأليف مولاى محمد على .

والتى انتكست بالمسلمين إلى الوراء وبذرت فيهم بذور الفساد والاضمحلال الذى كان يزداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ مداه فى أول هذا القرن .

ولسنا فى حاجة لأن نؤكد هنا ونحن نخوض هذا البحث الشائك الدقيق . إننا سنستظهر الحق ونسعى إلى الحقيقة وحدها غير ملتفتين إلى أى اعتبار آخر من الاعتبارات . فنحن نعلم أن كثيراً من الكتاب يشفقون من الخوض فى هذه الفترة العصيبة المضطربة من فترات الاسلام . ويخشون أيضاً بعث الخصومة والفتنة من جديد بين ما يسمى بالاسلام السنى ، والاسلام الشيعى . !

وإن كنا لا نعترف نحن بهذه المسميات التى قسمت الاسلام إلى شيع وأحزاب يناقض بعضها بعضاً ، كما أنها مسئولة إلى حد كبير عن الانهيار الذى طرأ على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . . .

ولكننا رغم ما فى الموضوع من خطورة سنقدمه للمسلمين ، ولمن يعنون بالدراسات الاسلامية من الكتاب الغربيين لأننا نعلم أننا نسهم بذلك فى تغذية هذا الوعى الذى ظهرت بوادره الآن فى آفاق العالم الاسلامى جميعه فيعرف المسلمون وغيرهم ممن يعنون بتاريخ تطور الاسلام ، كيف أن الاسلام فى تعاليمه الخالدة المرسومة فى الكتاب المقدس وفى الأحاديث النبوية الصحيحة التى يتفق روحها وروح القرآن الكريم . كان ضحية بين المسلمين طوال عصوره الماضية منذ خلافة عثمان إلى يومنا هذا ، وقبل هذا الوعى الذى نرى شمسه تشرق علينا الآن وذلك نتيجة

للسذاجة والجهل من جهة ، وللعصبية العمياء ، والسياسة المتلونة العاهرة من جهة أخرى ... !

ولكننا قبل أن نمضى مستعرضين هذه الفرق ، باحثين عن العوامل التى ساعدت على خلقها وتكوينها ، مستظهرين بعد ذلك الأهداف التى ترمى إلى تحقيقها نحب أن نقرر هنا شيئين :

أولاهما : وجود العداء المستتر للإسلام فى داخل الجزيرة العربية وفى غيرها من الأمصار التى فتحها المسلمون ، وهذا العداء المستتر أشد خطورة وأعمق شراً وإثماً من العداء السافر حيث لا يمكن توقيه بالحذر والاحتياط منه لأنه ليس إلى العلم به من سبيل . وهذا العداء تجمعت خيوطه الأولى بعد فتح مكة وإخضاع الجزيرة العربية كلها للإسلام حيث سلبت سلطات الزعامة التى كان يتمتع بها زعماء قريش فى العهد الجاهلى ، ولم تستطع حدة العداء للإسلام والنيل منه أن تتلاشى من نفوس هؤلاء الزعماء حتى بعد انتظامهم فى زمرة المسلمين ، فيروى أن أبا سفيان كان يريد أن يحدث فتنة بين المسلمين بعد أن اتفقوا فى اجتماع سقيفة بنى ساعدة على مبايعة أبى بكر خليفة للمسلمين فذهب إلى أسرة بنى هاشم ونادى : « يا على ! وأنت يا عباس ! . . ما بال هذا الأمر فى أرذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئتما لأملأنها عليه خيلا ورجلا وآخذنها عليه من أقطارها » ، فأسكته على بهذا الرد الحاسم فقال : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا » ولولا أننا

رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه وإياها ، ثم أراد أن يفضح مقصده ومرماه من وراء ذلك فقال : « يا أبا سفيان ! إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض . . متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم » .

أما فى الأمصار وبخاصة فارس والعراق والشام ، فإن أهل هذه البلاد كانت لهم قدمة وسابقة فى الثقافة والنشاط الفكرى ، والعرب بدو خرجوا من الصحراء فاتحين هذه البلاد ، وهم يحملون معهم طباع البدو ، فى بساطته وفطرته وسماحته ، فكان من السهل عليهم أن يتأثروا بما يثيره أهل هذه البلاد ورجال الدين منهم خاصة فى علم الألوهيات والغيب ، وما وراء الطبيعة ، والجزاء والعقاب ، والجنة والنار ، وغير ذلك مما كان باعثاً قوياً لاصطناع عقائد الفرق العديدة فى الاسلام ! .

غير أننا نلاحظ فضلا عن ذلك أن بعض من أسلم من أهل هذه البلاد لم يكن مخلصاً للإسلام كل الاخلاص ، وهذا هو موضع الخطورة كما أوضحنا ذلك سابقاً ، فبث سمومه وأفكاره الهدامة فى نفوس هؤلاء العرب البدو من الجنود الفاتحين دون أن يشير حوله شيئاً من الحذر أو الانكار ! . . ولعل هذا يعطينا فكرة واضحة عن أن منشأ الفرق فى الاسلام لم يتعد فارس والعراق من كل البلاد التى كان يحكمها الاسلام يوم مولد أول هذه الفرق فى آخر عهد عثمان .

ثانيا : أن عليا بن أبى طالب لم يسع للخلافة ، ويرى أنه أحق بها لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن هذه القرابة وحدها

تعطيه الحق فى أن يكون على رأس المسلمين إماما لهم وحاكما ، وإلا لما سكت على وبايع ورضى عن طريقة الحكم فيما تقدمه من الخلفاء الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان فى سنوات حكمه الأولى ، ونحن نعرف صراحة على وحرصه على الحق والزود عنه فكان فى جميع تصرفاته يصدر عن طبيعة صافية خالصة لا تعرف المواربة ، ولا التلون ، ولا الخداع ، ولا هذا النفاق السياسى الذى يسمونه الدهاء ! فيبطن غير ما يظهر ، ويتقمص شخصيات عديدة تبعا للظروف والمناسبات . .

ولكن عليا لم يكن فى حياته كلها على حظ كبير أو ضئيل من هذا التلون ، والنفاق والدهاء الحقير لأن نفسه الأبية الكبيرة تنفر من ذلك وتأبى عليه كل الاباء ولذلك كان ضحية فى سياسته لهذه النفس الصافية الخالصة المترفعة عن الصغائر أمام معاوية الذى كان لا يتورع عن استعمال هذا السلاح القذر من النفاق والخداع والخيانة ، وتبرير الوسائل المنحطة فى سبيل الوصول إلى الغايات المطلوبة . !

وينبغى أن نؤكد هنا معتمدين على استلهام الحوادث ، وطبيعة الأمور ، ودراسة النفسيات ، أن ما نسب إلى على من أنه كان يرى أحقيته بالخلافة من أبى بكر لكونه ابن عم النبى أولا وزوج ابنته فاطمة ثانياً ليس له أى أساس من الصحة ، ولا يعتمد على سند قوى كما سنسهب فى توضيحه الآن ... وماذهب إليه كثير من المؤرخين من أنه وجد لعلى حزب يرى أنه أحق بالخلافة للأسباب التى ذكرناها منذ عهد أبى بكر ، ولكن هذا الحزب وعلى رأسه على لم يستطع الجهر بدعوته تلك طيلة

خلافة أبى بكر وعمر ، والسنوات الست الأولى من خلافة عثمان لظروف خاصة منها إجماع المسلمين على إنتخابهم وتأييد أهل الحل والعقد من أئمة المسلمين لهم لما كانوا يمتازون به من تفان فى خدمة الإسلام ، والمحافظة على تعاليمه ! . .

أعتقد أن ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون لا يتفق أبداً مع على بالذات . . مع تكوينه النفسى ، وطباعه الذاتية التى تنفر من الرضوخ للضيم والتفريط فيما يراه حقاً كما يريد أن يصوره هؤلاء المؤرخون ! مع أننا رأينا فيما بعد شدته فى الحق ، وتمسكه به بقوة وصرامة فى موقفه من عائشة ، وطلحة ، والزبير فى موقعة الجمل ، ثم موقفه بعد ذلك من معاوية والخوارج دون نظر إلى النتائج ما دام يرى أنه يعمل فى سبيل الحق ، وإقامة العدل. . . ونعتقد أن المصادر التى اعتمد عليها هؤلاء المؤرخون فى أن علياً كان يرى أحقيته بالخلافة بعد الرسول عليه السلام هى مصادر الشيعة وحدها التى لم تحظ بتأييد من على والتى بنت عليها الشيعة فيما بعد نظريتها فى الخلافة ليكون من ذلك سنداً لها فيما تدعو إليه من أخذ أبى بكر وعمر وعثمان الخلافة غصباً من على مع أن الدارس المتعمق يرى أن طبيعة الخلافة وطبيعة الحكم الإسلامى فى عصوره الثلاثة الأولى وهى العصور التى سبقت خلافة على كانت مثقلة بالمسئوليات والجهد المضنى والجهاد الشاق دون أن يقابل ذلك ميزات من ترف ، أو جاه ، أو مال . أو رفعة وتمتع بسلطات أوتقراطية كما كان سائداً فى العالم وفى العهود الكسروية والقيصرية بالذات ، وكما ساد بعد فى عهد الأمويين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين وغيرهم إلى يومنا

هـذا . ! فلم يكن تطلع هؤلاء الخلفاء إلى الخلافة إلا تضحية منهم يبذلونها لصالح الإسلام والمسلمين دون أدنى شعور من الخليفة بالامتياز على جمهور المسلمين فى أى شىء ، أو التطلع إلى حقوق لا تتوفر لغيره من رعاياه ، فهذا أبو بكر يصعد إلى المنبر عقب توليته الخلافة ، فيخطب جمهور المسلمين فيقول : «إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى » .

وهذا عمر بن الخطاب وهو خليفة للمسلمين يساوم رجلا من رعيته فى شراء فرس ، ثم يركبه ليجربه ، فيعطب ، فيرده إلى صاحبه ، فيأبى أن يأخذه ، فيقول له عمر : اجعل بينى وبينك حكما ، فيرضى الرجل بقضاء شريح العراقى ، فتحاكما إليه ، فقال شريح بعد أن سمع حجة كل منهما : « يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت » ، فأكبر عمر هذه النزاهة من شريح وقال : « وهل القضاء إلا هكذا . ! » ، ثم أقام شريحاً على قضاء الكوفة تقديراً لنزاهته وعدله .

فمنصب الخلافة فى العصر الأول للإسلام كان كما قلنا ليس سعياً وراء مال أو جاه أو شهرة أو التمتع بسلطات مطلقة ، وإنما كان يتميز بالبذل والتضحية والعرق والسهر فى سبيل مصالح المسلمين دون أن يقابل ذلك شىء من متاع الحياة الدنيا . وكل ما كان يبتغيه أى خليفة من هؤلاء الخلفاء من وراء ذلك كله هو رضاء الله ورضاء رسوله الكريم فى مثواه الأخير .

فتصور أى حق من حقوق الخلافة لعلى من غير أن يبايعه جمهور

المسلمين ، أو يعهد إليه بها أهل الحل والعقد . شيء لم يقبله على بالذات عندما أثير فى حياته ، لأنه بعيد عن روح الإسلام التى جعلت أساس الحكم شورى بين المسلمين ، ولم يجعله خاضعاً لحكم الوراثة أو القرابة أو العصبية .

لكل ذلك نعتقد أن علياً لم يكن يؤمن بأنه أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر وعثمان ، وإلا لجاهر بهذا الحق وتمسك به منذ أول خلافة أبى بكر ، ولما قبل أن يصلى وراء من تقدمه فى الولاية من هؤلاء الخلفاء الثلاثة ، ولا أن يشترك فيما كان يعرض عليهم من أقضية ، ومن أمور تتعلق بالخلافة . . وإذا كنا استبعدنا عن على رضى الله عنه ما نسب إليه من أنه كان يرى أحقيته بالخلافة لقرابته من النبي وكونه من بنى هاشم آل بيت الرسول عليه السلام ، فإننا لا نستبعد وجود شيعة تدعو لعلى فى ظاهر الأمر ، ولكنها تبطن أن يحدث من وراء ذلك أن تقع فتنة بين المسلمين بعضهم بعضاً ، فتتفرق وحدتهم ، ويشغلون بعضهم بعضاً ، فتقف فتوحات الإسلام عند حد ، ولا يستطيع السيطرة على المعمورة جميعها ، وهو الذى يكنون له العداء ، لأنه سلب منهم سلطات وامتيازات سواء داخل الجزيرة العربية ممن كانوا سدنة الأصنام أو غيرها من الأمصار ممن كانوا كهنة لليهودية والمسيحية والمجوسية .

وسنرى عند ما نتحدث عن فرقة الشيعة ، وما تفرعت عنها من فرق أن بعضها لم يقف شره عند حد إشاعة الفرقة والخصام بين المسلمين بعضهم بعضاً فقط ، وإنما أراد أن يفسد العقيدة من أساسها ، وأن يقتلع أركان الإسلام من أصولها ، كما ذهبت إلى ذلك فرقة السبئية

وهم أتباع عبد الله بن سبأ الذى كان يهودياً ثم أسلم فى الظاهر ، وهو الذى زعم النبوة لعلى ، ثم غلا فى دعوته فزعم أنه إلـه ، واتبعه فى دعوته نفر كبير من أهل الكوفة ، ولما نهاهم على عن ذلك ولم يقبلوا أمر بإحراق بعضهم ونفى بعضهم الآخر .

وهناك فرقة أخرى تسمى الغرابية ذهبت إلى أن النبوة كانت لعلى ولكن جبريل أخطأ وأوحى بها إلى محمد وهم يستبيحون لعنة جبريل ومحمد لأخذهما النبوة من على كما يزعمون .

وهكذا كما ترى إذا تتبعنا الأصل الذى انبعثت منه هذه الفرق ، والغايات التى قامت تهدف إليها ، نجده يرجع إلى العداء المستتر المقنع للإسلام سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها كما ذكرنا قبلا . ! وأن هذا العداء الذى كان يتمثل فى سدنة الأصنام من العرب ، أو فى كهنة المجوسية واليهودية والمسيحية كان يهدف من وراء كل ذلك إلى إدخال الفساد على عقيدة المسلمين . وإبعادهم شيئاً فشيئاً عن روح دينهم وصفاته الذاتية ، لأنهم كانوا يذهلون من أن الإسلام جعل من هؤلاء البدو الأجلاف ، ومن أتباعه الذين كانوا مستضعفين فى الأرض رجالا أقوياء متعاونين على البر والتقوى يدعون إلى مثل عاليا فى الحياة ويمسكون بيدهم قيادة البشرية . وقد رأيت من حديث ابن كَثِير وابن خَلْدُون فيما سبق ما يتفق مع وجهة نظرنا تلك .

وإذا كان فون كريمر يقرر أن أول الفرق التى وجدت فى الإسلام هى المرجئة والقدرية . ويرجع ذلك إلى أن أول اتصال حدث بين

الإسلام وغيره من النظم والديانات كان هو النظام المسيحى ... ومع عدم موافقتنا على هذا التعليل وعلى مايذهب إليه من أن المرجئة والقدرية هما أول الفرق فى الإسلام ، وبالتالى من أن المسيحية هى أول ديانة أو نظام اتصل بالإسلام ، فإننا نحب أن نعرض رأيه هنا كاملا . قال :

« كانت(١) المسيحية أول نظام اتصل بالإسلام اتصالا وثيقاً ، إذ كانت دمشق فى وقت من الأوقات مقراً للخلفاء الأمويين . وتقدمت فيها دون ريب فى ذلك الوقت مدرسة دينية ، تخرج منها بعض علماء الكنيسة الشرقية البارزين ، وتقدمت فى عاصمة الخلفاء حياة فكرية نشطة ، ولابد أن العلاقات بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين كانت متشعبة ، وفى استطاعتنا أن نتأكد أن المناقشات الدينية بينهم كانت كثيرة جداً حتى ولو لم تذكر لنا المناقشات بين المسلمين والمسيحيين فى كتابات يوحنا الدمشقى ، وتيودور أبو قرة ، ومن المحتمل جداً أن تكون قد نشأت من تلك المناقشات الدينية الطوائف الإسلامية الأولى وهى طوائف المرجئة والقدرية » .

ولما كان معظم الخلفاء الأمويين قد انصرفوا إلى حياة اللهو ، فإنهم أظهروا تسامحاً عظيما حيال المسيحيين وأهالى الديانات الأخرى غير الإسلام . فلم يكن المسيحيون يدخلون بحرية بلاط الخليفة فحسب ، بل كانت تسند إليهم أهم المناصب . وقد تمتع سرجيوس والد يوحنا الدمشقى فى بلاط الخليفة عبد الملك بمنصب المشير الأول ، وبعد وفاته أسند

---

(١) راجع كتاب الحضارة الاسلامية ص ٦٥ .

المنصب نفسه إلى ابنه ؛ وكان أحد المسيحيين هو شاعر بلاط الأمويين الرسمي(١) .

ولكن خدابخش فى مقدمته لكتاب فون كريمر ينفى وجود هذا الاتصال الوثيق بين المسلمين الأولين والمسيحيين وإن كان اعترف بحدوث هذا الاتصال بعد ذلك حيث يقول : « وإذا(٢) كانت معلومات المسلمين الأول عن المسيحية غير وافية ، فإن من الجلى أنهم فى الأزمة المتأخرة عرفوها معرفة كاملة ، ويبدوا أن ابن حزم وزير عبد الرحمن الخامس ( مارس ١٠٢٤ — ديسمبر ١٠٣٣ م ) كان على علم تام بتعاليم المسيحية لأنه يقول :

يجب أن لا نعجب حين نرى الناس يتمسكون بالخرافات . أنظر إلى المسيحيين فإنهم كثيرون إلى حد أن الله وحده هو الذى يعرف عددهم، ومن بينهم أناس على قدر كبير من الفطنة ، وأمراء على قدر كبير من الشرف ، ومع ذلك فإنهم يعتقدون أن ثلاثة واحد وواحد ثلاثة ، وأحد الثلاثة هو الأب والآخر الإبن ، والآخر الروح ، والأب هو وليس هو الإبن ، والرجل هو ، وليس هو الله ، والمسيح هو الله فى كل شىء ومع ذلك فهو ليس مثل الله ، والموجود الدائم مخلوق ، بل إن إحدى فرقهم التى يسمون أتباعها اليعاقبة والتى يبلغ عددها مئات الآلاف تعتقد أن الخالق نفسه عذب وصلب وقتل حتى أن العالم ظل بدون سيده ثلاثة أيام » انتهى .

---

(١) يعنى بذلك الأخطل .

(٢) مقدمة خدابخش لكتاب فون كريمر ص ٢٥ .

ولـكن ينبغى أن نوضح هنا أكثر مما أوضحنا قبلا العوامل التى ساعدت على نشوء هذه الفرق فى الإسلام . . ! وهذا التوضيح يقتضينا أن نثير هنا سؤالا جد خطير ؟ وهو لو فرض ولم يحدث هذا النزاع بين على ومعاوية على الخلافة وهو الذى ارتبط به نشوء أول الفرق المنظمة السافرة عن نفسها فى الإسلام وهم « الخوارج » ، أكان يمكن أن توجد فرق أخرى مثل هذه الفرق المتنافرة المتناقضة المبادئ والمذاهب والتى يكفر بعضها بعضاً ويحارب بعضها بعضاً ... !

أما نحن فنجيب بالايجاب ، ذلك أن الاسلام جاء من أول أمره ديناً عاماً شاملا للبشر جميعاً ، وهو بذلك يختلف عمن سبقه من ديانات ، وعن الديانتين السماويتين قبله بوجه خاص ، فالديانة اليهودية نزلت لبنى إسرائيل وحدهم باعتبارهم كما يزعمون « شعب الله المختار » ، وكذلك المسيحيه نزلت أول ما نزلت لليهود ، ولم يكن يسمح بالدخول فيها لغيرهم حتى دعا القديس بولس الرسول غيرهم من الناس إلى الانضواء تحت لوائها بنفس الامتيازات والحقوق التى لليهود !

ولـكن الاسلام جاء من أول أمره ديناً عالمياً ، ودعوة عامة للبشر كافة ، فدخلته أجناس كثيرة مختلفة العقول متباينة الأمزجة والطباع . ! ومع أن الاسلام فى قوته وروعته ، ووعيه الصحيح الناضج لحقيقة النفس البشرية استطاع أن يوفق ويجانس بين هذه الأجناس المختلفة ، والعقول المتباينة فى حياة الرسول عليه السلام ، وفى حياة خليفته الأول الصديق أبى بكر ، الذى كان عهده استمدادا فى الواقع لعهد الرسول

عليه السلام ، وتمثل قوى دقيق لكل ظاهرة أو صورة من صور عهد النبوة ، فكان كما أثر عنه : ( إنما أنا متبع ولست بمبتدع ) ، ثم أتى عصر الفاروق عمر بن الخطاب ، وقد انتشر الاسلام انتشاراً قوياً سريعاً خارج الجزيرة العربية ، فقضى نهائياً على الامبراطورية الفارسية ، وأصبحت الامبراطورية الرومانية هى الأخرى مهددة بالزوال بعد أن قص جناحاها ، ووطد المسلمون أقدامهم فى معظم أركانها فاتحين غازين مبشرين بالدين الجديد ! . .

إلى هنا قضى الاسلام على كل مقاومة أمامه ، وتلاشت كل قوة تقف فى طريقه ، فأصبح سيد الموقف ، وأمسك بيده عن جدارة قيادة السفينة الانسانية فى أحلك مراحل التاريخ البشرى ، فأدار دفتها نحو الحق ، والعدل والخير ، والسعى لتحقيق مثل عليا للحياة . !

فعهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه يمثل الاسلام فى أدق وأخطر فترة فى حياته ، لأنه فى هذا العهد اتسعت الفتوحات الاسلامية خارج الجزيرة العربية اتساعاً هائلا عظيما ، واتصل المسلمون الفاتحون بأمم وأجناس شتى تتباين أخلاقهم وطباعهم ، ويأخذون الحياة على أنها ترف وملذات ، وإسراف فى الشهوات ، وكانت ظروفهم الاقتصادية ، وطبيعة أقاليمهم الخصبة ، واتساع رقعة أوطانهم الممتلئة بالثروة ، ثم نظام الأقطاع الذى كانوا يخضعون له فى حياتهم ، كل ذلك كان يساعدهم على هذا الترف المسعور . . . وهنا موضع الخطر لأن جنود المسلمين عرب بدو ، لم يعرفوا طعماً لنعومة العيش ولا اليسر فى طلب القوت

لجدب أرضهم ، وقسوة الطبيعة عليهم فكان يخشى من أن يتأثروا بمظاهر البذخ والترف والإغراق فى الشهوات الذى كان سائداً امبراطوريتى فارس والروم . . . ! ولكننا نرى عكس ذلك ، نرى هؤلاء العرب البدو الذين خرجوا من الصحراء ، ولم تكن لهم أى قدمة أو سابقة فى مظاهر الحضارة المادية أو الفكرية تراهم الذين يؤثرون فى غيرهم من أبناء الأمم التى ذهبوا إليها فاتحين ومبشرين بدين جديد ، وهذا التأثير كان قوياً عنيفاً عميق الأثر بحيث جعل الكثير من أبناء تلك الأمم يقبلون على الإسلام طواعية بدون ضغط أو إكراه ، بل بدون عظات ، ومجادلات كلامية ، لأننا كما قلنا غير مرة إن الصفة التى يتميز بها الإسلام عن غيره من الديانات أنه الدين الذى جاء يتفق مع الواقع ، فلم يتأ ألبتة فى كل مبدأ دعا إليه أو نظرية أقامها عن الطبيعة البشرية ، وعما تخضع له من أمور مادية ، وتتأثر به من مسائل روحية ، وأنه ربط بين العبادة والسلوك الإنسانى ، فكان بذلك ديناً عملياً يعتنى بالمظهر والجوهر جميعاً ، فلا غرو بعد ذلك أن تنطبع مبادىء الإسلام وتعاليمه فى أعمال أتباعه وسلوكهم الشخصى ، وبذلك كان تأثيرهم فى غيرهم ، وكان انتشار الإسلام أقوى وأسرع مما لو كان بالإكراه والترغيب والمواعظ والإرشادات .

وكان لممثل الدعوة ، أو القائم عليها الأثر الخطير فى ذلك ، وهو هنا فى هذه الفترة من فترات الإسلام الدقيقه عمر بن الخطاب الذى تكافأت شخصيته مع اتساع رقعة الإسلام ، وما ترتب على ذلك من تواكب المشاكل الجسام التى كان يعالجها الخليفة ببصيرة نافذة ، وعقلية

ناضجة ومعرفة للنتائج من المقدمات فتم الانسجام ، والتوافق على أروع صورة فى عهده بين نظم الإسلام وروحه العامة وبين تلك الأجناس المتعددة، المختلفة الأمزجة ، المتنافرة الطباع والعادات . . . ولكننا إذا ماتركنا هذه العصور الثلاث وهى عصر النبى ، وعصر أبى بكر ، وعصر عمر ، نجد أن عوامل الذبذبة الخبيثة ، وعوامل العصبية البغيضة أطلع بوجهها الكئيب من جديد بعد أن قضى عليها الإسلام فى أول أمره قضاء لا هوادة فيه ، وساعد على ذلك عدم التكافؤ بين شخصية الخليفة الثالث عثمان بن عفان لشيخوخته وتساهله وضعفه أمام أسرته ، وبين ملء مكانة عمر وسيطرته على الأمور ، فظهرت أولا عصبية العرب نحو الموالى بعد المؤامرة الفارسية التى دبرت لقتل عمر بن الخطاب ، ثم ظهرت ثانياً عصبية أسرة عثمان نحو الأسرة الهاشمية وتفردها بالسلطان وخضوع الخليفة لمشيئتها فيما تريده من أمور :

فظهور هذه العصبيات وعدم قدرة الخليفة على مكافحتها والقضاء عليها بدون هوادة وهى مازالت فى مهدها هى التى مهدت التربة الصالحة لبذور الفرقة والاختلاف بين المسلمين . أضف إلى ذلك العداء المقنع للإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها ، والذى وجد فى هذه الفترة من حكم عثمان التربة الصالحة لبث سمومه لتشويه سماحة الدين وروعته وبساطته تحت ستار الإسلام .

وعلى هذا الأساس وحده يجب أن تفهم البواعث الحقيقية لظهور الفرق فى الإسلام .

وإذا كان بعض الكتاب الغربيين ومن سايرهم بعد ذلك من الكتاب الشرقيين يرجعون بواعث نشوء هذه الفرق إلى أن تعاليم الإسلام فى الكتاب المقدس وفى السنة النبوية لم تتكافأ مع سرعة تطور المسلمين، ولم تتفق وطبيعة الظروف التى كان المسلمون يجتازونها، فلم يكن إذاً بد من أن توجد مثل هذه الفرق لأن الظروف تقتضى إيجادها .. !

وهكذا نجد «جولد تسيهر» يقرر بأن القرآن لا يكفى وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية حيث يقول «الواقع أن هذا الكتاب لم يحكم الإسلام إلا فى خلال العشرين سنة الأولى من نموه. فنى خلال حياة الإسلام التاريخية كلها ظل القرآن فى رأى أتباع محمد عملا أساسياً محترماً باعتباره موحى به كما ظل كذلك موضع إعجاب عظيم إلى حد لم يظهر به أى عمل من الأعمال الأدبية العالمية ... إلى أن يقول بالرغم من كل هذا فإننا لا يمكن لنا أن نتناسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن يكفى وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية».

ويذهب إلى ذلك «العقاد»، وإن كان اتخذ له منحى آخر، ولكنه على كل حال يتفق مع «جولد تسيهر» على أن ظروف الزمان، وطبيعة التطور التاريخى للمسلمين هى التى ساعدت على عدم سيطرة الإسلام على اتجاه المسلمين كما كانوا فى عصورهم الأولى، فيقول فى كتابه «أبو الشهداء».

«قلنا فى كتابنا عبقرية الإمام ما فحواه، إن الكفاح بين على ومعاوية لم يكن كفاحاً بين رجلين. أو بين عقلين وحيلتين. ولكن كان على

الحقيقة كفاحاً بين الإمامة الدينية ، والدولة الدنيوية ، وأن الأيام كانت أيام دولة دنيوية ، فغلب الداعون إلى هذه الدولة من حزب معاوية. ولم يغلب الداعون إلى الإمامة من حزب الإمام .

ولو حاول معاوية ما حاوله على لأخفق وما أفلح ، ولو أراد على أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئاً عند محبيه ولا عند مبغضيه .

فإذا جاز لأحد أن يشك فى هذا الرأى ، وأن يرجع بنجاح معاوية إلى شىء من مزاياه الشخصية ، فذلك غير جائز فى الخلاف بين الحسين ويزيد ، وكل ما يجوز هنا أن يقال إن أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الإمامة على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الإمامة غير مطالب الزمان » .

وهذا كما ترى رأى لا يتفق ألبتة مع طبيعة الأشياء ، واستنتاج لا ينسجم مع الدعوات المحدودة ببيئة خاصة ، والتى لم ترتب نجاحها على أسس مفتعلة ، وإذا كان الأمر كذلك مع مثل هذه الدعوات الإنسانية المحلية ، فكيف يمكننا أن نصدق أن الإسلام ممثلا فى الكتاب المقدس ليس قادراً على أن يساير تطور المسلمين التاريخى ، ثم كيف يمكننا أن نصدق أن هذا الدين العالمى الذى نجح وانتشر بسرعة وبأساليب طبيعية لم نعهدها فى الدعوات الدينية أو الدعوات البشرية ، والذى فتح أمام العالم آفاقاً جديدة من المعرفة البشرية ، والتطلع إلى إقامة مثل عليا للحياة .! نقول كيف يمكننا أن نصدق أنه كان يتعارض مع اتجاه الزمن ومع تطور الحياة .. !

إن « جولد تسيهر » ومثله « العقاد » قد غفلا فى استنتاجهما هـذا عن واقع التاريخ . وقد جهلا بما كان يعتور حياة البشرية قبل نزول الدعوة الإسلامية من تطلع إلى حياة أخرى تنتشلهم عما كان يسودهم من ظلم وفساد وانحلال ، فضـــلا عن أنه لا فرق بين الأمامة والسياسة فى الإسلام .

وواقع التاريخ يؤكد لنا من الناحية الدينية أن الفساد كان يتطرق إلى العقائد الدينية نتيجة للتعقيدات ، والمناقشات الكلامية التى كان يحترفها رجال الدين من الكهنة والقسس ، والتى كان يتنـــاقض بعضها بعضاً ، ولذلك نهى الإسلام عن الخوض فى مثل هذه الأمور ، حتى أن اليهود عندما سألوا النبى عليه السلام عن الروح نزل قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قَلِيلا » .

ثم إن دوافع الجهل والانحطاط ، وضـــياع الكرامة البشرية ومشروعية قيام الطبقات المتفاوتة ، وسيادة الشهوات الفاجرة ، كل ذلك كان ملازماً للنظام الأوتقراطى الملكى الذى كان سائداً العالم بطريقة بشعة مفزعة قبل نزول الإسلام ، وكان العالم يتلمس طريقاً ليزيح عن كاهله هذا الكابوس المخيف ، وليسترد أنفاسه التى أجهدها هذا النظام وما يحمله من عناصر الضعف والاضمحلال حتى وجد الإسلام الذى يقدس الحق والعدل والمساواة المطلقة ، وأن لا فضل لأحد على أحد للوراثة أو العصبية أو الجاه أو المال أو السلطان ، فقرر بذلك للعالم مبادىء جديدة لم تر الإنسانية ولن ترى أعظم ولا أروع منها فى عصورها المقبلة إلى أبد الآبدين . . . !

نقول كيف يتفق كل هذا وما يذهب إليه العقاد من أن التيار الذى كان يتجاذب الإسلام هو تيار الملك الدنيوى ، وقد تغلب على تيار الإمامة لأنه يتفق مع التطور الزمنى ! !

كيف يتفق كل هذا ولما يمض على الإسلام أكثر من ربع قرن!! اللهم إننا لا نعترف بما يذهب إليه هذان الكاتبان ، ونقرر هنا اعتماداً على إيحاءات الحوادث . . وطبيعة الأشياء ، ومنطق التاريخ أن الصدفة السيئة وحدها هى المسئولة عن التحول الذى طرأ على وجهة الإسلام ، وذلك بتولى عثمان بن عفان خليفة للمسلمين بعد عمر ، فلم يستطع أن يملأ مكانه ، ولا أن يمسك بيديه دفة السفينة فى قوة وصرامة ، ويقظة واعية فى أدق وأخطر فترة من فترات الإسلام ! وهنا برزت عوامل الانتكاس تتذبذب أمام المسلمين ، هنا نهض العداء الدفين للإسلام داخل الجزيرة وخارجها ليعمل عمله فى جسم الإسلام القوى الصلب ، هنا أطلت العصبية القبلية البغضاء بوجهها الكئيب ، فناصب الأمويون الأسرة الهاشمية العداء باعتبارها كانت نداً لهم فى الجاهلية ، فسادت أخلاق الجاهلية من جديد ، وظهرت عوامل الفرقة والخصام والتنافس فى المجتمع العربى فى الجزيرة وفى الأمصار ، ثم ظهرت عنجهية العرب وتعاليهم نحو الموالى بصورة إن لم تزد فى قسوتها ومغالاتها على ما كانت عليه فى الجاهلية فهى لا تقل عنها فى شىء ، ففقد بذلك الموالى مكانتهم السياسية والاجتماعية التى أوجبها لهم الإسلام بتشريعه المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات ، وتكافؤ الفرص ! كل ذلك والخليفة ساكن

صامت قد أفلت من يده زمام الموقف ، وقد كبرت أمامه الحوادث في سرعتها الجنونية ، وجموحها الشديد .

ونحن نحمل المسئولية كلها في إيجاد هذه الفرق إلى هـذه الفترة المضطربة من تاريخ الإسـلام ، وأن هـذه الفرق جميعها فيما أقامته من نظريات وتعاليم ، واستحدثته من مبادىء هدامة كان كل ذلك دخيـلا على الإسلام ، وعلى الأمة العربيـة التي تنفر طباعها وعاداتها الموروثة من التأويلات والتعقيدات الشائكة للعقيدة الدينيـة ، بل لنظرتهم إلى الحياة ، وحكمهم على الأمور والأشياء جميعاً .

والآن فلنلخص كل فرقة من هذه الفرق بكلمة عن نشأتها ، والعوامل التي ساعدت على تكوينها وآثارها المخربة الهادمة لنتحقق من صـدق نظريتنا في أن أصل هذه الفرق أجنبي على الإسلام ودخيل على العرب ومن أن هذه الفرق كانت عوامل هدم وفسوق عن السير في طريق الإسـلام الصحيح ، وسـنتحدث عن الخوارج أولا باعتبارهم أقدم فرقة منظمة في تاريخ الإسلام .

## (١) الخـــوارج

لما تمرد معاوية حاكم الشام على مبايعـة علي بن أبي طالب خليفـة المسلمين ، واتهمه بأنه يتستر على قتلة عثمان ذهب علي رضي الله عنه على رأس جيش من أتباعه لمحاربتـه ؛ والتقى الجيشان جيش علي وجيش معاوية في معركة (صفين) ، ولما لاحت بوادر النجاح لعلي ، وغلبـة

جيشه على جيش معاوية ، وكاد يتم النصر فى هـذه المعركة الحاسمة التى لو قدر لها النجاح لتغير وجه التاريخ .

لما لاحت بوادر النصر ، وكادت الدائرة تدور على معاوية وجنده تفتق ذهن عمرو بن العاص عن حيلة ينقذ بها الموقف ، فأمر جند معاوية برفع المصاحف على أطراف الرماح محكمين كتاب الله فيما شجر بينهم من خلاف . وقد رأى على رضى الله عنه ألا يقبل التحكيم فى أول الأمر لعدم التكافؤ فى الخصومة والاختلاف بينه وبين معاوية ، وللتباين الشديد فى الموقفين ، فموقف معاوية لا يزيد عن كونه خارجاً عن طاعة السلطان ، متمرداً على الخليفة بعد أن بايعه جمهور المسلمين بالخلافة عدا الشام التى كانت واقعة تحت سيطرة معاوية ، لأنه كان عاملا عليها . وما كان جهره بأنه خارج على على لتستره على قتلة عثمان ، وعدم اقتصاصه منهم إلا ستاراً كان يخفى وراءه فزعه الشديد من أن تخرج السلطة من الأسرة الأموية إلى الأسرة الهاشمية . وقد رأيت فيما قدمناه لك أن بواعث العنصرية والعصبية قد ظهرت فى عهد عثمان بن عفان ، وتمت وازدهرت وأصبحت كما كانت فى الجاهلية ، بل أقصى مما كانت ، فلم يكن من السهل أن يقبل معاوية أو أحد من أسرته بأن تخرج من يدهم تلك السلطات والامتيازات الأدبية والمادية التى تمتعوا بها منذ خلافة قريبهم عثمان ، ويصبحوا وليس لهم من الأمر شىء ، ولذلك دبر معاوية ومستشاروه تلك المكيدة الأثيمة وهى مكيدة التحكيم ، وبالرغم من أن علياً لم يقبل التحكيم أول الأمر للأسباب التى ذكرناها ، إلا أن أكثر جنوده مازالوا به حتى قبل التحكيم وهو له كاره ، ولكنهم رجعوا

فاختلفوا معه مرة أخرى فى اختيار الحكم فاختاروا هم أبا موسى الأشعرى بينما اختار على عبد الله بن عباس ، ولكنهم حملوه مرة أخرى على أن يخضع لأمرهم فى تعيين الحكم ، فخضع لهم ورضى بأبى موسى الأشعرى وكيلا عنه كما ارتأى ذلك جنوده منعاً للفرقة والاختلاف بينه وبينهم ، وسار الحكمان يصحبهما أربعمائة رجل إلى بلدة بين العراق والشام تسمى ( أذرح ) اختيرت لهذا الغرض .

وكان مندوب معاوية فى التحكيم هو داهية العرب وأمكرهم عمرو بن العاص ، أما مندوب على وهو أبو موسى الأشعرى ، فالمشهور عنه أنه ورع تقى صافى القلب والضمير لم ينظر إلى المسألة كقضية يتمسك فيها بالحق مهما كانت النتائج والظروف . وإنما رأى أن صالح المسلمين يقتضى التخلص من على ومعاوية جميعاً . فلما اقترح عليه عمرو بن العاص أن يخلع كل منهما صاحبه ليريحا بذلك المسلمين من عناء حرب ضروس ومن سفك دماء بعضهم بعضاً ، وجد هذا الاقتراح هوى فى نفسه وقبله بدون مناقشة ولا تردد . وهكذا ابتدأت بوادر هزيمة على .

ونحن نحمل هنا أبا موسى خطأين :

الخطأ الأول قبوله المساواة بين على ومعاوية فى عوامل الاختلاف بينهما مع شدة الفرق الشاسع بينهما ، فالأول خليفة بايعه أكثر المسلمين ، والثانى عامل خارج عن طاعة الخليفة وعن إجماع الأمة ! . .

الخطأ الثانى : خروجه عن حدود الوكالة ومقتضياتها وحقها المقدس لأنه بدلا من أن يدافع عن حق موكله ، ومصالحه التى ائتمنه عليها راح يحاول سلبه هذا الحق ، ويهدر مصالحه بقبوله بدون تمعن ولا نقاش

اقتراح عمرو بن العاص بأن يخلع كل منهما صاحبه ثم يختار بعد ذلك المسلمون خليفة لهم من أتقياء المسلمين وأصلحهم ، ولما أعان أبو موسى خلع على ، أعلن عمرو بن العاص تمسكه بمعاوية ، فظهرت حينئذ تلك المؤامرة التى استغفل فيها أبو موسى الأشعرى ، وكان ضحيتها على . . !

حينئذ برزت من جيش على قبيلة عربية من بنى تميم تنكر التحكيم ، وتكفر من أخذ به ، لأن مجرد قبول التحكيم ينطوى على شك كل فريق فى أحقيته بالأمر ، وهم وقتلاهم ما حاربوا إلا لإيمانهم بأنهم على حق حيث يكون قتلاهم شهداء يدخلون الجنة فى سبيل الذود عن الحق ، والدفاع عن عقيدتهم ، أما قبول التحكيم فهو تشكيك فى هذا الحق ، وخروج عن حكم الله ، ثم طلبوا من على أن يقر على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم ثم يتوب إلى الله ، وينقض ما أبرمه مع معاوية من شروط ، وبذلك ينضوون تحت لوائه من جديد لمحاربة معاوية ، ولكن علياً لم يقبل أن يحكم على نفسه بالكفر ، وبالتالى لم يقبل أن يكون هو البادىء بنقض ما بينه وبين معاوية من مواثيق بالرغم من أنها تمت تحت مؤامرة خسيسة ، وأخذ على يستهديهم ويستميلهم بشتى الوسائل ، ولما أخفق رحل من صفين مع ما بقى من جنده إلى الكوفة ، وتخلفوا هم ، ثم قام أحدهم خطيباً فقال :

« أما بعد فوالله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق ، فأخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع

المضلة » . . . وذهبوا بعد ذلك إلى بلدة قريبـــة من الـكوفة تسمى (حَرُورَاء) ، وأمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي .

والخوارج يتغلب عليهم التعصب الأعمى . والتزمت الشديد ، وتبرير الوسائل الوحشية فى سبيل مايزعمونه حقاً واجباً ، وما نرويه هنا عن أوثق المصادر التاريخية يعطيك صورة واضحة عن قلوبهم القاسية التى تتغلب عليها طباع البداوة ، من جهل وجموح وشرود عن سبيل الجماعة ، وإن كل واحد منهم يرغب أن يكون سيد نفسه ، ودولة وحده ، ونعتقد أن الظروف الاقتصادية القاسية مع عوامل أخرى خارجية سنتحدث عنها فى حينها، لها أثر خطير جداً فى تـكييف عقيدة الخوارج ، وتعصبهم المسرف فى المغالاة والذى لم نر أبلغ منه فى كل عصور التاريخ فيروى « أن(١) زياد بن أبيه بلغه عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة ، أنه يرى رأى الخوارج فدعاه فولاه ورزقه أربعة آلاف درهم فى كل شهر ، وجعـل عمالته فى كل سنة مائة ألف ، فـكان أبو الخير يقول : ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة ، والتقلب بين أظهر الجماعة فـلم يزل والياً حتى أنـكر منـه زياد شيئاً فتنمر لزياد فحبسه ، فـــلم يخرج من حبسه حتى مات » .

والظاهـرة التى نلمسها بوضوح فى أخـلاق الخوارج وطباعهم هى الشجاعة ، والإقدام ، والفدائية البالغة مع سذاجة الفطرة فى نفوس قادتهم ، ولذلك كان من السهل إيجاد عوامل الفرقة والاختلاف بينهم ، وكان ذلك سبباً من الأسباب التى توهن من قوتهم والتغلب عليهم .

(١) الشافعى للأستاذ محمد أبو زهره ص ١٠٦ .

وإذا لم تتوفر بينهم عوامل الاختلاف دفعت إليهم من أعدائهم بطريقة تدل على غفلة وسذاجة قادتهم . فلقد كان « المهلب(١) ابن أبى صفره يتخذ الخلاف بينهم ذريعة لتفريقهم وخضد شوكتهم ، والفل من حدتهم ، وإذا لم يجدهم مختلفين دفع إليهم من يثير الاختلاف بينهم ، يحكى ابن أبى الحديد أن حداداً من الأزارقة كان يعمل نصالا مسمومة ، فيرمى بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب فقال : أنا أكفيكموه إنشاء الله ، فوجه رجلا من أصحابه بكتاب ، وألف درهم إلى عسكر قطرى بن الفجاءة قائد الخوارج فقال له : ألق هذا الكتاب فى العسكر والدراهم ، واحذر على نفسك فمضى الرجل ، وكان بالكتاب :

أما بعد فإن نصالك قد وصلت إلى ، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها وزدنا من النصال ، فرفع الكتاب إلى قطرى فاستدعى الحداد ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال . لا أدرى ، قال : فما هذه الدراهم ؟ قال : لا أعلم بها ، فأمر به فقتل ، فجاء عبد ربه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة فقال : قتلت رجلا على غير ثقه وتبين ؟ قال قطرى : إن قتل رجل فى صلاح الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما يراه صالحاً ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتنكر له عبد ربه فى جماعة معه ولم يفارقوه ، وبلغ ذلك المهلب فدس إليهم رجلا نصرانياً جعل له جعلا يرغب فى مثله . وقال : إذا رأيت قطرياً فاسجد له ، فإذا نهاك فقل إنما سجدت لك ، ففعل ذلك النصرانى ، فقال قطرى : إنما السجود لله تعالى ، فقال

---

(١) مستقى من كتاب الشافعى للأستاذ محمد أبو زهرة ص ١١١ ، ١١٢ .

ما سجدت إلا لك ، فقال رجل من الخوارج : إنه قد عبـدك من دون الله ، وتلا قوله تعالى : « إنـكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » ، فقال قطرى : إن النصارى قد عبـدوا عيسى بن مريم فما ضر عيسى ذلك شيئاً ، فقام رجل إلى النصرانى فقتله ، فأنـكر قطرى ذلك عليه ، وأنـكر قوم من الخوارج إنكاره ، وبلغ المهلب ذلك فوجه إليهم رجلا يسألهم ، فأتاهم الرجل ، فقال : أرأيتم رجلين يخرجان مهاجرين لـكم فمات أحدهما فى الطريق وبلغ الآخر إليكم ، فامتحنتموه فلم يجز المحنة ! ما تقولون ؟ فقال بعضهم : أما الميت فمن أهل الجنـة ، وأما الذى لم يجز المحنة فـكافر حتى يجيز المحنة ، وقال قوم آخرون : هما كافران حتى يجيزا المحنة فـكثر الاختـلاف ، وخرج قطرى إلى حدود اصطخر ، فأقام شهراً والقوم فى خلافهم » .

هذه بعض النماذج التى تبين لك عقلية الخوارج ، وطباعهم النفسية ، وما كانوا يتصفون به من تزمت شديد ، وعصبية عمياء .. ! ولـكننا نحب قبل أن نأخذ فى درس أحوالهم وتطوراتهم أن نتساءل هنا عن البواعث التى ساعدت على نشوئهم وتـكوينهم أهى بواعث خارجيـة أم بواعث داخلية بحتة ؟ نحب أن نتساءل هل عقلية هؤلاء الخوارج وأغلبهم عرب بدو كانت تقـدر بنفسها على أن تتصور شيئاً عن نظام السياسـة والحـكم ، والفقـه فى الدين دون أى تأثير يأتيها من الخارج ؟ إننا وفقاً للقواعد المنطقية ولطبيعة الأشياء لا نهضم أن يسـتطيع هؤلاء العرب البـدو وحدهم تصور شىء من ذلك ، والحقيقة التى نبنيها على ضوء ظهورهم وتطوراتهم أن هنـاك تأثيرات خارجية يهودية ومسـيحية

وفارسية تحمل كلها العداء للإسلام هى التى كيفت عقيدة الخوارج فى السياسة والدين والأخلاق .

وقد اختلف المؤرخون المستشرقون فى أصل الخوارج ، فذهب(١) ( برونو ) إلى أنهم من البدو أو العرب البدو الذين سكنوا الكوفة والبصرة بعد الفتوح الأولى .

وقال ( ولهوزون ) : إنهم أهل الردة وهم العرب البدو الذين ثاروا بعد رسول الله على الحكومة الإسلامية الأولى . . . وليس هناك من اختلاف بين ما ذهب إليه ( برونو ) و ( لهوزون ) ، لأن الواقع أن سكان البصرة والكوفة كانوا بأكثريتهم من العرب البدو الذين اشتركوا فى الحروب الفارسية ، ونقلوا معهم إلى المدينتين العربيتين الجديدتين جميع الفضائل والمساوىء التى ينعم بها البدو ، خصوصاً ما يتعلق منها بالتعصب للقبيلة والحياة الاجتماعية الخاصة ، والنظر إلى النظم الحكومية الجديدة نظرة فيها كثير من الجفاء ، وعدم التأييد والمبالاة ، مفضلين عليها أنظمتهم العربية الشديدة من زعامة شيوخهم ، والأخذ بما وصفهم به معاوية : من أنهم لا يطيقون الحياة الموحدة ، وإنما يفضلون عليها الحياة البدوية الفردية التى تجعل كل شخص منهم يعتبر نفسه شيعة وحده » .

ونحن وإن كنا نسلم أن غالبية الخوارج كانوا من العرب البدو إلا أننا نعتقد أنهم كانوا ضحية لما كان يسود حياة العرب البدو من أمية .

(١) الخوارج فى الاسلام للأستاذ عمر أبو النصر .

وجهالة وفطرة ، فكان من السهل التأثير عليهم فى التأويلات الضالة لآيات الكتاب المقدس ، وفى التصديق بالأحاديث الموضوعة ، والمنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أحدثها اليهود والمسيحيون والفرس .

والخوارج فى رأينا لم يكونوا كفاراً ، ولم يتعمدوا إفساد الدين . وإنما كانوا يسعون إلى التمسك بحقيقة الإسلام وجوهره ، وإن كانوا تنكبوا فى ذلك السبيل . وفرق كبير بين التعمد والإصرار على إفساد جوهر العقيدة ، وبين تنكب سواء السبيل فى فهم أصول العقيدة وروح الإسلام ، ولعل هذه الحادثة التى ذكرها المبرد عنهم تبين لنا فهمهم المعوج وعقلهم السقيم فى فهم الدين قال :

« من(١) طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرانى ، وقالوا احفظوا ذمة نبيكم . . .

لقيهم عبد الله بن خباب وفى عنقه مصحف ، ومعه امرأته ، وهى حامل ، فقالوا : إن الذى فى عنقك ليأمرنا أن نقتلك . . قالوا فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى خيراً ، قالوا : فما تقول فى على قبل التحكيم ، وفى عثمان فى ست سنين فأثنى خيراً . قالوا : فما تقول فى التحكيم ؟ قال: أقول : إن علياً أعلم بكتاب الله منكم . وأشد توقياً على دينه ، وأنفذ بصيرة . قالوا . إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائها ثم قربوه إلى شاطىء النهر ، فذبحوه . . . وساوموا رجلا نصرانياً بنخلة له ، فقال : هى لكم ، فقالوا : والله ما كنا لنأخذها إلا بثمن . قال :

---

(١) الكامل للمبرد .

ما أعجب هذا : أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ، ولا تقبلوا ثمن نخلة ! »

ومما قاله البغدادى فى ذلك أنه لما « قرب(١) على منهم أرسل إليهم أن سلموا قاتل عبد الله بن خباب فأرسلوا إليه : إنا كلنا قتله ولئن ظفرنا بك قتلناك ، فأتاهم على فى جيشه وبرزوا إليه بجمعهم فقال لهم قبل القتال : ماذا نقمتم منى ؟ فقالوا له : أول مانقمنا منك أنك قاتلنا بين يديك يوم الجمل ، فلما انهزم أصحاب الجمل أبحت لنا ما وجدنا فى عسكرهم من المال ومنعتنا من سبي نسائهم وذراريهم ، فكيف استحللت مالهم دون النساء والذرية ؟ ! فقال : إنما أبحت لكم أموالهم بدلا مما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومى عليهم . والنساء والذرية لم يقاتلونا وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام ولم يكن منهم ردة عن الإسلام ولا يجوز استرقاق من لم يكفر ، وبعد لو أبحت لكم النساء أيكم يأخذ عائشة فى سهمه ؟ فخجل القوم من هذا ثم قالوا له : نقمنا عليك محو إمرة أمير المؤمنين على اسمك فى الكتاب بينك وبين معاوية لما نازعك معاوية فى ذلك .

فقال : فعلت مثل مافعل رسول الله عليه وسلم يوم الحديبية حين قال له سهيل بن عمرو ، لو علمت أنك رسول الله لما نازعتك ولكن أكتب باسمك واسم أبيك فكتب : ( هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل ابن عمرو ) ، وأخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن لى منهم يوما مثل ذلك . فكانت قصتى فى هذا مع الأبناء قصة رسول الله عليه السلام مع الآباء . فقالوا له : فلم قلت للحكمين إن كنت أهلا للخلافة فأثبتانى

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٤٧ ، ٤٨ .

فإن كنت فى شك من خلافتك فغيرك بالشك فيك أولى .

فقال : إنما أردت بذلك النصفة لمعاوية . ولو قلت للحكمين احكما لى بالخلافة لم يرض بذلك معاوية .

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصارى نجران إلى المباهلة وقال لهم : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، فأنصفهم بذلك عن نفسه . ولو قال : أبتهل فأجعل لعنة الله عليكم لم يرض النصارى بذلك . لذلك أنصفت أنا معاوية من نفسي ولم أدر غدر عمرو بن العاص. قالوا: فلم حكمت الحكمين فى حق كان لك ؟ . فقال : وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكم سعد بن معاذ فى بنى قريظة ولو شاء لم يفعل ، وأقمت أنا أيضا حكما . لكن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكم بالعدل وحكمى خدع حتى كان من الأمر ما كان . فهل عندكم شيء سوى هذا ؟ فسكت القوم وقال أكثرهم : صدق والله وقال التوبة ، واستأمن إليه منهم يومئذ ثمانية آلاف وانفرد منهم أربعة آلاف بقتاله مع عبد الله ابن وهب الراسبي وحرقوص بن زهير البجلى . . . »

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح وإن كنا نستبعد حدوثها . وذلك لما يكتنفها وينبث فيها من ادعاءات منسوبة لعلى تتفق ونظرية الشيعة فى الخلافة ، وذلك مثل ما نسب إلى على من قوله « أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لى منهم ( أى من قريش ) يوما مثل ذلك فكانت قصتى فى هذا من الأبناء قصة رسول الله عليه السلام مع

الأبناء » ولم يثبت قطعا عن رسول الله ذلك ولم يدعه على رضى الله عنه فى حياته .

وغاية مانقوله عن الخوارج ، وعن العوامل التى أثرت فى عقيدتهم أنها لم تكن عوامل ذاتية داخلية ، وإن هذه التأثيرات وإن كان قدساهم فيها اختلاط العرب باليهود والنصارى إلا أنها فى قوتها وشدتها وأثرها الفعال الأول فارسية بحتة ، لأن ظروفاً طرأت على المجتمع الاسلامى على غاية من الخطورة سبقت ظهور الخوارج ، وهى ظهور العنصرية وسيادة العصبية العربية . ومن الثابت أن الخوارج ظهروا أول ماظهروا فى فى الكوفة والبصرة ، وأنهم كانوا ضمن جيش سعد بن أبى وقاص الذى فتح بلادالفرس ، وقضى على ملك الأكاسرة، وأغلب هؤلاء الخوارج من قبيلة بدوية لم تبل من الحياة شيئا ، وإنما كانت فى شبه عزلة عن العالم بما فيه من خير وشر ، قانعة بحياة الصحراء ، وما فيها من قسوة فى الرزق ومزاولة نمط واحد فى الحياة لا يتغير من جيل إلى جيل . . ! فليس من العسير على قوم مثل هؤلاء أن يتأثروا بما كان ينفعل فى نفوس غيرهم من أهل البلاد التى ذهبوا إليها فاتحين . ثم استوطنوها ، وخصوصا لو شاركهم هؤلاء العقيدة والدين ، وهم الموالى الذين ضاعت حقوقهم الاجتماعية والسياسية منذ عهد عثمان بن عفان لاسيما إذا كانت النظرية التى يجهرون بها تجد صداها القوى فى نفوس هؤلاء العرب البدو الذين يتعشقون الحرية ويأنفون من الخضوع للغير .

وهناك فرق بين الموالى بعضهم بعضا : هناك فريق أخلص للدين

وللرسول عليه السلام ، وهؤلاء ممن كانوا زاهدين فى الحياة يعملون على خدمة الإسلام بقوة وإخلاص وهم ممن كانوا يحبون الرسول وآل بيته الكريم ، ومن هؤلاء بعض الشيعة المعتدلين . أما الفريق الآخر وهو الذى دخل الإسلام من غير أن يطمئن إليه قلبه تحت ظروف خاصة ترجع فى معظمها إلى التمتع بالمساواة التامة بين المسلمين الفاتحين ، وهى التى دعا إليها الدين ، ولما لم تتحقق المساواة لهذا الفريق أخذ يسعى فى هدم هذا الوضع الذى ستأخذ به أى دولة تقوم من العرب ، بعد أن ظهر تعصب العرب ، ونما وترعرع ، ولم يكن هناك من سبيل إلى القضاء عليه بل الحدمنه . وبذلك ظهرت فى تفكير الخوارج نظرية جديدة للخلافة لا تتفق فى شىء مع ما أجمع عليه المسلمون الأولون فى انتخاب أول خليفة فى فى اجتماع سقيفة بنى ساعدة، وهى أنه ليس من اللازم أن تكون الخلافة فى قريش، بل ليس من اللازم أن تكون فى العرب، وإنما يجوز أن تكون فى غيرهم من المسلمين متى توفر فى الخليفة الصلاح والتقوى والإخلاص والتمسك بمبادىء الدين ، وهذه النظرية من غير شك هى رد فعل لما كان ينكره الموالى على العرب من هضمهم لحقوقهم السياسية والاجتماعية وتعتبر النظرية من الأصول القوية فى مذهب الخوارج .

يقول «فون كريمر» : « بعد(١) انتهاء الحروب الفارسية استقر معظم الجنود الذين اشتركوا فيها فى المركزين العسكريين اللذين أسسهما عمر الأول وهما الكوفة والبصرة ، وكان معظمهم من عرب الصحراء ذوى الدماء العربية الخالصة ، وعندما عادوا إلى وطنهم أغنياء كرسوا

(١) الحضارة الاسلامية ص ١٣٢

أنفسهم للناحية الدينية من الاسلام . ومن الصعب الشك فى أن مبادىء الخوارج تمت بين هؤلاء الناس مادام الخوارج ظهروا أولا فى الكوفة والبصرة ، وكل خوارج الأزمنة الأولى تقريبا الذين وصلتنا أسماؤهم من القبائل الصحراوية الكبرى التى كانت تتمثل تمثلا ظاهرا فى تلك المدن » .

« والبلاذرى (١) نفسه يقص علينا كيف أن أربعة آلاف فارسى من جند ( شاهن شاه ) ، لما طلبوا الأمان بعد معركة من المعارك التى ظفر فيها العرب بالفرس صار نقلهم إلى البصرة ، حيث اتصلوا بالأساورة الذين كانوا فيها ، والأساورة كما يظهر كانوا من الفرسان الفرس الذين أسلموا ، وكانوا من موالى بنى تميم العرب فى البصرة ، ويذكر البلاذرى أيضا جماعة من ( أصبهان ) نزلوا البصرة . مما يدل على أن كثيرا من الفرس الذين اعتنقوا الإسلام قد انضموا إلى بنى تميم » ، وهى القبيلة التى ظهر منها أكثر الخوارج وأبرز قادتهم فى أقدم عصورها .

وقد اختلف أقدم المؤرخين الذين كتبوا عن الفرق فى الإسلام فى عدد فرق الخوارج فى أسمائها .

فذكرهم البغدادى عشرين فرقة (٢) بينما ذكرهم مؤرخ آخر قديم هو أبو الحسن الملطى (٣) عشر فرق ، مع اختلاف فى أسماء الفرق

---

( ١ ) الخوارج فى الاسلام

( ٢ ) راجع ذلك بتوسع فى كتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادى ص ٤٥

( ٣ ) » » » » » » « التنبيه والرد » للملطى ص ٥١

وأسماء مؤسسيها ، وهذا ما ذهب إليه كل مؤرخ تعرض للكتابة عن الخوارج وتطوراتهم .

وجملة القول أن الخوارج كان منهم المعتداون والمغالون فالمعتدلون هم « الاباضية » والمغالون هم « الأزارقة » وقد تفرع عن كل منهما فرق كثيرة .

ولكن وجد من الخوارج من خرج على الإسلام وهم فرقتان :

إحداهما : « اليزيدية » وهم أتباع زيد بن أبيه وقد زعم أن الله سيرسل رسولا من العجم وسينزل عليه كتابا ينسخ القرآن . .

ثانيتهما : «الميمونية» أتباع ميمون العجردى . وقد أباح نكاح بنات الابن ، وبنات أولاد الاخوة ، والأخوات ، وقد أنكرت العجاردة سورة يونس ولم تعدها من القرآن « وزعمت (١) أنها قصة من القصص وقالوا لا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن، واستبعدوا أن تكون مساوية للسور الأخرى من كتاب مقدس أنزله الله » .

## (٢) الشيعة

إن أول شيء يلفت نظر المؤرخ الحديث لتاريخ التطور الاسلامى ذلك التوافق التام الذى أجمع عليه كثير من المؤرخين ، غربيين وشرقيين فى تقسيم الاسلام إلى سنى وشيعى ! والحقيقة التى لا مراء فيها، والتى يجب

---

(١) العقيدة والشريعة « لجولد تسيهر » ص ١٧٣ .

أن يعيها جيداً المسلمون المعاصرون أن هذا التقسيم دخيل على الاسلام كعقيدة إلهية ، وكدعوة بشرية ، وليس من شك فى أن الصدف السيئة وحدها ، والظروف القاسية التى لازمت المسلمين منذ القرن الأول للإسلام حتى يومنا هذا ، وكلها ظروف سياسية وعصبية قبلية ، تنطوى على مكر بالاسلام ، ومحاولة هدمه من أناس يتسترون بالاسلام ظاهريا ليغفل عنهم المسلمون ، وقد غفلوا كما سترى بعد . أقول : ليس من شك فى أن كل هذا هو الذى ساعد على إيجاد هذه الفرق ، التى أوجدت بدورها التشاحن والتصارع بين المسلمين خلال تاريخهم الطويل ، مع أن الاسلام فى خصائصه و ذاتياته جاء منكراً للفرقة والخصام، مقدسا رأى الجماعة عاملا على إيجاد التعاون والألفة بين الناس ومشاركة بعضهم بعضا فى الأحاسيس والمشاعر . فلم يوفق بين القبائل العربية المتنافرة الطباع والعادات ، ولم يقض على ما كان يسودها من شحناء وبغضاء وامتشاق الحسام لأتفه الأسباب فحسب ، وإنما استطاع بما رسمه من مبادىء وتعاليم أن يمازج ويؤالف بين مختلف الاجناس البشرية المتباينة العادات ، والمتنافرة الطباع ، ممن ارتضوه دينا ، أو استظلوا به مطمئنين لحمايته . ! .

فالاسلام فى عرفنا ليس اسلاما سنيا أو شيعيا أو ما شابه ذلك من الاسماء التى فرضت نفسها عليه بدون إرادة له فى ذلك ، والتى أصبحت محسوبة فى ذمة التطور التاريخى له ، دون اتفاق مع طبيعته أو أهدافه ونظرته للكون والانسان والاشياء جميعا . !

ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن نسجل هنا بعض آراء العلماء الاوربيين فى منشأ التشيع ، والعوامل التى ساعدت على نموه ، وما كان

يكتنفه من بواعث ، ويسيطر عليه من اتجاهات ؟ وهل كان كل ذلك دخيلا على طبيعة البيئة العربية أم نبع منها دون مؤثرات خارجية ..؟!

ينكر ( ولهوزن ) المؤثرات الفارسية فى منشأ التشيع ، ويذهب إلى أن العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية مستدلا بأن مؤسسها عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى ».

ولكن ( دوزى ) يقرر (١) أن أصلها فارسى، فالعرب تدين بالحرية والفرس يدينون بالملك ، وبالوراثة فى البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات محمد ولم يترك ولداً ، فأولى الناس بعده ابن عمه على بن أبى طالب . فمن أخذ الخلافة منه ، كأبى بكر وعمر وعثمان والأمويين فقد اغتصبها من مستحقها .

وقد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى الملك نظرة فيها معنى إلهى ، فنظروا هذه النظرة نفسها إلى على وذريته ، وقالوا إن طاعة الامام أول واجب ، وإن طاعته طاعة الله .

ويقول ( فان فلوتن ) : قد ثبت بالفعل أن من مذاهب الشيعة ما كان مباءة للعقائد الاسيوية القديمة كالبوذية والمانوية وغيرهما .

وينفى جولد تسيهر المؤثرات الفارسية فى منشأ التشيع ومراحل نموه ويقرر أن الحركة العلوية التى تفرع منها التشيع فيما بعد نشأت فى أول أمرها فى أرض عربية بحتة!. فهو ينكر الخطأ القائل بأن« (٢) التشيع فى منشئه

---

( ١ ) الشافعى للاستاذ محمد أبو زهرة ص ٩٣—٩٤ .

( ٢ ) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٢٠٥ .

ومراحل نموه يمثل الاثر التعديلى الذى أحدثته أفكار الامم الايرانية فى الاسلام بعد أن اعتنقته ، أوخضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية.

وهذا الفهم الشائع مبنى على سوء فهم للحوادث التاريخية ، وهو ما أولاه ( فلهوزن ) ما يستحقه من عناية فى كتابه ( أحزاب المعارضة الدينية والسياسية فى الاسلام ) فالحركة العلوية نشأت فى أرض عربية بحت ، ولم تمتد إلى العناصر الاسلامية غير السامية إلا فى خلال ثورة المختار بل إن قواعد نظرية الامامة، والفكرة التى تجلت معالمها فى الاعتقاد بالرجعة ينبغى أن ترجعها كلها ، كما رأينا ، إلى المؤثرات اليهودية والمسيحية . كما أن الاغراق فى تأليه على ، الذى صاغه فى مبدأ الامر عبد الله بن سبأ ، حدث فى بيئة سامية عذراء ، لم تكن قد تسربت إليها بعد الافكار الآرية وانضم لهذه الحركة فى بدء قيامها جموع غفيرة من العرب حتى إن أول الواضعين لجزء من مبادىء التجسيم والحلول قوم لا شك أنهم من الجنس العربى الصميم .

وقد مال لاعتناق التشيع — مع كونه من الفرق المخالفة — قبائل عربية تشبعت بالآراء الثيوقراطية وبشرعية حق على فى الخلافة. فأقبلت على تعاليمه فى لهفة وحماسة لا تقل عن حماسة الايرانيين. حقيقة إن صفة المعارضة التى انطوى عليها التشيع ، قد صادف عند الايرانيين قبولا وترحيبا ، فانضموا بمحض اختيارهم تحت لواء هذه الفكرة الاسلامية التى أمكنهم أن يؤثروا بعض التأثير فى نموها وترقيها فيما بعد ، وذلك بفضل فكرتهم الوراثية القديمة الخاصة بالملكية الالهية . ولكن بوادر هذه الفكرة فى الاسلام لا يشتم منها وجود مثل هذا التأثير الايرانى ،

فالتشيع كالاسلام عربى فى نشأته ، وفى أصوله التى نبت منها .

ذكرت هذه الآراء كلها لهؤلاء المستشرقين الأفاضل،وأنا أعلم مبلغ بعدها من الدقة،وعدم تصويرها لحقيقة الواقع،وذلك ليلم القارىء بالاسس التى بنى عليها هؤلاء العلماء استنتاجاتهم فى منشأ التشيع ، وفى العوامل التى ساعدت على نموه ، وفى المؤثرات التى أثرت فيه ، وأغلب الظن أن هذه الاستنتاجات فى مجموعها انبنت على المظاهر،والصور المرئية فقط. دون تعمق إلى أكثر من ذلك ..! لقد قررنا فى أول هذا الفصل أن الاسلام بعد أن سيطر على الجزيرة العربية ، وقضى على ما كان يسودها من عصبيات قبلية وسيادات عنصرية توجه بعد ذلك بفتوحاته إلى خارج الجزيرة ، فاكتسح فى قوة خارقة كل ما أقيم أمامه من سدود ، وسيطر على جزء كبير من أرض المعمورة ، وتلاشت أمامه الامبراطورية الفارسية تماما ، وانكمشت الدولة الرومانية فى هذا الوقت . وفى منتصف عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان تذبذبت أمام الاسلام قوتان تكيدان له قوة داخل الجزيرة العربية ، وقوة خارجها ، وتتمثل القوة الاولى فيمن أسلم داخل الجزيرة من اليهود . وتتمثل القوة الثانية فيمن أسلم من الفرس لتتحقق لهم المساواة التامة فى الحقوق والواجبات مع العرب الفاتحين ، ولما لم تتحقق هذه المساواة أخذوا يكيدون للإسلام من الطريق الذى يستطيعون الكيد منه ، لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً من وسائل القوة والحرب . فحاولوا إفساد العقيدة الدينية للمسلمين .

ونظرة يسيرة إلى تاريخ المسلمين منذ أواخر عصر عثمان إلى ماتلا ذلك من عهود تنبئك بأن العرب والمسلمين المخلصين فى إسلامهم كانو ضحية

لمؤامرة دنيئة دبرت بأحكام لافساد عقيدتهم البسيطة السمحة ، ولايجاد عوامل التنازع ، والفرقة بينهم . فبينما اتجه كبار الصحابة إلى الخروج إلى الامصار للاتجار ، وجمع المال بكثرة ساحقة . كان بعض اليهود والفرس ممن أسلموا ظاهرياً . يتجهون بكليتهم إلى البحوث الدينية ، والتبحر فيها ثم يفتون العامة من المسلمين فى أمور دينهم، ويدارسونهم فى ماهية عقيدتهم دون رقيب عليهم ، وساعد على ذلك مايتميز به العربى من بساطة وسذاجة وأمية، وطيبة قلب، واستقامة نفس ليس فيها التواء . فكان يتقبل ذلك على أنه حق محض ! . ثم ساعد على ذلك ما كان من تطور الحوادث وتواكبها فى قسوة وعنف ، حتى استقر الامر الأمويين الذين لم يكن يعنيهم الدين فى شىء ، وإنما كانوا يعتمدون فى إقامة دولتهم على شيئين فقط ، هما المال والعصبية ، ولا شىء سواهما .

وما نقرره هنا ليس استنتاجا مبنياً على ظواهر الامور والاشياء فقط . وإنما طبيعة الحوادث التى سنسوقها هنا . وما كانت تهدف إليه تقرر ذلك فى وضوح وجلاء . فعبدالله بن سبأ ، ومثله عبدالله بن السوداء وهما من أصـــل يهودى ، أدعيا الاسلام ظاهريا ، ولـكنهما لم يجهرا بدعوتهما إلا فى فترة قلقة مضطربة من حياة المسلمين ، وهى فترة الاختلاف بين على ومعاوية على الخلافة، وكانا من المكر والدهاء بحيث كان ما ادعياه أولا فى على هينا رقيقا لاخطر منه على الدين فى شىء ، ولـكن لما وجدا لهما مستمعين، واطمأنا إلى أنه قد صار لهما أتباع بثا سمومهما القذرة لتشويه العقيدة الاسلامية وإفسادها . والبغدادى صاحب «الفَرق بين الفِرَق» يذكر أن ابن السوداء كان فى الاصل يهوديا من أهل الحيرة فأظهر الاسلام (١).

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٤٤ .

وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد فى التوراة أن لكل نبى وصيا وأن عليا رضى الله عنه وصى محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه خير الاوصياء ، كما أن محمداً خير الانبياء، فلما سمع ذلك منه شيعة على قالوا لعلى إنه من محبيك فرفع على قدره ، وأجلسه تحت درجة منبره. ثم بلغه غلوه فيه فهم بقتله، فنهاه ابن عباس عن ذلك وقال له: إن قتلته اختلف عليك أصحابك وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام وتحتاج إلى مداراة أصحابك ، فلما خشى من قتله ومن قتل بن سبأ الفتنة التى خافها ابن عباس نفاهما إلى المدائن ، فافتتن بهما الرعاع بعد قتل على رضى الله عنه ، وقال لهم ابن السوداء : والله لينبعن لعلى فى مسجد الكوفه عينان تفيض إحداهما عسلا والاخرى سمنا ويغترف منهما شيعته » .

فالهدف الذى كان يرمى إليه عبد الله بن سبا ، وعبد الله بن السوداء لم يفت عليا رضى الله عنه، وهو أنهما كانا يريدان من وراء ذلك إفساد الدعوة وتشويه العقيدة ، وإثارة الفتنة بين المسلمين، ولذلك عمل رضى عنه بكل ما فى قوته على القضاء على هذه الدعوة فى قوة وعنف ، فلما زعم بعض غلاة الكوفة من أتباع ابن سبأ أن عليا نبى ، ثم وصل بهم الغلو والاسراف إلى الزعم بأنه إله ، فبلغ عليا ذلك منهم استتابهم ، وأمرهم بالرجوع عن غيهم ، ولما لم يقبلوا أمر بإحراقهم فى حفرتين حتى قال بعض الشعراء فى ذلك :

لترم بى الحوادث حيث شاءت  إذا لم ترم بى فى الحفرتين

ولكن عليا رضى الله عنه لم يطل به الاجل ليقضى على هذه الفتنة الشعواء التى بثها ابن سبا وابن السوداء وكان ظاهرها الدفاع عن حق على

وباطنها سموم قاتلة للقضاء على الدعوة ، وإشاعة الفرقة والانقسام بين المسلمين ، فإنه يروى أن ابن سبأ عندما قتل على » زعم(١) أن المقتول لم يكن عليا . وإنما كان شيطانا تصور للناس فى صورة على ، وان عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم عليه السلام ، وقال : كما كذبت اليهود والنصارى فى دعواها قتل عيسى كذلك كذبت النواصب والخوارج فى دعواها قتل على ، وانما رأت اليهود والنصارى شخصا مصلوبا شبهوه بعيسى، كذلك القائلون بقتل على رأوا قتيلا بشبه عليا فظنوا أنه على ، وعلى قد صعد إلى السماء ، وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه . وزعم بعض السبئية أن عليا فى السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه . ومن سمع من هؤلاء صوت الرعد قال : عليك السلام يا أمير المؤمنين . وقد روى عن عامر بن شراحيل الشعبي أن ابن سبأ قيل له إن عليا قد قتل . فقال: إن جئتمونا بدماغه فى صرة لم نصدق بموته . لا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الارض بحذافيرها وهذه الطائفة تزعم أنه المهدى المنتظر ».

وهكذا تظهر لنا العوامل الخفية المستترة التى كان ينطوى عليها التشيع فى أول نشأته ، والذى قدم ضحايا له آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولسنا نقصد من وراء تقريرنا لهذا المبدأ أن نرمى كل الشيعة خلال تطورهم التاريخى بالبعد عن الدين ، ومحاولة هدمه ، واقتلاع أصوله ، فمن الشيعة فريق معتدل لا يمكن أن يتطرق الشك إلى إيمانهم واخلاصهم

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى .

للاسلام ، ولكننا هنا نبحث عن العوامل الاولى فى منشأ التشيع ، وإن حادثة كربلاء المشئومة لتفصل بين طورين خطيرين فى تاريخ التشيع ، والاهداف التى كان يسعى إليها زعماء الشيعة فى كلا الطورين .. إن من السذاجة الفكرية أن نمر على حادث كربلاء المفجع مراً سطحيا لا تعنينا منه إلا مظاهره المرئية فقط ، دون أن نتعمق فى فهم الدوافع الخفية وراء ذلك كله ، ودون أن نرى بعين البصيرة من الذى كسب من وراء ذلك كله ؟ هل كسب الامويون تثبيتا لاقدامهم فى الخلافة بالقضاء على منافس خطير ؟ هل قويت دولتهم ، توطد سلطانهم بإراقة دم سيد الشهداء الحسين ؟ .. إن منطق الحوادث وسير الامور بعد ذلك يدلنا بما لا يدع مجالا للشك على أن الدولة الاموية دقت مسماراً عميقا فى نعشها بهذه الفعلة التى اقترفها عاملها عبيد الله بن زياد ، وأن العداء لهم والتعصب ضدهم لم يشمل العلويين من آل البيت فقط ، وانما ضم غيرهم من أتقياء المسلمين وأخيرهم ، بل إن استنكار هذه الفعلة المشئومة من عبيد الله بن زياد لم يقتصر على جمهور العلويين والمسلمين ، وإنما شمل كثيراً من أفراد أسرة الخليفة الحاكم نفسه كنساء يزيد اللواتى ما أن سمعن بأن رأس الحسين قد حزت حتى وجمن ،وأجهشن ببكاء مرير ، بل حتى يزيد الغافل المستهتر ، الذى لم يكن يقدر للعواقب شيئا ، أدركته يقظة الضمير وحسرة الندم فيروى أنه عند ودع البقية الباقية من آل البيت ، والذى نفد من الموت بأعجوبة ذلك أن قاتلى أبيه واخوته ظنوا أن ما به علة وسقم ومرض كاف للقضاء عليه لا محالة وهو على زين العابدين بن الحسين .

يروى أن يزيداً قال له وهو يودعه إلى المدينة «لعن الله بن مرجانة

أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبداً إلا أعطيته إياها . ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى . ولكن الله قضى ما رأيت يا بنى !. كاتبنى من المدينة وأنه إلى كل حاجة تكون لك».

فالشيء الذى لا يقبل الشك ، والذى لم يختلف فيه أى مؤرخ من المؤرخين أن تلطيخ يد الدولة الأموية بدم الحسين زعزع كرسى الخلافة من تحتهم وهزه هزاً عنيفاً ، وكان النذير الهاتف بسقوطهم ، والقضاء عليهم قضاء لا هوادة فيه !.. إذاً يعود التساؤل مرة أخرى؟ من الذى استفاد من وراء هذا الدم الذكى المسفوك ؟ هل استفاد العلويون ؟ وهل يقبل آل البيت أن يقدم الحسين نفسه قربانا لنصرة دعوتهم ؟ وهل كان الحسين يعلم حقيقة أنه ذاهب لملاقاة حتفه ؟ هل كان يعلم قبل أن يبرح مكة بغدر أتباعه الذين استكتبوه مراراً ليرحل إليهم فى الكوفة ؟ هذه كلها أسئلة لا بد للكاتب من أن يعالج الجواب عليها قبل أن يدلى برأيه فى هذا الموضوع الدقيق .

يقول المستشرق الألمانى ماربين فى كتابه ( السياسة الاسلامية ) :
« إن حركة الحسين فى خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الأذعان ، وعز عليه النصر العاجل فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به النصر الآجل بعد موته ويحى به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة » .

وليس ما يقوله «ماربين» ولا من نحا نحوه من المستشرقين أو غيرهم من الكتاب الشرقيين على شيء كثير أو قليل من الصواب ! . ذلك أن من الثابت أن محمد بن الحنفية لما بلغه وهو فى المدينة خروج أخيه الحسين

من مكة إلى الكوفة لم يرتح لذلك ، وكان رأيه أن يبقى الحسين فى مكة وأن يرسل الدعاة لأخذ البيعة له من الأمصار أما ابن عباس فقد نصح الحسين بعدم الخروج ، وقال لاتصدق كتب أهل العراق لأن فى طبيعتهم الغدر . وإذا كانوا صادقين فى دعوتهم فلتطلب منهم قبل أن تقدم عليهم أن يتخلصوا من ولاتهم أولا .

هذا ما كان من أهل البيت أما ما كان من الحسين رضى الله عنه فإنه أراد أن يستوثق أولا من صدق أهل الكوفة فأرسل ابن عمه مسلم ابن عقيل بن أبى طالب بكتاب إليهم ، ليرى صدق إخلاصهم فى دعوتهم وبعث معه بكتاب يقول فيه « أما بعد فقد أتتنى كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومى عليكم ، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت فى كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله . فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط . والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله والسلام » .

ثم إنه لم يبرح مكة فى طريقه إلى الكوفة إلا بعد أن أتته الرسل واستوثق بأنه قد اجتمع لاعطاء البيعة له فى مسجد الكوفة على يد ابن عمه مسلم بن عقيل اثنا عشر ألفا ، وفى بعض الروايات ثمانية عشر ألفا !

فهل يظن بعد ذلك أحد أن الحسين كان يعلم بمصيره المفجع الذى لم يسطر التاريخ أقسى ولا أشنع منه فى صفحاته المدلهمة الدامية ؟ هل كان يعلم الحسين أن الغدر والتآمر سيصلان ببعض الناس إلى درجة من الانحطاط

تعافها أحط فصائل الحيوانات ؟ هل كان يعلم بأن قلوب فئة من البشر ستتحجر وتتصلد فلا تصل إليها رحمة ، ولا بصيص من عدل ! . . إننا كنا نصدق أن نفس الشهيد الكبير كانت تستمرىء الموت في سبيل الحق ، وفي سبيل دفع المنكر لو كان الحسين خرج وحده ، ولم يصطحب معه فلذات كبده ، وأهل بيته ، وفيهم الغلمان الصغار الذين لا يقدرون على الحرب ولا على دفع الخطر . فمعنى قبول شيء من ذلك أن الحسين كان لا يريد احياء قضيته الميتة، وحقوقه المسلوبه ، وإنما كان يريد استئصال شأفته وشأفة أسرته من الوجود ! . إننا نرى الحسين رضى الله عنه وهو فى وسط المعركة ، وبعد أن تبين له غدر أصحابه ومؤامراتهم المنحطة الدنيئة يبحث له عن مخرج من هذا الكرب العظيم الذى وجد نفسه فيه محاصراً من كل جانب، محروما من الماء ، ممنوعا عن التحرك هنا أو هناك . إننا نجده يبحث عن مخرج يتفق مع إيمانه وكرامته وتقاليد عنصره الطيب ودوحته الكريمة فلا يجد إلا الموت أهون سبيلا إلى نفسه الكبيرة ! .

يروى أن الحسين أراد أن يصل إلى قلوب مقاتليه ، بعد أن عجز عن اقناعهم بالحجة والبرهان، فخرج إليهم متزييا بزى جده عليه السلام، متقلداً سيفه لابسا عمامته ورداءه ، فخطبهم قائلا بعد الحمد والصلاة . « أنسبونى من أنا . هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟ ألست ابن بنت نبيكم ؟ . أو لم يبلغكم ما قاله رسول الله لى ولأخى . هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ ويحكم ! . أتطلبوننى بقتيل قتلته ، أو مال لكم استهلكته : ثم نادى وقال « يا شبث بن الربعى! يا حجار بن أبجر! يا قيس بن الأشعث! يا يزيد بن الحارث ! يا عمر بن الحجاج !.. ألم تكتبوا إلى أن قد اينعت الثمار واخضرت الجنبات ، وإنما تقدم على جند لك مجند » .

إلى هنا و يتضح لنا الأمر غاية الوضوح ، وهو ان الذى استفاد من وراء هذه الحادثة المشئومة ليس هو الدولة الأموية ، وليس هم آل البيت العلويين،وإنما الذى حقق أهدافه من وراء تلك المؤامرة التى كان ضحيتها الحسين رضى الله عنه ، هم أولئك الذين عادوا الإسلام فى الباطن ومكروا بالمسلمين ، وحتى لا يكون نجاحهم مؤقتا صبغوا هذه الفتنة بدم الحسين ، ليضمنوا فرقة المسلمين ، وليوجدوا بواعث لا تخمد أبداً فى إيجاد التنازع بينهم ، وتشكيك بعضهم فى عقيدة بعض .

فالجذور الأولى للشيعة لا يمكن أن نرجعها إلى التأثير اليهودى ، أو الفارسى،أو إليهما معاً،وإنما يمكن أن نرجعها فى الحقيقة إلى كل العناصر المعادية للاسلام سواء أ كانت يهودية أم فارسية أم غيرهما .

وإذا كان بعض المؤرخين قد استدلوا على وجود التأثير الفارسى على عقيدة الشيعة دون غيره ، لما يكتنف عقيدة الشيعة من حق الإمامة لعلى وذريته ، وأنهم معصومون من الخطأ ، وأنهم فوق مستوى البشر وهذا ما كان يسود تاريخ الفرس الطويل ، وكان عندهم بمثابة العقيدة طيلة أجيالهم الغابرة !. فإن ردنا على هؤلاء أنهم أيضا يتمسكون بالقشور دون أن ينفذوا إلى اللباب ، ودون أن يتعمقوا إلى ما دون المظاهر المرئية لأنهم إذا كانوا يقصدون من ذلك أن الفرس أثروا فى الدعوة الشيعية فقط بما كان ينطبع فى نفوسهم ، ويسيطر على عقولهم مما انحدر إليهم عن طريق أسلافهم، من تقاليد وعادات وأمزجة ، ونظرة خاصة للامور والحياة وأنهم لم يكن لهم نصيب غير الاحتفاظ بكل ذلك . حتى بعد أن دخلوا فى طور جديد باعتناقهم الإسلام ،فهذا ما يخالف طبيعة الأشياء على خط

مستقيم. فمن الأشياء المقررة فى تاريخ تطور الأجناس البشرية فيما يختص بالأمور الاعتقادية ، ومايتشأ عنها من تقاليد وعادات ، أن الطور الجديد الذى يلى الطور البائد ، والذى جاء نتيجه لنضوج الوعى فى الإنسان وترقيه يكتسح أمامه ضمن ما يكتسح ما كان يتصل بالعقيدة البائدة من خرافات وتقاليد باطلة وعادات سئية ! . ثم إن من يدرس حالة المجتمع الفارسى قبيل غزو العرب لأرض فارس يتبين له ما كان يسوده من انحلال اجتماعى وفوضى خلقية . وسيادة النظام الطبقى المفزع فى أقصى صورة من صوره البشعة المعربدة فكان السواد الأعظم من الناس يرتعون فى فقر مدقع ، وظلم شنيع ، وضيق خانق لا يجدون منه مخرجا ، فلما ذهب العرب إليهم حاملين رسالة الإسلام انقشعت عن أعينهم الغشاوة ، ووجدوا حياة أخرى تخالف ما ألفوه من حياة ، ووجدوا قواعد أخرى فى نظام المجتمع تتمثل فيها العدالة والمساواة ، وأن الحاكم ليس إلا فرداً عاديا كبقية الناس يقيمه المجتمع ليحافظ على أمنه وسلامته ، فإذا طغى أو حاد عن الطريق سقطت طاعته ، ونحى عن مكانه وحل آخر محله ! .. وجدوا هذه المبادىء والنظريات الجديدة يحملها لهم العرب فأنكروا حياتهم الأولى واستفظعوها ، واعتنقوا الاسلام طواعية . دون ضغط أو إكراه ! ولكن ظهور العصبية العربية واهدارها ركنا خطيراً من أركان الاسلام ، وهو الركن الاجتماعى فى عهد الأمويين هو الذى جعل الفرس يتلمسون أى طريق للقضاء على هذه الدولة التى سلبتهم حقوقهم السياسية والاجتماعية ، فانضموا إلى الحزب الهاشمى الذى كان يناوىء الأمويين ، واصطنعوا نظرية الحق الالهى لعلى وذريته فى الخلافة ، ونظرية الايمان بالامام المعصوم من الخطأ ، حتى جعلوا ذلك ركنا سادسا من أركان

الإسلام الخمسة ! .. ولكن مما يلفت النظر ، ويزيد نظريتنا هذه تأكيداً أن الفرس لم يكونوا جادين فى هذه النظريات التى اصطنعوها ، وأنه لم يكن يعنيهم إلا إزالة هذه الدولة التى شجعت ظهور العنصرية العربية . والتى سلبتهم كل حقوقهم السياسية والاجتماعية ، لأنهم عندما انضموا إلى شيعة على كانوا يدعون جهراً لاقامة خليفة من العلويين ، ويعملون سراً لاقامة خليفة من العباسيين ، لتكون الدولة الجديدة من صنع أيديهم وحدهم وقد كان من الاتفاق السرى بين أبى مسلم الخراسانى وأبى العباس «السفاح» الذى ادعى أن حفيد محمد بن الحنفية بايعه بالخلافة وتنازل له عنها! .. ويجب أن نلاحظ أن ما ظهر بعد ذلك فى عهد العباسيين من اصطناع أشياء كثيرة من حياة الفرس لم يكن إلا رد الفعل لما كان فى العهد الأموى من سيادة العنصرية العربية ، فظهرت الشعوبية . وامتدت إلى كل ناحية من نواحى الحياة فى العصر العباسى !! ولكن الشيء الذى يجب أن نسجله هنا ونحن نتكلم عن العناصر الأولى المقومة للشيعة هو أننا لا نلتفت كثيرا للمظاهر المرئية ولا للجمهور التابع للدعوة من الناس قدر التفاتنا لما يكمن وراء هذه المظاهر ، وما كان يهدف إليه الزعماء المؤسسون لنظريات الشيعة فربما تكون المظاهر المرئية خادعة ، وربما يكون جمهور التابعين من الناس ضحية لسذاجتهم وبساطتهم ! ..

هذا هو رأينا فى منشأ التشيع ، وفى المؤثرات التى أثرت فيه ، وفى العوامل التى أوجدته ، وفى الغايات التى كان يرمى إلى بلوغها منشئوه الأول ، وهو فضلا عن أنه وجد لافساد عقيدة المسلمين ، وقتل حيوية الإسلام ، أوجد طريقاً لانهاية له لتنازع المسلمين وتنافرهم وشغل بعضهم ببعض ، حتى يفشلوا وتذهب ريحهم . وقد تحققت الغاية التى أرادها هؤلاء المبغضون للاسلام الماكرون

به بما ارتكبه الخلفاء الأمويون أولا ، والعباسيون ثانيا من صور قاسية مدلهمة من الحماقات والظلم والاضطهاد . يعجز القلم عن سردها،فأصبحت النكبات التي تترامى على العلويين منذ مصرع الحسين فى كربلاء حتى أواخر العهد العباسي جذوة يزكى لهيبها روح العقيدة الشيعية ، حتى بين المسلمين غير المتهمين فى اسلامهم وسلامة إيمانهم ، وأصبح من الشروط الأساسية لصحة إيمان الشيعي أن يصب اللعنات على خصوم الشيعة وأن يناصبهم العداء ، فيروى أن أحد الناس سأل أبا جعفر الصادق فقال « أيا سبط النبي إنى لا أقوى بجد عن الدفاع عن حقوقكم ، وكل ما أستطيع عمله هو البراءة من أعدائكم والدأب على لعنهم ، فما قدرى عندكم ؟.

فأجاب : روى لى أبى عن أبيه الذى أخذه عمن سمعه من النبي « من اشتد ضعفه حتى عجز عن معاونتنا نحن آل البيت ، وعن نصرتنا،ولكن وهو فى بيته يصب اللعنات على أعدائنا تحييه الملائكة لأنه من الأبرار وتدعو الله قائلة: إلهنا ارحم عبدك الذى عمل ما قدر على فعله ولو قدر على أن يزيد لفعل !! فيقول الله تعالى : قد استجبت دعاءكم ورحمت عبدى وجعلته بين الأبرار والأخيار » .

ويعزى إليه أيضا أنه قال « إن الملكين اللذين يلازمان المرء لكى يحصيا عليه أقواله وأعماله يتركانه عند ما يتلاقى شيعى بآخر !. ولما نبهه بعض المستمعين إلى مناقضة ذلك للآية القرآنية الكريمة ( ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ) زفر أبو جعفر زفرة عميقة ، واخضلت لحيته بالدموع وقال. حقاً إن الله أمر ملائكته بأن يتركوا المؤمنين وحدهم عند ما يتناجون غير أن الملائكة إذا فاتهم هذا فالله يعلم ما كان خافيا » .

والظاهرة التى يلمسها الباحث فى العقيدة الشيعية هى رسوخ فى الاعتقاد بأن الله لأمر يخفى علينا ابتلى آل البيت وذريتهم فى هذه الحياة الدنيا بالمحن والآلام والاضطهاد ، فمن عاش فى نعومة وترف شك فى صحة نسبه إلى آل البيت ، حتى أن الحسينى محمد بن محمد العلوى كان له حظ من سعة ووفرة فى المال وهدوء فى المعيشة فكان يخشى أن لا يكون نسبه متصلا . يدلنا على ذلك ما يروى عنه أنه قال عند ما سجن وصودرت أمواله « إن من يكون من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لابد أن يبتلى . وأنا ربيت فى النعمة وكنت أخاف أن يقع خلل فى نسبى فلما وقع هذا فرحت وعلمت أن نسبى متصل » .

وهذه الأبيات التى نظمها أحد زعماء الشيعة تبين لنا إلى حد بعيد تغلغل هذا الاعتقاد فى النفوس وسيطرته على العقول :

| | |
|---|---|
| نحن بنى المصطفى ذوو محن | يجرعها فى الحياة كاظمنا |
| عجيبة فى الأنام محنتنا | أولنا مبتــل وآخرنا |
| يفرح هذا الورى بعيدهم | طراً وأعيادنا مآتمنا |

وقد استتبع هـذا الاعتقاد بأن كل من ينتمى إلى الشيعة لابد أن يقاسى من المحن والآلام على سبيل الامتحان فى صدق شعوره، وإخلاص إيمانه ، ومشاطرته للاضطهاد والعذاب الذى كتب على آل البيت . وكان من جراء ذلك أن نبعت فكرة المهدية أول ما نبعت فى حياة المسلمين التاريخية من العقيدة الشيعية ، وكان أول من اصطنعها عبد الله بن السوداء الذى ادعى رجعة على كما أوضحنا ذلك قبلا ، ثم تبعه المختار بن أبى عبيد الله الثقفى ، فزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدى ، وأنه لم يمت وإنما يقيم فى

جبل يسمى رضوى وعنده عينان نضاختان تجريان له عسلا وماء . وأنه سيرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلا بعد أن ملئت ظلما وجوراً، وهو مؤسس فرقة شيعية تسمى « الكيسانية » ، ثم تطور الأمر فلم تنفرد الشيعة بالدعوة للمهدية ، وإنما شاركهم فى ذلك العباسيون ، حتى أننا نجد المنصور « يستغل (١) شيوع كلمة المهدى عند الناس واعتقادهم فيها . فلقب ابنه بالمهدى على أساس هذه الفكرة ودعا إليه على أنه المهدى المنتظر ليحيط الخلافة بالسلطان الدنيوى ، والتقديس الدينى ، وجعله ولى عهده .

وكان تأسيسه للدولة العباسية على أساس دينى بتلقيبه ابنه هذا بالمهدى ، وتسمية أم المهدى بأم الخلفاء تشبها باسم أم المؤمنين . وتسميته بغداد بدار السلام تشبها باسم الجنة ، وتسميته أحد قصوره بقصر الخلد تشبها باسم الجنة أيضا ، وجعل باباً قصيراً لا يدخله إلا من انحنى كأنه راكع تعظيما له، وتكليفه بعض الفقهاء أن يضعوا الأحاديث فى مدح العباسيين ومدح النبى ، ووصفه بصفات تنطبق على ابنه المهدى وكان المهدى نفسه ذا « هلوسة » دينية يظهر ذلك فى كثير من تصرفاته ، وخصوصا امعانه الشديد فى محاربة من سماهم الزنادقة ، وتقصيهم وقتلهم وظهوره بمظهر حامى الدين والمدافع عنه ، وتسميته لولديه باسم الأنبياء موسى وهرون ، وتلقيبه موسى بالهادى ، ولما يئس من تسمية هرون بالمهدى ، لأن لقبه هو « المهدى » لقبه بالرشيد » .

وإن المتتبع لتاريخ ظهور فكرة المهدى المنتظر سواء فى الشرق أو

---

( ١ ) أحمد أمين بك « المهدى والمهدوية » .

الغرب يجد أنها ظهرت ووجدت تربة صالحة للنماء نتيجة للظلم الاجتماعي، والفساد الطبقي الذي كان سائداً في تلك الشعوب فكان مما يعزي الناس ويجعلهم يأملون في الحياة. اعتقادهم بظهور مهدي يطهر الأرض من الظلم والفساد والاستغلال، ويرسي قواعد العدالة الاجتماعية ليعيش الناس متساوين في الحقوق والواجبات .

وهكذا نجد اليهود وهم أول من بشر بالدعوة المهدية يؤمنون بمهدية إيليا كما نجد المسيحيين يعتقدون في رجعة عيسى عليه السلام . ولكننا عندما نصاحب التطور التاريخي لفكرة المهدية حتى قيام الدولة الفاطمية نجد هذه الفكرة قد تضخمت واندمجت فيها كل المبادىء والعناصر التي تكون المذهب الشيعي!. وإذا ما علمنا أن الدولة الفاطمية تفرعت عن الفرقة الشيعية التي تسمى الاثناعشرية، أو الباطنية أدركنا كيف اصطبغت فكرة المهدية باللاهوتية المغالى فيها، فالمهدي ليس بشراً، وليس إماماً عادلا فقط، وإنما هو فوق البشر معصوم من الخطأ، حتى زعم الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء الفاطميين في أخريات خلافته أن روح الله تجسدت فيه بل تغالى فزعم فوق ذلك أنه إله!.

والشيء الذي يلفت النظر أن دعوة المهدية لم تظهر بقوتها وانتشارها السريع، وازدهارها الملحوظ إلا في عهد العباسيين والفاطميين، ويظهر أن العباسيين عندما كانوا مختلطين بالشيعة، ومتفقين معهم على محاربة الدولة الأموية ومناوأتها أدركوا وسائلهم الخاصة في الخصومة. وأنه ليس أفعل ولا أشد من خصومة تقوم على أساس ديني، فأرادوا أن يتقوا مكر الشيعة بمكر يتفق معهم في الوسيلة والغاية، فكان أن احتضنوا فكرة المهدية، ودعموا ملكهم على أساس الإيمان بها، وشجعوا الأحاديث الموضوعة

بصحتها ، حتى جاء الفاطميون فغالوا فيها وضخموها وصبغوها بالصبغة اللاهوتية المحضة . وكانت لهم فى ذلك تأويلات تعسفية لآيات القرآن وللاحاديث النبوية التى تثبت صحتها ، وذلك لتحقيق فكرتهم وأغراضهم . وقد بلغ عدد الأحاديث المروية عن المهدى وهى التى أحصاها ابن حجر خمسين حديثاً لم يصح منها شيء ، وإنما كانت موضوعة كما قلنا لتثبيت دعائم العباسيين ، ومن بعدهم الفاطميين . ولكن مما تجب ملاحظته أن العباسيين عند ما احتضنوا عقيدة المهدية وشجعوها لم تكن فى الحقيقة من صنيعهم ، وإنما كانت من صنيع الشيعة ، ولكنهم وجدوا أن الأخذ بها فيه تدعيم قوى لملكهم فضلا عن أن فيه توهينا بليغ الاثر لإدعاءات الشيعة فى الخلافة ! . هذا أمر العباسيين ، أما أمر الفاطميين فإن دعوتهم إلى المهدية ومغالاتهم فيها لم تكن هى الاخرى إلا ستاراً يخفون وراءه أغراضهم الخاصة لتثبيت ملكهم وزيادة سلطانهم الاوتقراطى ، واستبدادهم الباطش ، وترفهم المسعور . فبينما نرى أن من صفات المهدى أن يكون مصلحاً زاهداً تقيا يعمل على تطهير الأرض من الفساد ويقضى على الاستغلال ، ويقيم قواعد العدالة الاجتماعية بين الناس نرى عكس ذلك على خط مستقيم ، هو ما كان يسود عصر الفاطميين ومن قبلهم العباسيين وهما العصران اللذان ازدهرت فيهما العقيدة المهدية فيروى « أن (١) الخليفة المستنصر الفاطمى كان فى قصره ثلاثون ألف نفس منهم اثنا عشر ألف خادم وألف فارس وحارس ، وقد ذكر الرحالة ناصر خسرو أنه رأى الخليفة على بغلة وهو فتى وسيم الطلعة ، حليق

---

(١) المصدر السابق .

الوجه ، وقد وقف بجانبه حاجب يحمل مظلة مرصعة بالحجارة الكريمة ، وذكر أن الخليفة كان يملك فى العاصمة عشرين ألف بيت أكثرها مبنى باللبن فى كل بيت خمسة طوابق أو ستة ، وفى أسفلها حوانيت يؤجر كل حانوت منها بما بين الدينارين والعشرة ، وكان من عادته أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى موضع نزهة أنشأه ، وربما خرج كما يخرج أغنياء الحجاج فى يوم حجهم ، وربما خرج ومعه الخمر فى الروايا عوضاً عن الماء يسقيه الناس كما يفعل بالماء فى طريق مكة وذكر المقريزى فى خططه كشفاً بأسماء كنوز المستنصر تستدعى العجب » .

ثم يقول المؤلف فى مكان آخر «كانت ثروة الفاطميين تفوق القدر ويصعب تصديقها على العقل ، فيقول المقريزى مثلا إن رشيدة بنت المعز خلفت من العملة الذهبية نحو ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار عدا الجواهر والحلى ، وخلفت ابنته الأخرى ، واسمها عبدة نحو سبعمائة وخمسين ألفاً عدا الصناديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد وثلاثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى ، كما أن المعز اشترى ستارة من الديباج من فارس بنحو اثنى عشر ألف دينار ، وأولعوا بالتصوير مع أنه محرم فى الاسلام فقالوا إن اثنين من المصورين كان ينافس أحدهما الآخر هما القصير وابن عزيز ، أحدهما صور الراقصة فى ثياب بيض فى قوس ملون بالسواد يحسبها الناظر داخلة فيه . والآخر صور فتاة بثياب حمر فى قوس أصفر يحسبها الناظر بارزة منه ، والخليفة الظاهر كان يعكف على اللذائذ واللهو من خمر ونساء ويترك أمور الدولة لوزرائه وقواده وهم يقابلونه كل عشرين يوما مرة . ثم يدعى هؤلاء

النواب أنه أوعز إليهم بكل شيء ، وأنه إمام معصوم متفرغ للعبادة . وقد كان يحدث هذا من الظاهر أيام كان الناس فى مصر فى مجاعة كبرى لا يجدون الخبز الضرورى » .

«ولما أزال صلاح الدين ملكهم وكل بالمحافظة على قصورهم الطواشى قراقوش وتسلم القصور وفيها من خزائن ودواوين وأموال ونفائس ما عظم عن الوصف . وقد قالوا إن صلاح الدين أمر ببيع ما فى القصور فاستمر البيع فيها نحو عشر سنين ، وكان من الموجود فيها مائة صندوق من الكسوة الفاخرة الموشحة المرصعة ، وعقود ثمينة وجواهر نفيسة . وكان فيها آلاف من العبيد والخدم ، وآلاف من الجوارى ليس فيهن لخل إلا الخليفة وأولاده » .

وهكذا إذا ما رجعنا للعناصر الأولى المقومة للعقيدة المهدية . نجد أنها تمت ، وازدهرت لما كان يسود العالم الإسلامى من فساد وظلم ، واستغلال،وجشع لا قدرة للناس على مقاومته ، وإزالته،ونجد من ناحية أخرى أن الخلفاء العباسيين والفاطميين استغلوا إيمان الناس بظهور المهدى فادعوا المهدية لأنفسهم تثبيتاً لسلطانهم الأوتقراطى ، وتوقياً من الإنقضاض عليهم ، والتمرد على حكمهم الذى هو حكم الله كما يزعمون دون أن يتقيد أى خليفة منهم بأدنى مرتبة من صفات المهدى الذى يتشمل فيه الحق والعدل ، والزهد والإصلاح . !

هذا وقد تفرعت عن التشيع فرق كثيرة منها غير ما ذكرنا فرقة تسمى « الغرابية » ، وهى التى زعمت أن الله أرسل جبريل إلى على فأخطأ وذهب إلى محمد لأنه كان يشبه علياً قالوا (كان أشبه به من الغراب بالغراب

والذباب بالذباب ) ومنهم فرقة أخرى تسمى «المغيرية» وهم الذين تأولوا آيات الكتاب الكريم تأويلات تعسفية خيالية تفسد العقيدة الاسلامية من أساسها فتأولوا قول الله تعالى « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » .

تأولوا ذلك على أن الله عرض على السموات والأرض والجبال أن يمنعن على بن أبي طالب من ظالميه ، فأبين ذلك فعرض ذلك على الناس فأمر عمر أبا بكر أن يتحمل نصرة على ومنعه من ظالميه وأن يغدر به فى الدنيا وتعهد له بأن ينصره على عَلِيٍّ على شريطة أن يجعل له الخلافة من بعده ففعل أبو بكر ذاك فكان هو الظلوم الجهول .

ولكن كل هذه الفرق التى تفرعت عن التشيع اندثرت تماما ولم يبق منها غير ثلاث فرق فقط هى ( ١ ) الاثنا عشرية . ( ٢ ) الزيدية . ( ٣ ) الاسماعيلية . وسنخص كل فرقة من هذه الفرق الثلاث بكلمة موجزة .

## ( ٣ ) الاثنا عشرية

والاثنا عشرية: فرقة ما زال لها أتباع حتى الآن وقد سموا بذلك لأنهم يسلسلون أئمتهم إثنى عشر إماما . ( أولا ) على بن أبى طالب . ( ثانيا ) الحسن . ( ثالثا ) الحسين . ( رابعا ) على زين العابدين . ( خامسا ) زيد .( خامسا مكررا ) محمد الباقر . ( سادسا ) جعفر الصادق . ( سابعا ) إسماعيل. (سابعا مكررا ) موسى الكاظم.( ثامنا ) على الرضا .

( تاسعا ) محمد الجواد . ( عاشرا ) على الهادى . ( حادى عشر ) حسن العسكرى . ( اثنى عشر ) محمد المهدى العسكرى .

وهذه الفرقة تؤمن كغيرها من الشيعية بالامام الخفى . وينتظرون ظهوره آخر الزمان ليطهر الأرض ، ويقضى على المفاسد والشرور فخلود الامام فى المذهب الشيعى أمر معترف به ويصور هذا الزعم ماحكى من الامام السابع مكرر من الاثنا عشرية ، وهو أبو موسى الكاظم من أنه قال « كل من حكى عنى أنه عنى بى خلال مرضى ، أو غسلنى وحنطنى ودفننى ، أو أنه نزل فى قبرى ومس رفاتى ، فقل عنه أنه كذاب وإذا استعلم أحد عنى بعد اختفائى ، فليجب أنه يعيش ولله الحمد ، ولعنة الله على من سأل عنى فأجاب إنه قد مات » .

## ( ٤ ) الزيدية

تعتبر الزيدية من الفرق المعتدلة فى المذهب الشيعى ، فهى تمثل إلى حدما القنطرة التى تفصل العدوتين عن بعضهما ، عدوة أهل السنة المحافظون الحريصون على أصول الاسلام ، وعدوة الفرق الشيوعية الأخرى المتحللة من كل قاعدة من قواعد الاسلام ، والعاملة على هدم أصوله الأساسية فلم يؤمنوا كباقى الفرق الشيوعية بعصمة الامام الخفى ، ولا بالعلم الباطنى الذى يهبه الله للأئمة دون غيرهم ، ولم يلعنوا أبا بكر وعمر وسائر الصحابة ويرمونهم بالخروج على الاسلام ، وأخذهم الخلافة من على . وإن كانوا يؤمنون بتفوق على بن أبى طالب عنهم فى قوة الادراك وفى المواهب الممتازة ، والصفات الحميدة . وتنسب هذه الفرقة إلى الامام الخامس من

فرقة الاثنا عشرية وهو زيد بن على زين العابدين بن الحسين وقد ثار(١) بالكوفة سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤٠ مطالبا بالخلافة دون ابن أخيه جعفر الصادق الذى أقر له جمهور الشيعة بإمامته الشرعية الموروثة ، ويمكننا أن ندرك مدى اعتدال هذا المذهب ، وعدم تعصبه وجموحه الشديد من أن الزيديين يعترفون بالإمامة لكل علوى دون مراعاة انتسابه لهذا الفرع أو ذاك من البيت الهاشمي متى توفر له من الاستعداد الروحى، والمواهب الدينية، والتكافوء الشخصى ما يعينه على القيام بمسئوليات الإمامة الدينية وما يجعله قادراً على استرداد حقهم المسلوب ، ومن ذلك نرى كيف يختلف هذا المذهب وما رواه أبو حمزة عن أبى جعفر الصادق من أنه قال : « إنما يعبد الله من يعرف الله ، فأما من لا يعرف الله فإنه يعبده فى ضلال مبين . قلت جعلت فداك ؟ فما معرفة الله ؟ قال تصديق الله عز وجل . وتصديق رسوله . وموالاة على والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام . والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم ، هكذا يعرف الله » .

## ( ٥ ) الاسماعيلية

وإذا ما تركنا الزيدية إلى الاسماعيلية وجدنا أنفسنا أمام جمعية منظمة تنظيما دقيقا لها تعاليم سرية على خط كبير جداً من الختل والمكر والدهاء ، وتنتسب إلى هذه الفرقة الدولة الفاطمية التى أسسها الفاطميون فى مصر . وقامت هذه الفرقة فى أواخر القرن الثالث الهجرى منتسبة إلى الإمام السابع من الاثنا عشرية وهو اسماعيل بن أبى جعفر الصادق

---

( ١ ) جولد تسيهر .

وبالرغم من أن أبا جعفر بعد أن نصب ابنه اسماعيل للإمامة رجع فسحب الولاية منه لما رآه عليه من انغماس فى الملذات والمنكرات وتعاطى الخمور إلا أن اسماعيل تنازل عن الولاية لابنه محمد، لأنه لم يكن له من الاستعداد الذاتى ما يتكافأ ومقتضيات المنصب الذى يتولاه وبالرغم من أنه كان يأتى المنكرات جهراً فإن أتباعه لم ينكروا عليه ذلك . ولما نعى عليهم خصومهم من الاثنا عشرية ذلك لم يحاولوا أن يبرئوا إمامهم مما يصمه، وزعموا أن الامام مباح له أن يفعل كل شىء لأنه مظهر عند الله ، ومعصوم من الخطأ والمنكر ، فكل ما يأتيه من قول أو فعل يراه الرائى منكراً ليس كذلك إلا فى الظاهر فقط ، أما الحقيقة فهو مبرأ منذ القدم من المعاصى . ومعصوم من الخطأ ! . .

وإن المتتبع لتاريخ الاسماعيلية منذ نشأتها يرى أنها نشأت فى جو مهيأ لنموها وازدهارها ، فلقد كانت الدولة العباسية فى دور التفكك والاحتضار لضعف الخلفاء العباسيين وخضوعهم لقواد من الأتراك كانوا مسيطرين على شئون الدولة سيطرة تامة فى بغداد وسامرا ، وكان من العسير على أى خليفة أن يعتلى العرش إلا برشوتهم واعطائهم سلطات واسعة وعدم مخالفتهم فى كل ما يطلبون ، وكان المجتمع الاسلامى فى ذلك الوقت يعانى فقراً مدقعاً ، وبؤسا وشقاء شديدين نتيجة للنظام الاقطاعى الذى كان يسوده ، فكان من مكر الاسماعيليين أن وضعوا ضمن تعاليمهم السرية الدعوة إلى سيادة النظام الاشتراكى فى المجتمع الاسلامى ، وبذلك انضمت إليهم أجناس مختلفة من المسلمين منهم العربى والعجمى والكردى والديلمى والتركى وغيرهم .

وما يذكره المؤرخون عن نشوء الاسماعيلية وتطورها التاريخى وما يذكره ابن الجوزى فى كتابه ( نقد العلم والعلماء ) من أن الاسماعيليين «نسبوا إلى زعيم لهم يقال له محمد بن اسماعيل بن جعفر ، ويزعمون أن دور الإمامة انتهى إليه لأنه سابع ، واحتجوا بأن السموات سبع ، والأرضين سبع ، والأيام سبعة فيستدل من ذلك على أن دور الأئمة يتم بسبعة » .

ثم ينتقل بعد ذلك فيتحدث عن الاسماعيلية الباطنية فيقول « إن عقائد الباطنية تباين الاسلام فحصول قولهم تعطيل الصانع . وابطال النبوة والعبادات وإنكار البعث ، ولكنهم لا يظهرون هذا فى أول أمرهم بل يزعمون أن الله حق ، وأن محمدا رسول الله ، والدين صحيح ولكنهم يقولون بذلك سراً » .

ولعل ابن الجوزى يتفق فى ذلك وما ذكره البغدادى صاحب كتاب ( الفرق بين الفرق ) من أن القيروانى وهو من كبار رجالهم ومن القرامطة قال فى رسالته إلى سليمان بن الحسن القرمطى « إنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والانجيل ، وبدعوتهم إلى أبطال الشرائع ، وإلى أبطال المعاد والنشر من القبور ، وأبطال الملائكة فى السماء ، وأبطال الجن فى الأرض ، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير فإن ذلك عون على القول بقدم العالم وفى هذا تحقيق دعوانا الباطنية . وينبغى أن تحيط علما بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم فى أقوالهم كعيسى بن مريم قال لليهود لا أرفع شريعة موسى ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت . وأباح العمل

فى السبت وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها ولهذا قتلته اليهود لما اختلفت كلمته . ثم قال له فى آخر رسالته « وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسنها فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبى ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى . ما وجه بذلك إلا أنه صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل وهو الاله الذى يزعمونه وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور ، والحساب، والجنة والنار حتى استبعدهم بذلك عاجلا وجعلهم له فى حياته ولذريته بعد وفاته خولا واستباح بذلك أموالهم بقوله : « لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئه . وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون !. وهل الجنة إلا الدنيا ونعيمها ؟ . وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة ، والصيام والجهاد ، والحج . ثم قال لسليمان ابن الحسن فى هذه الرسالة : وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ، وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس فهنيئا لكم ما نلتم من الراحة عن أمرهم » .

والخلاصة التى يمكن أن نخرج بها من هذه الكلمة السريعة عن الفرقة الاسماعيلية أنها فرقة متحللة مفسدة كافرة لا بالأديان فقط ، وإنما بكل القوانين الخلقية ، والقيم البشرية ، وقد استغلت فى نشر مبادئها الهدامة الظروف القاسية التى كانت تحيط بالمجتمع الاسلامى من ضعف خلفائه

وانغماسهم فى الشهوات واللذات ، ومن الأنانية الفردية ، والجشع المادى الذى كان مستولياً على نفوس القادة ، ومن بيدهم التوجيه الفكرى للمسلمين فالظروف كلها، كما قلنا غيرمرة، كانت مهيأة لقبول أى مبدأ،ولوكان هداماً لينتشل الكثرة الساحقة من الناس، مما يعانونه من ظلم وتعاسة ، ونظام طبقى معربد،وأدرك زعماء الاسماعيلية ذلك،فاصطنعوا فى دعوتهم نظاما اشتراكيا غير واضح المعالم، أو الأهداف،ليستطيعوا التأثير به فى نفوس ضحاياهم من المسلمين،وكانت لهم أساليبهم الماكرة،فى عدم إفلات الفريسة منهم،فكانت دعوتهم بالرغم من أنها سرية،تقدم رقيقة هينة،وتزداد شيئاً فشيئاً حسب الاستعداد الذى يتراءى لهم من تابعهم . كما كان من دهائهم أنهم يدرسون أولا ميول الشخص الذى يبثونه دعوتهم ، فمن كان ذاميول دنيوية شجعوه على التحلل ، وعلى عدم التقيد بالتعاليم السماوية،ومن كان ذا ميول روحانية شجعوه على الزهد فى الحياة،وكثرة التهجد والعبادات حتى يطمئن لهم أولا ، ويثق بهم. ليتمكنوا آخر الأمر من إيقاعه فريسة سهلة لهم ، ومما يحكى عنهم على لسان أحد أتباعهم الذى خرج وتبرأ منهم أن أحد دعاتهم قال له « ينبغى أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذى نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال : ( إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ) قال : فقلت سخنت عينك ، تدعونى إلى الكفر بالرب القديم الخالق للعالم، ثم تدعونى مع ذلك إلى الاقرار بربوبية إنسان مخلوق ، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلها مرسلا لموسى ، فإن كان موسى عندك مخرقاً فالذى زعمت أنه أرسله أكذب » .

وهكذا ترى معى أن هذه الفرق لم تكن غير عوامل هدم فى جسم الاسلام الحى الصلب، وأنها كانت من البواعث القوية فى ضعف المسلمين وتفككهم وانحلالهم ..! ولكن هناك بعض الأسئلة التى تلاحقنا ونحب أن نجيب عليها قبل أن نختم هذا الفصل ؟ وهو هل التشيع فى جملته يخدم الفلسفة ، ويساعد على التحرر الفكرى بصرف النظر عما إذا كانت هذه الحرية ضارة أم نافعة ، مفيدة أم هادمة .

لقد ذهب أكثر العلماء الغربيين إلى أن التشيع يمثل إلى حد كبير الأثر الفكرى الحر ، والعقل المتحلل الطليق ، خلال تطور المسلمين التاريخى ، وأنه لم يقف حجر عثرة فى سبيل تقدم الفلسفة وازدهارها.. ولكننا نلاحظ أن اطلاق هذا الحكم على علاته ، دون المام بالبواعث التى كيفت العقيدة الشيعية ، وأثرت فيها، ودون إحاطة بالأهداف التى كان يسعى إلى تحقيقها التشيع ، يعد مغالطة كبرى وبعداً عن الحقيقة والصواب.. حقيقة أن من المقتضيات اللازمة للتشيع ، وقد علمنا كيف نشأ ، وقد أحطنا بالبواعث التى ساعدت على تطوره ونموه . أن يكون حراً طليقا ولكن فى دائرة الأغراض التى يريد تحقيقها . وأن يحتضن الفلسفة لا ليبحث عن الحقيقة، وإنما ليستخدمها وما يتفق ونظرياته الباطلة الهدامة!. إننا يجب عندما نطلق حكمنا على شىء أن نحيط به من جميع نواحيه، وأن نتعمق إلى ما يكتنفه من أمور وأشياء ليست ظاهرة للعيان ، وأن نميط اللثام عما تنفعل به نفوس دعاته ... وإذا ما بحثنا على ضوء كل هذا عن حقيقة التشيع نجده فى الواقع يمثل الجمود الفكرى ، والرجعية القاسية ، والاستبداد العقلى والبلبلة الذهنية ، والتعقيدات النفسية على أبشع صورة

من الصور التى مر بها تاريخ الإنسان ، فالإيمان العقيدى الذى ابتدعته الشيعة ، وزكته بنظرية الحق الإلهى «للامام» والعصمة التى أضفتها عليه . وجواز أن يكون الأمام ظاهراً أو مستتراً وتقرير أن للقرآن معنى باطنياً غير ظاهر ، كل ذلك وما شابهه من الأسس التى قام عليها التشيع يتصادم مع أبسط المبادىء للفكر الحر ، الذى يستهدى الحق والصواب ، مطلقا غير مقيد بشىء ، ثم مع أبسط الأسس الفلسفية التى لا تتقيد فى البحث بأى عامل سواء كان عقيديا ، أم تقليديا ، أم عاطفيا !.. ثم إننا لا نجد تعصبا أقسى فى قوته وشدته من التعصب البالغ الذى لازم التشيع خلال تطوره التاريخى ، وهذا يتنافى من غير شك مع طبيعة الفكر الحر ، ومع القواعد الفلسفية ، فى مرونتها ، وإيضاحها ! .

ويجرنا الحديث عن الفلسفة والحرية الفكرية إلى الإلمام بعض الشىء بجماعة « المعتزلة » وهى فرقة ابتدعت «علم الكلام» فى الاسلام وكانت لها قضاياها الفكرية ، وفلسفتها الانشائية فى العصر العباسى وفى عهد المأمون والمعتصم ، والواثق بالذات ، وقد اختلف المؤرخون فى أصل نشأتهم فذهب كثير من المستشرقين إلى أنهم سموا بهذا الاسم لأنهم كانوا أتقياء زاهدين فى الحياة فاعتزلوا المجتمع الاسلامى بما كان ينفعل فيه من اضطرابات واختلافات حول السياسة ومن أحق بالخلافة من غيره ، فاعتزلوا فى المسجد يعبدون الله ، والبعض الآخر من المؤرخين العرب يذهب إلى أنهم سموا بهذا الاسم عندما اختلف واصل بن عطاء وكان ممن يحضر مجالس الحسن البصرى العلمى معه ، فى شأن مرتكب الكبيرة ، هل هو مؤمن ، أو غير مؤمن . فقال واصل ابن عطاء إنه ليس بمؤمن اطلاقاً ، وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين وبهذا

الأختلاف اعتزل هو وأصحابه مجلس الحسن البصرى واتخذوا لهم مجلساً آخر فى المسجد وبذلك سموا معتزلة ! . ويرى بعض آخر من المؤرخين أنهم سموا معتزلة عندما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة فاعتزلوا الحسن ومعاوية معاً لأنهم كانوا من شيعة على بن أبى طالب ، ولزموا منازلهم ومساجدهم ، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة !. . هذا ومذهبهم يقوم على خمسة أصول هى : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . .

تلك هى نشأة المعتزلة والأصول التى قام مذهبهم على أساسها . . ونحن وإن كنا نعترف بأن هذه الأصول الخمسة لا تبعد كثيراً عن جوهر الدين ، وهى من الاجتهاد المشروع فى الاسلام ، ولا تمس العقيدة بشىء ، إلا أننا عند ما نصاحب التطور الذى لازم المذهب المعتزلى حتى عصر إزدهاره ، يتبين لنا خطره على الدين فيما اصطنعه من تعقيدات ، والتواءات فلسفية ، فى فهم العقيدة والشريعة الاسلامية ، بعد أن كانت سهلة بسيطة واضحة ، وفيما يكمن وراءه من ضيق أفق ، وقسوة تفكير ، ومصادرة رأى الغير بما لا يتفق وأبسط مظاهر الحرية الفكرية ، حتى أننا نرى أحد دعاة المعتزلة بعد أن ظهر مذهبهم وأصبح له تأثيره الفعال بقوة السلطان وهو هشام الفوطى يقرر أن « من المباح قتل مخالفيهم فى الرأى غيلة وغدراً والاستيلاء على كل أموالهم بالخداع أو القوة ، كما يقرر أنهم كفرة » فيكون حكمهم حكم الخارجين عن الشريعة . . وإذا ما ذكرنا المحنة التى ابتلى بها الفقهاء السنيون وعلى رأسهم أحمد بن حنبل ، وهم يمثلون فى تاريخ الاسلام

الحزب الرجعى المحافظ ، وذلك عند ما ابتدع المعتزله مسألة خلق القرآن وحملوا مخالفيهم على يدى المأمون ومن بعده المعتصم على الإيمان بذلك بالحديد والنار! ندرك إلى حد كان استبداد المعتزلة وديكتاتوريتهم العقلية الغاشمة، وقسوتهم التى لا نظير لها إلا فى عصور الظلمة والجمود ، عند ما أوجدت الكنيسة محاكم التفتيش فى القرون الوسطى تصادر الرأى وصاحبه بالتعذيب والحرق، والإبادة الوحشية فى غطرسة وكبرياء .

ولسنا هنا ندافع عن السنيين وننتصر لهم ضد المعتزلة ، لأننا نعلم أن المذهب المعتزلى لم يكن إلا رد فعل للجمود العقلى الذى خيم على الروح الإسلامية على يدى الأئمة السنيين .

لقد قررنا غير مرة عند ما تحدثنا عن وجهة نظر الإسلام كدين عالمى ، ناضج واع ، يؤمن بالمثل العليا الواقعية للحياة أنه لا يقر هذا التقسيم الذى أقحم عليه على غير إرادة منه فى ذلك ، فليس هناك شىء يسمى : الإسلام السنى ، أو الشيعى ، أو المعتزلى أو غير ذلك من الأسماء المترادفة الكثيرة ، وإنما هناك اسلام فقط له من خصائصه الذاتية، ومن طاقاته الفسيحة المتشعبة الأرجاء ، ما يجعله مرنا مسايراً سنة التطور فى الأشياء والكائنات والحياة جميعا ، وإذا كنا نرمى المعتزلة بالتعسف فى التأويل والبلبة الذهنية، والاضطراب العقلى الذى كان من غير شك ، شراً ووبالا على العقيدة الاسلامية . فإننا لا يمكن أن نغفر للسنيين جنايتهم على الإسلام لرجعيتهم، ووقوفهم فى طريق تطوره، وهضمه للثقافات الأجنبية والتراث الفكرى القديم ، فينفى الغث ويكيف الصالح المفيد بمبادئه وتعاليمه فيستفيد ويفيد ! . . . إن هذه الدائرة التقليدية التى وقف فيها السنيون

جامدين لا يريمون هي التي ساعدت على وجود المعتزلة ، ومكنت لهم في إضطهادهم فكان رد الفعل في ذلك قوياً عنيفاً لأنه بينما تغالى السنيون في رجعيتهم ، وحياتهم العقلية ، وتزمتهم العميق ، وأخذهم بنظرية الجبر الإلهي ، والتشبيه أو التجسيم ، أخذاً قاسياً يدلنا على مبلغ سذاجتهم ، ومخاصمتهم للمنطق والعقل ، أسرف المعتزلة في جموحهم العقلي ، وتفكيرهم الطائش حتى شوهوا العقيدة الاسلامية ، وعقدوها .

ولكن بعض الباحثين يذهب إلى أن العوامل التي ساعدت على وجود المعتزلة ، وعلى سيطرة مذهبهم على التفكير الإسلامي في منتصف العصر العباسي هو ما كان يتميز به هذا العصر من شيوع الزندقة والإلحاد نتيجة لما وفد على العرب من ترجمة كثير من كتب الفلسفة اليونانية فظهرت نظريات أرسطو تخالف الإعتقاد (١) في حدوث العالم في الزمان والعناية الإلهية بالعالم في جزئياته الشخصية والمعجزات ، كل ذلك لا يتفق وأرسطوطاليس ، فكان لا بد من نهوض المعتزلة ليوفقوا بين تلك النظريات والمبادىء الدينية المحددة في كتابهم المقدس .

غير أننا نعتقد أن لظهور المعتزلة جذوراً أعمق من ذلك . وأن البواعث التي ساعدت على قيامهم ليست عقيدية محض ، وإنما ترجع في أصولها الأولى إلى أغراض سياسية . . ذلك أن من المسلم به أن خلفاء الدولة الأموية احتضنوا هذه الفرقة التي تنتسب إلى جهم بن صفوان والتي تسمى في التاريخ الإسلامي بالجهمية أو « الجبرية » وتقول بالجبر

---

(١) جولد تسيهر .

الإلهى ، وبعدم حرية الإرادة أو الإختيار ، وأن ما حدث أو يحدث مقدر على الإنسان والكائنات منذ الأزل ، وقد شجع الأمويون مبادىء هذه الفرقة واحتضنوها لتكون لهم سنداً فى تقوية حكمهم وبقائه ، ذلك أنهم كانوا متهمين من خصومهم العلويين ، بأنهم أخذوا الملك بدون حق قهراً واغتصاباً ، فلم يكن لهم من رد على ذلك ، ولا سند يعتمدون عليه ، إلا أن هذا الملك مقدر لهم مكتوب منذ الأزل ، وأنه لا إرادة أو اختيار لأحد فى ذلك !. ولعل فيما قاله يزيد بن معاوية لجلسائه عند ما حملت إليه رأس الشهيد الحسين « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء » أو ما صنعه عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد عند ما استدرجه إلى قصره واحتز رأسه وأمر بأن ترمى إلى أتباعه من فوق القصر ومعها الدنانير ، والهاتف ينادى « إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق ، والأمر النافذ » .

لعل كل ذلك يعطينا صورة دقيقة عن استخدام الأمويين لمذهب الجبرية فى تثبيت ملكهم ، وتحقيق أغراضهم السياسية ، دون أن ينظروا إلى ما بعد ذلك من خطر على الدين ، والعقيدة الإسلامية ، لأنه لما قامت فى عهدهم فرقة « القدرية » وهى التى تطورت فيما بعد إلى المعتزلة ، وكانت تنادى بحرية الإرادة وبنظرية الإختيار حاربها الأمويون بكل ما يملكون من قوة خشية أن تزعزع بنيانهم السياسى ، وتكون من العوامل القوية فى القضاء على ملكهم الذى قام على الاستبداد والطغيان . فلما قضى على الدولة الأموية ، وقامت على أشلائها دولة العباسيين وجدنا

المعتزلة يأخذون مكانتهم بجانبها فيعقدون المناقشات علانية فى أصول مذهبهم، والدعوة له، والرد على مخالفيهم فى الرأى، سواء من السنيين أو غيرهم وذلك كله برعاية وتشجيع من الخلفاء العباسيين.

فقيام المعتزلة وازدهار مذهبهم فى العصر العباسى لم يأت نتيجة لظهور الفلسفة الأرسطوطالية، ومحاولة التوفيق بين مبادئها ومبادىء الاسلام، وإنما قام فى الحقيقة للقضاء على كل صورة من صور الفكر السنى، الذى ساد فى العصر الأموى، لأننا نرى أن وفود تلك الفلسفة على العرب لم تتحقق إلا فى عصر المأمون بينما نرى احتضان الخلفاء العباسيين للمعتزلة، والاستعانة بهم قد تم فى عصر لا يسبق عصر المأمون فقط، وإنما يسبق عصر والده « هرون الرشيد »، وأوثق المصادر التاريخية التى بين أيدينا تذكر أنه لما ظهر المقنع الخراسانى فى عهد المهدى، وكان ينادى بتناسخ الأرواح «واستغوى(١) طائفة من الناس وسار إلى ما وراء النهر، فلاقى المهدى عناء فى التغلب عليه، ولذلك أغرى بالزنادقة، فكان يتتبعهم ليقضى عليهم بسيف السلطان، ولكن السيف لا يقضى على رأى، ولا يميت مذهباً، ولذلك شجع المعتزلة فى الرد عليهم وأخذهم بالحجة، وكشف شبهاتهم، وفضح ضلالاتهم فمضوا فى ذلك غير وانين».

وإذا ما علمنا أن المهدى كان ذا هلوسة دينية، وأفكار لاهوتية، وأن عصره وعصر هرون والمأمون كان متأثراً إلى حد كبير بالعادات والأفكار الفارسية حتى شاع فى بغداد «استعمال(٢) الأزياء الفارسية

---

(١) أبو حنيفة للاستاذ أبو زهرة ص ١٤٨.
(٢) «فون كريمر».

وصاروا يحتفلون بأعياد الفرس القديمة وهى النيروز ، والمهرجان ، والرام ، وأصبح الزى الفارسى لباس البلاط الرسمى » .

إذا علمنا كل هذا تبين لنا أن الخلفاء العباسيين لم يكونوا فى محاربتهم لمن سموهم الزنادقة . مدفوعين بروح الدفاع عن الدين ، والحرص على أصوله وتقاليده، لأنه كان يسمح لكثير من هؤلاء مع شهرتهم «بالزندقة» بالجلوس فى مجلس الخليفة دون امتهان لكرامتهم ، أو غض من شأنهم وخصوصاً المأمون الذى كان له مع السنيين موقف آخر ، وسقطة ليس لها تفسير إلا الانتقام المروع من خصومه الأمويين فيمن يمثلهم من السنيين .

وأخيراً فنظريتنا التى نعلنها ههنا أن كل الفرق التى وجدت فى الاسلام ، لم تكن مدفوعة فى نشأتها ، وتكوينها ، وأهدافها بالبحث عن الحق لذاته فقط ، أو الدفاع عن الاســـلام دفاعا خالصا غير مغرض ، وإنما كانت كلها إما قائمة لأطماع سياسية ، أو بدافع الحقد والضغينة ، والمكر السيء بالمسلمين فى إفساد عقيدتهم وتشويهها ، وكان جمهورهم من العامة ضحية لذلك كله واقعين تحت المؤثرات والعوامل التى تحدثنا عنها قبلا !..

ولكننا نعلم الآن أن ظلام هذا الجهل ، وأن عدم الوعى والإدراك الذى كان مسيطراً على العالم الاسلامى آخذاً بخناقه طيلة هذه القرون الطويلة قد أخذ ينقشع عنه شيئاً فشيئاً فلننظر الآن إلى أى مدى ستكون للمسلمين شخصيتهم ، وتأثيرهم الفعال فى التعاون العالمى ، والاستقرار الدولى ، وإلى أى مدى سيساهم الاسلام بتعاليمه السامية ، ومثله العليا الواقعية فى بناء عالم أفضل .

# مستقبل الاسلام والعالم

كان فى نيتى أن أعقد مقارنة بين هذه الحضارة الحديثة التى يتأثر بها عالمنا اليوم ، و بين مبادىء الاسلام وتعاليمه ، ولكننى اكتفيت أخيراً بأن تكون هذه المقارنة ضمن عناصر هذا الفصل من الكتاب ، لأن التحدث عن مستقبل الاسلام ، والعالم ، سينبنى حتما على دراسة تفصيلية لما يسود مجتمعنا البشرى من نظم سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، ومن إعتبارات خلقية تكيفت تحت تأثير هذه النظم جميعاً ، وكل ذلك فى مجموعه ، وما ينشأ عنه يمثل الحضارة الحديثة أصدق تمثيل .

وأول ما يعن لنا ونحن فى مستهل هذا البحث أن نثير هنا سؤالا يختمر فى عقول كثير من الباحثين ، ويشغل فئة غير قليلة من المثقفين وهو : هل كانت التعاليم الدينية فى أول أمرها ترتفع عن مستوى الإدراك البشرى ؟ . وهل كان النضوج الفكرى للانسان متأثراً أول ما تأثر بالعقيدة الدينية ، أم تم له ذلك بالتحلل منها؟. وهل هناك علاقة تربط بين المبادىء والتعاليم السماوية ، وبين ما اصطنعه العالم المتحضر من نظم ونظريات فى السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ؟ .

أما جوابنا على الشطر الأول من السؤال فإننا نقول : إن المبادىء والتعاليم الدينية التى تتصل اتصالا مباشراً أو غير مباشر بوجود الإنسان ككائن حى يدب على ظهر هذه الأرض ثم ما تنفعل به نفسه من

مؤثرات ، ويخضع له من ضرورات ، كلّ ما ينطوى تحت ذلك من مبادىء، وتعاليم سماوية لا يمكن أن يرتفع بأى حال عن مستوى الادراك البشرى ،لأن هذه المبادىء والتعاليم ، التى يدعو إليها أى دين من الأديان جاءت لتواجه هذا الادراك البشرى ، ولا سبيل لها إلى تلك المواجهة إلا إذا كانت فى مستوى يتفق ،وما بلغته القافلة البشرية، من وعى وإدراك ولذلك يتبين لنا بجلاء عند ما نقابل بين الديانات بعضها البعض ، أنها تؤرخ التطور البشرى ، على أصدق وأدق وجه من الوجوه ، وأنها فى ذاتياتها ، وخصائصها الأولى ، تسير جنبا إلى جنب مع قانون التطور والارتقاء للانسان والكائنات جميعاً .

أما ما يكون فى هذه الديانات من أمور « ميتافيزيقية » لا يصل إليها الادراك البشرى، أو لا تخضع لقضايا الانسان العقلية ، فإنها على أى حال فى غاياتها العليا ، قائمة على خدمة وتغذية هذه المبادىء والتعاليم التى تواجه إدراك الانسان ،وتنفعل مع وجوده المادى ، ثم مع ما يضطرب به عقله وفؤاده ، وما يحيط به من أشياء ، ويتأثر به من مؤثرات تكيف حياته ، وتصنع له تاريخه .

وإذا كان الأمر كما ذكرنا فإن الاجابة عن الشطر الثانى من السؤال تصبح سهلة واضحة وهى : نعم إن النضوج الفكرى فى عهده الأول كان متأثراً إلى حد بعيد جداً بما حملته العقائد الدينية للبشرية من مبادىء النظام الجماعى ، ومن القضاء على الأنانية الفردية ، ومن دعوة إلى الايثار والمحبة والعدالة ، ومن تحرر للانسان من ربقة استعباده للتقاليد والعادات البالية ، التى ورثها عن أسلافه ، ولا يمكن حتى لمن يخاصم

الديانات أن ينكر أنها كانت تمثل التحرر الوجدانى والعقلى للبيئات التى نبتت فيها، من سيطرة التقاليد والعادات، وما يكمن وراءها من دواعى الرجعية والجمود .

وإذا كان العقل فى أطواره التاريخية قد قام مناهضاً للدين ثائراً عليه مسرفاً فى التحلل من مبادئه وتعاليمه، فإن ذلك فى الواقع لم يكن ضد الدين ذاته فى مبادئه، ومثله العليا، وجوهره، وتعاليمه النظيفة الخالصة وإنما كان ذلك الهجوم، وتلك الثورة موجهين ضد (عقيدة رجال الدين) وسلوكهم الشخصى، وإدراكهم المنحط ، وهم الذين كانوا يمثلون فى الحقيقة جملة خرافات وأساطير أضافوها إلى العقائد الدينية، ووقفوا بها حجر عثرة فى سبيل تقدم البشرية وتطورها، فالمؤثرات كلها التى كانت تحمل طابع التحلل من الدين ، ومحاولة هدمه بل محوه من الوجود لم تكن موجهة ضد الدين فى حقائقه الأزلية ، وأهدافه التى ينشد من ورائها سعادة البشر ورقيهم ، وإنما كانت موجهة ضد الجمود العقلى والركود الفكرى ، والظلم الاجتماعى ، والفوضى الاقتصادية التى كان عمادها جميعا رجال الدين فى الغرب والشرق على السواء ، فالثورة الأوربية التى حمل لواءها فى أواخر القرن السادس عشر « فرنسيس بيكون» فى انجلترا، ورينيه ديكارت فى فرنسا، والثورة الروسية والتركية التى قامتا فى أول هذا القرن . . . كل هذه الثورات ظاهرها العداء السافر للدين ، ولكل ما يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد . ولكننا لو تعمقنا فى جذورها قليلا، ورأينا كيف انبعث تهدم كل شيء فى طريقها لوجدنا آخر الأمر أنه لم يكن يعنيها إلا إزالة هذه العوائق الرجعية من

طريقها ، وهى التى كانت تتمثل كلها فى رجال الدين المحترفين ، الذين كانوا فى سبيل البقاء على سلطانهم فى البيئات الاجتماعية التى تخضع وتتأثر بالعاطفة الدينية يرمون كل مصلح يطالب بالعدالة الاجتماعية . أو كل مفكر يصطنع نظريات جديدة ، أو كل عالم يذهب إلى آفاق بعيدة من المعرفة ترتفع فى قوتها ونضوجها عن مستوى إدراكهم القاصر .. كانوا يرمون كل واحد من هؤلاء بالالحاد ، والخروج عن الدين إبقاء على سلطانهم ومكانتهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، حتى أن رجال الكنيسة فى أوربا فى منتصف القرن التاسع عشر عارضوا « نمو(١) علوم الاحياء والجيولوجيا معارضة شديدة قاتلة . ولم يرغب العلماء حينئذ فى الظهور بمظهر الخارجين عن الدين الملحدين ، ولكن الاختيار أمامهم كان بين سىء وأسوأ » ففضلوا اختيار السىء على الأسوأ متحملين غضب العامة وسخطهم عليهم ، وثورة الكنيسة ضدهم ، ورميهم بالخروج عن الدين .

أما إجابتنا عن الشطر الأخير من السؤال ، وهو هل هناك علاقة تربط بين المبادىء ، والتعاليم السماوية ، وبين ما اصطنعه العالم المتحضر من نظم ونظريات فى السياسة والاجتماع ، والاقتصاد ؟ فإن جوابنا الذى يستند على أسس علمية ، وعلى دراسة دقيقة لمراحل التطور البشرى أن هذه النظم والنظريات ما هى إلا أثر تكون وتكيف نتيجة لما حملته الأديان من مبادىء وتعاليم لحفظ النوع البشرى ، من التأخر والتفكك والدمار .. فمن الثابت علمياً وتاريخياً أن الانسان لم يخرج من حياته البدائية

(١) ديزموند برنال « فى رسالة العلم الاجتماعية » .

الفردية ، ويخضع للنظام الجماعي إلا بفعل الأديان، سواء أكانت وضعية أم سماوية ، فتكوين المجتمعات البشرية الأولى تم عن طريق الايمان بالدين والتأثر به، والخضوع له خضوعاً تاماً في كل ما يتصل بحياة الإنسان وسلوكه الشخصي فكان الدين مسيطراً سيطرة تامة على شئونه جميعاً في علاقته بنفسه ، وفي علاقته بزوجه وأولاده ، وأسرته ، ثم في علاقته بالبيئة التي درج فيها ، وما لها عليه من واجبات ، وما له قبلها من حقوق فالعقيدة الدينية لها الفضل الأكبر، في اخراج الانسان من حياته الأولى الفردية المنزوية ، التي كانت تشبه إلى حد بعيد حياة الحيوان الجامح ، إلى حياة أخرى من النظام الجماعي الذي يحتم بدوره التعاون، سواء بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو بين أفراد القبيلة، فنشأ عن ذلك تفكير بدافع حب البقاء ، في إيجاد نظم وضمانات تحفظ حياة تلك المجتمعات التي كانت تمثل في طورها الأول النظام القبلي .. ومن هنا نشأ نوع من التعاون والتكاتف ، ومن الخضوع لقانون محدد يمثله رب القبيلة، ويخضع له أفرادها بدون تمرد ولا عصيان فالبذرة الأولى في إيجاد نوع من النظام الاجتماعي يخضع له الفرد وضعت أول ما وضعت بيد الدين، وبوحي من العقيدة الالهية . وإذا كان الايمان بالدين، وبالعقيدة الالهية في طورهما الأول لا يتفقان مع الأسس والأصول التي قامت عليها الديانات السماوية الأخيرة، وكانا يكتنفهما من القصور في الوعي، وعدم الادراك الكامل بحقيقة الوجود، الشيء الكثير . إلا أننا لا يمكن أن نغفل هنا أنهما كانا يمثلان الطور الأول لحياة هذه لمجتمعات البدائية.

ومن هذه النقطة نستطيع بوضوح أن نرى الخيط الذي يربط بين

الدين وطبيعته الجماعية، وبين ما اصطنعه العالم المتحضر للمحافظة على كيان المجتمع واستقراره ، من نظم فى السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد .

وإذا كنا قد قررنا فيما مضى ، أن الدين فى جملته يكون مصطبغاً بطبيعة البيئة التى نشأ منها ، ودرج فيها ، وأنه فى كل تشريعاته وأوامره ونواهيه ، لم يكن له من هدف ، غير خدمة هذه البيئة ، وتوفير عوامل الاستقرار، والعدالة فيها ، حسبما كان يتفق ، وما توفر لها من امكانيات معيشية ، وما بلغته من نضوج، وما يوجد أمامها من مسائل ومشكلات يجب التغلب عليها . . فإننا نرى هنا مدى العلاقة التى تربط الدين بكل نظام تطورى من نظم المجتمع متى كان هذا النظام يسعى — ولو بوسائل تختلف عن وسائل الدين — ولكنها تتفق معه فى غاياته العليا فى إيجاد عوامل الاستقرار والنماء للمجتمع البشرى فالتشريعات والتجارب التى تهدف إلى إقامة التعاون بين الناس ، وإلى العدل المطلق ، وإلى مكافحة الشرور والآثام من المجتمع ، وإلى إقامة واحياء كل ما دعا إليه الدين من فضائل وميزات تسمو بالجنس البشرى . . هذه التشريعات والتجارب يقرها الدين ويباركها لأنها تتفق فى نهاية الأمر مع جوهره ، وغاياته العليا فى سعادة المجتمع البشرى ورقيه ، ونظافته داخلياً وخارجياً .

بسطنا هنا كل هذه الأشياء لنبدد الوهم المسيطر على عقول كثير من المثقفين والذى أصبح كحقائق ثابتة مستقرة فى ذمة التاريخ ، وهو دعوى العداء بين الدين والعلم ، وخصوصاً العلم المجرد والعلم التجريبى ، وكان الأولى بالمؤرخين أو بهؤلاء العلماء الذين توهموا هذا الوهم ، أن يدركوا أن الدين فى حقائقه الأزلية، لا يمكن أن يقف فى طريقهم لأن

ذلك يتنافى مع رسالته الخالدة فى خدمة البشر ورقيهم والسمو بهم نفسياً وعقلياً ، وإنما الذى كان يقف فى طريقهم فى الواقع وحقيقة الأمر ،هم أولئك الذين منحوا أنفسهم،أو منحهم المجتمع السلطة الكاملة فى رسم حدوده ، وفى تصويرهم لأهدافه وغاياته ، ونظرته للأمور والأشياء .

إن من الحقائق الثابتة تاريخياً أن الدين كان فى كل أمة نزل إليها عاملا من العوامل القوية فى تقدمها ونهوضها،وتعاونها على البر والتقوى وعلى السلام والاخاء ، فإذا حدث بعد ذلك وطرأت عليها دواعى الضعف،والانتكاس والانحلال،ولو كان على يدى رجال الدين المحترفين فليس الدين مسئولا عن ذلك ، وإنما المسئولية كلها تقع عليهم وحدهم لأنهم جعلوا أنفسهم حفظة عليه ، فلم يحسنوا المحافظة ، ونهضوا لآداء رسالته ، فلم يؤدوها كما ينبغى .

هذا هو الدين فى حقائقه الأزلية ، وفى غاياته العليا، تعمدنا أن نستظهره عاماً لا خاصاً ، ولكننا نؤمن بأن قانون التطور الذى يخضع له الانسان،وتخضع له الكائنات جميعها يصدق هنا أيضاً على الديانات !. والاسلام باعتباره آخر هذه الأديان وخاتمها،يمثل الطور الأخير لنضوج العقيدة الإلهية وكمالها . . فلننظر الآن موقفه من هذه الحضارة التى تسيطر على عالمنا هذا المضطرب ، ثم مكانته بعد ذلك فيما نرجوه من حياة أفضل. يتوفر فيها الهدوء النفسى ، والاطمئنان القلبى.

وهذه الحضارة تقوم على ضربين مختلفين من النظم السياسية،والاجتماعية

والاقتصادية ، إحداهما الديمقراطية، وثانيهما: الشيوعية. فلنحاول الآن أن نرسم صورة سريعة للعوامل التي ساعدت على ظهورهما ، والتطور الذي صاحبهما ثم مقارنتهما بما رسمه الاسلام للعالم من نظام في السياسة والاجتماع والاقتصاد .

## ( ١ ) الديمقراطية

إن العبرة في أي نظام من النظم ليست فيما يحمله من مبادىء ، ونظريات مثالية ، وليست في تحقيق مظاهره وصوره المرئية فقط . وإنما المعول دائما هي الروح التي تهيمن على تطبيق تلك المبادىء ، والنظريات ، وعدم الوقوف عند المظاهر ، وإنما تحقيق الغايات التي من أجلها وجد هذا النظام ، والمتتبع لطبيعة التطور التاريخي للنظام الديمقراطي يرى عجباً . يرى أن هذا النظام الذي بني على أساس « حكم الشعب بالشعب» لتتوفر للمواطن العدالة التامة، وليتساوى الجميع من أبناء الوطن أمام القانون، وليتمتع كل فرد في الدولة بتكافىء الفرص مع غيره سواء بسواء . . بينما نرى هذه المبادىء في النظام الديمقراطي صريحة واضحة نرى أن ما كان يتحقق تحت ستار هذا النظام ليس إلا نوعاً من الحكم المطلق المقنع بمظاهر برلمانية وكل ما طرأ عليه أنه أصبح يمثل مصالح فئة محدودة من الناس بعد أن كان يمثل مصالح فرد واحد .

ولنسجل هنا صوراً سريعة من واقع التطور التاريخي للنظام الديمقراطي ليتبين لنا هذا المعنى في وضوح وجلاء . وأول من اصطنع هذا النظام هم الاغريق في القرن الخامس قبل الميلاد . وإذا ما استظهرنا

الروح التى كانت تسيطر على هذا النظام ، وتكيفه فى العصر الإغريقى تبين لنا ما كان يكتنفه من عجز وقصور ، لبعده عن الأساس الذى قام من أجله ، وهو « حكم الشعب بالشعب » لأنه فى الواقع لم يكن يمثل إلا مصالح فئة خاصة لها امتيازات محرم على غيرها من المواطنين التطلع إليها، أو التمتع بها . فمن الثابت أن الديمقراطية الإغريقية قد أقرت النظام الطبق ، واعترفت بالرقيق ، ونظمته باعتباره أهم مصدر للإيراد لمصلحة الطبقة الحاكمة ، وكان أرسطو يعبر عن ذلك بقوله : إن الله خلق نوعين من الناس . السادة والعبيد . وكل ميسر لما خلق له . فالعبيد خلقوا لا لشىء إلا لخدمة السادة . ولما ورث الرومان النظام الديمقراطى عن الاغريق لم يكتفوا باقرار النظام الطبق ، وبمشروعية الرق ، وإنما أصبح هذا النظام يمثل الظلم الاجتماعى على أبشع صورة ، وكانت الروح المسيطرة فى العلاقة بين الطبقة الحاكمة ، وجموع الشعب الكادحة أقرب ما تكون إلى شريعة الغاية حيث كل شىء للقوى ، ولا شىء للضعيف ، وقد أوردنا صوراً عدة لهذا النظام الديمقراطى المزيف عند ما تحدثنا عن القانون الرومانى فى أول الفصل الثانى من هذا الكتاب فليرجع إليها من يشاء .

من كل هذا يتبين لنا أن النظام الديمقراطى فى عهوده الأولى لم يكن يمثل إلا مظاهر خادعة لا تغنى من شىء ، ولا تقيم وزناً للاعتبارات ، والأهداف التى من أجلها وجد هذا النظام . وبذلك لا نستطيع أن نعترف بصلة قوية تربط بين روح الديمقراطية الاغريقية والرومانية ، وبين الثورات التحريرية ، وإعلان حقوق الانسان التى

قامت فى أواخر القرن الثامن عشر ،كما ذهب إلى ذلك كثير من المفكرين، وذلك لقصور وزيف هذه الديمقراطية التى لم تكن قائمة إلا على نظام طبقى مستبد ، وعلى رعاية مصالح فئة خاصة من الناس ومصادرة آراء الغير ، وبمعلوم كيف حوكم سقراط فى ظل هذا النظام الديمقراطى المخادع ، وحكم عليه بالإعدام .

ثم إننا عند ما ننظر إلى ما كان يرزح تحته العالم الغربى باسم النظام الديمقراطى ، من حكم مستبد مطلق ، ومن مصادرة للحريات ، ومن نظام إقطاعى شره ، ومن تفاوت بليغ فى الطبقات قبل قيام الثورات الشعبية التحريرية فى انجلترا فى أواخر القرن السابع عشر ثم فى فرنسا وأمريكا فى نهاية القرن الثامن عشر ... إننا عند ما ننظر إلى ما كان يسود المجتمع الغربى فى ذلك الوقت من نظام فى الحكم ، والسياسة . وحقوق الشعب نجد أن هذا النظام الديمقراطى كان يمثل أحلك فترة مرت بالتاريخ البشرى ، وأنه كان يرتكب باسمه كل ما لا يتفق والاعتبارات الخلقية والإنسانية . وأنه لم يكن غير ستار يحمى وراءه سلطات الكنيسة ، ومصالح الطبقة الحاكمة ، فكان أسهل شىء أن يتهم رجال الإصلاح بالكفر والإلحاد ، وأن ترفع الكنيسة رحمتها عنهم فيتولاهم رجال السلطة بالتعذيب والحرق أحياء . وكانت تفرض لوائح وقيود شديدة على طبع الكتب ونشرها ، وفى سنة ١٧٧٥ وافق البرلمان الفرنسى على حرق كتاب « فى فلسفة الطبيعة » واتهم مؤلفه بالإلحاد ولو لم يختف لكان جزاؤه الموت حرقاً .

وإذا ما تحققنا من النظرة التى كان ينظر بها الملوك إلى البرلمانات التى

تمثل المظهر الخارجى للنظام الديمقراطى تبينا أنها لم تكن غير ألعوبة فى أيديهم يلهون بها دون احترام لمشيئة الشعب ، ومصالحه، وحقوقه التى يمثلها رجال البرلمان . فلقد كانت انجلترا فى عهد الملك شارل الأول « تعانى (١) نظام حكم مستبد مطلق أدى إلى ثورة الشعب على الملك بزعامة كرمويل . ولما انتصرت الثورة وقدم الملك إلى المحكمة العليا كان ضمن المستندات ضده خطاب أرسله لزوجته ووقع فى أيدى أعدائه وفيه يقول :

اطمئنى ففيما يختص بالمطالب التى سأجيب البرلمان إليها ، وأعطيها للشعب ، فإننى أعلم يقينا متى حان الوقت كيف أتصرف مع هؤلاء السخفاء ، وبدلا من أن أعطيهم رباطاً من حرير للساق أقدم لهم حبلا من القنب » .

ولما جاء رجال البرلمان إلى الملك لويس الخامس عشر ملك فرنسا لمقابلته وتلقى تعليماته قال لهم « إنى أخبركم بما أريده منكم ، ويجب أن تنفذوا إرادتى على الوجه الأكمل . . . إنى لا أريد احتجاجات أو معارضات بأية صورة من الصور ، أو أية صيغة من الصيغ . إنكم استحققتم إلى أقصى الحدود سخطى الشديد ، ويجب أن تخضعوا لسلطانى أكثر من ذى قبل ! . عودوا إلى وظائفكم » .

ولما أراد رئيسهم أن يتكلم تقدم بضع خطوات وقال : سيدى . ولكن الملك قاطعه وقال له : اسكت . ثم تقدم أحد المستشارين وثنى

---

(١) « المثل الديمقراطية » للأستاذ عبد المنجى رجب .

ركبتيه ووضع أمام الملك ورقة مدون بها ما يطلبه رجال البرلمان فأزاحها الملك برجله ونادى أحـــد أتباعه وأمره بتمزيقها ثم أدار ظهره للمجتمعين وانصرف .

هكذا يتضح لنا كيف أن هذا النظام الديمقراطى لم يحقق فى مراحله الأولى إلا المظاهر والصور المرئية فقـط . وأنه كان أشـد وطأة على الشعوب من أى نظام آخر حتى إننا نقول بدون تحفظ ، أنه لا يقـاسى به النظام الديكتـاتورى المصلح فى شيء ، ولا يمكن أن يدانيه فى قسوته ومغالاته فى الظلم والعبودية، إلا النظام الأوتقراطى، وهو ما كان مصطبغاً به إلى ما قبل القرن التـاسع عشر !.. ولـكننـا نلاحظ أن الحقوق التى اكتسبتها الشعوب التى تدين بالديمقراطية بعد الثورات الشعبية التحريرية فى أوربا وأمريكا لم تخل من عجز وقصور فى توفير العـدالة المطلقة لأبناء الشعب جميعاً، ومراعاة مصالحهم بلا تفريق.. حقيقة إن الديمقراطية بعد الثورة ، وإعلان حقوق الانسان ضمنت حرية الفرد ، وقدست حقه فى أن يزاول ما يتفق مع طبيعته من الأعمـال المشروعة ، دون تدخل من السلطات فى أى شأن من شئونه الخاصة والعـامة ، لـكنها من ناحية أخرى خلقت طبقة قوية غنية تزداد مع الأيام قوة وثراء لأنها تحتـكر منابع الإنتاج فى الدولة ، ومصـادر الثروة فيها ، وبالتـالى تؤثر تأثيراً مباشراً فيما تسنه الدولة ، من مشاريع وقوانين فى السياسية ، والاجتماع والاقتصاد ، تضمن بها حماية مصالحها فقط، دون أى اعتبار لمصالح الشعب جميعه وليس صحيحاً وما تنادى(١) به تلك الفـكرة من أنه إذا سعى كل فرد

(١) «السـبيل إلى عالم أفضل» كارل بيكر ترجمة الأستاذ عبد العزيز اسماعيل

وراء منافعه الذاتية فإن ضرباً من التوفيق بين مصالح الشعب المختلفة سرعان ما يزداد ظهوره أو يقل بصورة آلية ، وكان يعبر عن هذه الفكرة . فى إيجاز بالعبارة الآتية : ( إن المنافع الخاصة تؤدى بدورها إلى تحقيق المنفعة العامة ) .

« وهذه النظرية البسيطة ، التى تتلخص فى ترك كل فرد يعمل لنفسه لأن من لا يسعى إلى ذلك يتخلف وراء الصفوف . هى نظرية تعمل لمصلحة القوى ضد الضعيف ، وفى مجتمعات القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر التى لم تكن حياتها ، بالقياس إلى غيرها ، قد تعقدت بعد ، كانت هذه النظرية تعمل لمصلحة أولئك الأفراد القلائل الذين أتاح لهم الحظ ، أو الذكاء الممتاز ، أو فقدان الضمير . أن يقتنوا ثروة ، وأن يستعينوا بها فى توسيع دائرة مصالحهم الشخصية عن طريق الضغط السياسى ، ذلك الضغط الذى يخلق دائماً طبقة كبيرة من الأفراد لا يتقيدون بقواعد السلوك المثالى فى سبيل مد يد المعرفة إلى الحزب الذى ينتمون إليه » .

وكل هذه الآثار السيئة التى سجلناها هنا تترجم أدق ترجمة عما نعانيه نحن الشرقيين من ظلم اجتماعى وسلطات أتوقراطية فى ثوب من النظام الديمقراطى المهلهل . إن التجارب القاسية للنظام الديمقراطى التى مرت على أوربا وأمريكا قبل مطلع القرن التاسع عشر تمر بنا الآن فى قوة وقسوة دون وازع من خلق أو إيمان بالشعب ممن بيدهم السلطان ، ودون اتعاظ بما حدث لما قبلنا من تزعزع . وهزات اجتماعية وتصارع واضطراب . وليس المهم كما قلت أن تكون هناك نظريات خلابة . ومثاليات رفيعة وإنما المهم هو

امكان تحقق هـــذه النظريات والمثاليات فى الواقع المحسوس . وعيب الديمقراطية كما تحققت حتى الآن، أنها تعتنى بالمظهر لا بالجوهر وأنها فشلت فشلا ذريعاً فى توفير العدالة والأمن والسلام لهذا العالم المضطرب القلق !.
فلننظر الآن فى أصول المذهب الثانى الذى يتنازع العالم مع الديمقراطية لنبحث فى زواياه عن العوامل التى ساعدت على إيجاده . ومبلغ التطور الذى لازمه . ثم تأثيره فى مستقبل العالم إن قدر له أن يعيش .

## (٢) الشيوعية

وأول ما يعن لنا أن نستظهره هنا هو أن الشيوعية قامت لتمثيل رد الفعل العنيف ، لما كان يسود العالم الديمقراطى من نظام رأسمالى جشع ، ومن تفاوت طبقى مستبد . ومن ظلم اجتماعى عميت فظهرت فى سنة ١٨٨٠ الدعوة إلى الديمقراطية الإقتصادية . وإلى العـدالة الاجتماعية على يدى بعض المفـكرين فى كل من فرنسا وألمانيا . والمهم هو أن نعلم أن الدعوة إلى الاشتراكية ،وهى التى تطورت فيما بعد إلى الشيوعية كانت نتيجة حتمية للتقدم الفنى والثورة الصناعية، واستخدام العـلم وحده كقاعدة أساسية لحياة الانسان اليومية . فما لاشك فيه أن « كارل ماركس » مؤسس هذا المذهب كان يتخيل إلى أى مدى سيصل الأمر بالبلاد الصناعية إلى تفاوت طبقى مخيف . وإلى استغلال قاتل للأيدى العاملة ، ثم احتـكار موارد الثورة فى البلاد الصناعية فى أيدى فئة قليلة العدد ، شرهة إلى جمع المال . ثم استعلائها على غيرها من الأغلبية الساحقة من جموع الشعب الـكادحين وتسخيرهم لاشباع رغباتها النهمة التى لاتشبع أبداً ! . . ومن هنا رأى أن الثورة الاشتراكية لن تتحقق بقوتها وعنفها إلا فى دول تـكون

الصناعة قد بلغت فيها شأواً كبيراً حيث يقبض على زمام الحكومات طبقات رأسمالية بما لها من قوة ونفوذ، ثم حيث يتيسر تكتل العمال ووجود شيء من الوعي بينهم!. ذلك أن ازدهار الصناعة وما تتمتع به من حريات مطلقة في الإنتاج والتوزيع وتحديد الأسعار سيؤدي بالضرورة إلى المنافسة . وإلى اشعال الحرب الشعواء من المضاربات الحرة بين فئة الرأسماليين بعضهم بعض . ولابد أن تنتهي هذه الحرب إلى انتصار أحدهم وحينئذ تصبح الثروة كلها، وموارد الانتاج كله، مركزين في أيدي فئة قليلة العدد بينما الغالبية العظمى من الشعب تمسي في حالة من العوز والفاقة، وفي مستوى لا يرتفع في شيء عن مستوى العبيد الأرقاء ، وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد ، كان ذلك إيذانا بأفول نجم النظام الرأسمالي، حيث سيقضي على الصناعة لتكدس منتجاتها بدون استهلاك ، نتيجة لفقدان القدرة على الشراء من جموع المستهلكين، لأنهم أصبحوا في حالة من العوز والفاقة بسبب احتكار الصناعة ، وتجمع الثروة كلها في أيدي فئة قليلة العدد ، تتسلط عليها الأنانية الفردية. وتتملكها غريزة الغطرسة ، وحب الاستعلاء بما تملكه من نفوذ، وسلطات لا يحد منهما، ولا يقف في طريقهما شيء ، ولذلك كان نجاح الثورة الاشتراكية في روسيا وهي بلد زراعي لم تبلغ فيها الصناعة شأواً بعيداً كما بلغته في الدول الصناعية الكبرى مثل انجلترا وفرنسا أو غيرهما من الدول على خلاف ما قدره «كارل ماركس». ولكن لعلنا لا نبعد كثيراً عن الصدق لو قلنا ، إن نجاح الثورة الشيوعية في روسيا يرجع إلى عاملين أولهما : تفكك النظام القيصري وانحلاله . وتخلف روسيا عن النهوض . وعن التقدم العلمي . والاجتماعي بينما غيرها من الدول الأوربية

قد مضت قدما ، فى سرعة ومضاء إلى التفوق العلمى، والنهوض الاجتماعى فمن الثابت تاريخياً أن الشعب الروسى كان يجهل كل شىء عن الفلسفة الشيوعيـة ولم يكن يعنيه إلا القضـاء على الظلم الاجتماعى ، والفوضى الاقتصادية ، اللذين كانا متسلطين عليه آخذين بخنـاقه لا يرى فـكاكاً منهما إلا بمحاربتهما محاربة حياة أو موت : فـكان أن انقـادت الغالبية الساحقة من الشعب إلى أى دعوة تخلصها من هذا الظلم الاجتماعى المفزع ومن هذا النظام الطبقى المميت، فالقيصر وحاشيته وأسرته من النبلاء والأشراف كانوا يملـكون وحدهم نصف أرض روسيا بينما تعانى غالبية الشعب مرراة السخرة ، وعبودية العيش ، حتى أن الأوضاع القائمة كانت لا تبيح أن يترك أرض سيده، فـكان يتبعها إذا ما بيعت إلى سيد آخر وهكذا!.. فى مثـل هذا المجتمع المفـكك الموبوء الذى يسـوده الظلم ، ويمرع فيه الفقر ، والجهل ، والانحطاط ، لا بد أن تنجح أى ثورة ولو كانت غير الشيوعية متى كانت موجهة إلى القضاء على هذا النظام الإقطاعى وتخليص الشعب من آثاره المفجعة الممضة .

أما العامل الثانى فى نجاح الثورة الشيوعية فى روسيـا القيصرية فهو ما كان يمتـاز به زعيم الثورة من حنـكة ، وعبقرية فى التنظيم والتدبير فلولا قوة شخصية « نيقولاى لينين » واستخدامه العلم فى توطيد أركان النظام الشيوعى، لما قدر للثورة أن تنجح ، وتوطد دعائمها إلى هذا الحد الذى أذهل أبناء روسيا أنفسهم فما لا شك فيه أن الهـدف الذى تنشده الفلسفة الشيوعية هو جعل الأرض والصناعة . وكل مصـادر الإنتـاج ملـكاً للدولة توجهه ، وتسيطر عليه لصالح المواطنين جميعاً ، ولـكن هذا

المبدأ أوجد مقاومة عنيفة أول الأمر لا من جانب أصحاب الضياع . والرأسماليين فحسب، وإنما من جانب كثير من الفلاحين، والعمال الأجراء أيضاً . ولكن هذه المقاومة تلاشت بعد حين تحت وطأة النظام الديكتاتوري وقسوته ، الذى اعتمدت عليه الثورة الشيوعية فى نجاحها واستمرار نموها ، ثم استخدامها بعد ذلك للعلم ، ولكافة أنواع المعرفة الانسانية، فى بناء مجتمعها الجديد ، على أساس من المناعة والقوة ، ويذكر الأستاذ ديزموند برنال ،كيف أن العلم والأفكار الجديدة كانت تحارب بقسوة فى عهد روسيا القيصرية، وكانت الطبقة الحاكمة تتوجس منها خيفة لما تحمله من مبادىء جديدة ، وآراء حرة غريبة على الشعب الروسى فيقول « إن المجتمع(١) الروسى يختلف أصلا عن أى مجتمع آخر فى أنه وجد فكرياً قبل أن ينفذ فعلا ، فكان بذلك أول مجهود يبذله الإنسان عن وعى لخلق البناء الذى ينظم حياته الاجتماعية ، والأسس العامة لهذا النشاط نشأت من الدراسات الانتقادية للنظم الرأسمالية التى قام بها ماركس وانجلز ولينين فى المائة سنة الأخيرة . فقد نشأ ماركس فى الفترة التى نما فيها العلم نمواً عظيما خلال القرن التاسع عشر . وقد رأى كما رأى غيره الاحتمالات التى يفتحها العلم بتقدمه أمام الإنسانية ولكنه رأى ما لم يره غيره ، وهو أن هذه الامكانيات لا ينتظر تحقيقها وعرف السبب فى ذلك . والحجر الأساسى فى الدولة الماركسية هو الاستفادة المباشرة بالمعرفة الإنسانية ، والعلوم والفنون لخير الإنسان ولذلك عندما تمكن لينين من إيجاد هذه الدولة والدفاع عنها فى

---

(١) رسالة العلم الاجتماعية ترجمة الدكتور ابراهيم حلمى .

السنوات الأولى من إنشائها ضد هجمات العالم عليها ، كان همه بعدئذ أن يتبين طريقة استفادة المجتمع بالمعرفة العلمية فعلا ، وقد فهم ماركس العلاقة الوثيقة بين النظريات العلمية وممارستها فى الفنون فهما كان أكثر وأوضح من فهم العلماء والمعاصرين لها ، وقد بين كيف يمكن جعل هذه العلاقة اللاشعورية بين النظرى والعملى ، شعورية . وبين أن ذلك لازم إذا أريد أن ينمو أيهما نمواً كاملا ، وقد شرح انجلز الذى درس العلم المعاصر طيلة حياته هذه الآراء بالتفصيل ، وكذلك قضى لينين وقتا طويلا وهو فى المنفى دارساً أحدث التطورات العلمية ومحللا إياها ، وناقدا لها ، ولهذا بدأت الدولة السوفيتية فى بناء العلم حسب خطة محكمة منطقية حتى قبل أن تنتهى من أمر الحروب الأهلية والمجاعة.

ولم يكن هذا العمل هيناً ، فقد كان العلم دخيلا غير مهضوم فى روسيا القيصرية منذ أن أدخلته الامبراطورة كاترين الكبرى . ولم يكن له وجود قط عند الجماهير ، بينما كانت الطبقات الحاكمة تتوجس خيفة مما فيه من آراء حرة ، ولذلك لم يكن العلم يشجع إلا بالقدر الذى يكفى حاجيات الأداة الحكومية ، والجيش ، ولغرض الفخر والشهرة ، إذ كانت روسيا القيصرية ترى فى وجود أكاديمية للعلوم بها مما يؤيد الدعوى الجوفاء بأنها قطعة من أوروبا لا تقل حضارة عن أى دولة أوروبية ».

وعلى كل حال فإن الاتجاه الذى كان يرمى إليه ( كارل ماركس ) من أن الثورة ستتمخض فى النهاية عن إقامة عالم لا طبق تسوده المساواة ، والتعاون العالمى ، والإخاء ، والحرية المطلقة . . هذا الاتجاه

لم يتحقق حتى الآن على وجهه الأكمل فما زالت روسيا تحكم حكماً ديكتاتورياً قاسياً ، وما زالت تئن تحت نظام العزلة وإقامة ستار حديدى بينها وبين العالم .

وإذا سلمنا برأى من يقول إن نجاح النظام الشيوعى، واستقراره حتى الآن شر أصيب به العالم فيمكن أن تصدق هنا الحكمة التى تقول إن الخير يأتى أحياناً عن طريق الشر . فما لاشك فيه أنه لولا الخوف من تسرب هذا النظام إلى كثير من بلاد العالم الديمقراطى ، وملاقاته تربة صالحة ينمو فيها ، لظلت هذه البلاد حتى الآن تعانى مرارة الظلم الاجتماعى وقسوة النظام الطبقى ، فالنظام الاشتراكى ، والعدالة الاجتماعية التى تسود معظم العالم الغربى الديمقراطى تمت تحت ضغط هذا النظام الشيوعى مما دعا إلى إقامة سد منيع يحول بين الشيوعية وبين التنفس والنماء .

بقى بعد كل هذا أن نعرف موقف الإسلام من هذين المذهبين اللذين يتنازعان العالم . ولا يعلم إلا الله أيهما سيصرع الآخر ويقضى عليه بعد أن يخرجا من طور هذه الحرب الباردة إلى حرب أخرى سافرة لا تبقى ولا تذر .

وأول شىء نقرره هنا أن الإسلام فى مبادئه ، وغاياته العليا يتفق مع النظام الديمقراطى ،حسب تطوره الأخير فى أشياء،ويختلف عنه فى أشياء أخرى ، ولسنا هنا نعقد مقارنات بين نظام من صنع الإنسان ، ونظام من صنع الإله كما يقولون . لأننا بسطنا فى أول هذا الفصل أن المعرفة البشرية فى قوتها ، ونضوجها ، ما هى إلا أثر تكون عن طريق الدين

وبوحى من العقيدة فى الإله . فنحن لن نستظهر غير النتيجة الأخيرة المتعلقة بحياة الإنسان المادية . والتى تمخض عنها هذا النظام بعد جهاد طويل ، وسيل منهمر من الدموع ، والدماء . فحرية الرأى ، وحرية العقيدة ، والأخذ بتكافوء الفرص ، وسيادة العدالة الاجتماعية التى ينطبع بها النظام الديمقراطى حسب تطوره الأخير ، ولكن فى حدود ضيقة كما سترى بعد ، يقرها الاسلام ، فى شمولها ، وانطلاقها دون حدود أو قيود ، ويمكن أن نلخص هنا فى شيء من الايجاز ، أوجه الاختلاف بين نظرة الاسلام ، ونظرة الديمقراطية لظروف الانسان الجماعية ، ثم ما يكيف به حياته من نظام سياسى ، أو اجتماعى ، أو اقتصادى، ولكن نحب بادىءذى بدءأن نبدد هذاالوهم الذى سيطر على فئة غير قليلة من الباحثين حتى من ينتسبون منهم إلى الإسلام وهو أن حكم الاسلام الذى قام على أساس دينى كان دائماً مصطبغاً بصبغة الحكم الأوتقراطى، لا فى فترات محدودة، وإنما خلال تطوره التاريخى كله منذ قيام الدولة الأموية حتى آخر عهد العثمانيين، بعد أن لفظت الخلافة الاسلامية نفسها الأخير . ولكن إذا سلمنا بهذه الحقيقة فإننا لا يمكن أن نرجعها إلى ذاتية الدين أو أن نحمله مسئوليتها لأننا كما أوضحنا فى الفصول السابقة من هذا الكتاب ، أن الاسلام لم يتحقق فى قوته وشموله وكماله دون أن تصطنع فيه أشياء غريبة عنه، إلا فى عهود ثلاثة فقط ، هى عهد النبى، وعهد أبى بكر ، وعهد عمر. لا نستثنى بعد ذلك أى عهد من العهود اللهم إلا عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ! . . فالخلافات التى قامت تحت ظل الاسلام منذ العهد الأموى حتى عهود انحلالها وتلاشيها لم تكن تعبر عن روح الاسلام الحقة . . ومع ذلك فالانصاف يقتضينا

أن لا نغفل فى ذهننا ، ونحن ندرس الروح التى كانت مسيطرة على تلك الخلافات ، مراحل التطور البشرى ، وهى التى تدل على أن القافلة الانسانية فى أى منطقة من مناطق العالم جميعه ، لم يكن قد توفر لها بعد إلا القليل جداً من عوامل الوعى والإدراك ، والمقارنة النزيهة بين حكم الخلفاء المسلمين ، وبين حكم غيرهم من قياصرة وملوك بقية دول العالم تدل على أن العالم الاسلامى كان أسعد حالا عن غيره من بقية الشعوب التى كانت مثخنة الجراح تئن تحت وطأة حكم مستبد قاس لا يراعى شيئاً من الحق والعدالة فى أبسط مظاهرهما ، فكانت خاضعة فى استسلام وفى إذلال وخنوع ، لقانون ظالم . هو شريعة الغابة بعينها ! .

ومع ذلك فالإسلام يختلف عن النظام الديمقراطى ، وغيره من النظم التى تسود معظم العالم اليوم فى أن الحكم فيه لا يقوم إلا على أساس الشورى وحدها . فإقامة الحكم للعصبية أو الوراثة أو القوة أو النفوذ ، أو أى عامل آخر لا يقره الإسلام فى شىء ، ولعل ما سجلناه فيما سلف من فصول هذا الكتاب ، يعطيك صورة واضحة عن أن إقامة الخلافات الإسلامية كانت تؤخذ عنوة واقتداراً ، أو تحت سلاح الخوف والإرهاب ، دون أدنى حرية فى التعبير . أو إرادة لأهل الحل والعقد من المسلمين ، حتى أصبح الحكم ، أوتقراطياً لا يخضع لمشيئة جمهور المسلمين فى شىء . فروح الحكم الاستشارية الخالصة التى كانت مسيطرة على مقاليد المسلمين ، والتى كانت قائمة على أساس أن يظل الخليفة حاكماً للمسلمين ، مهيمناً على شئونهم ما دام يحسن الحكم ، ويقيم العدل ، ولا يظلم الرعية فى شىء ، فإن حاد عن الطريق الذى رسمه الإسلام سقطت

عنه البيعة وحل آخر مكانه ! . هذه الروح تلاشت تماماً منذ قيام معاوية ابن أبى سفيان على شئون العالم الإسلامى بهذا الخداع والنفاق السياسى الذى يتوارى خجلا أمام مقتضيات الأمانة والخلق الكريم . ومنذ ذلك الحين أصبح الحكم ملكا عضوضاً ، يورث كما تورث عروض الحياة دون أدنى التفات لشخصية الخليفة ، ومقدار حظه من الكياسة والنبوغ ، أو التقوى والصلاح .

بقى هناك جانب خطير يتصل اتصالا وثيقا بحياة العالم الديمقراطى من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، ولكنه لا يتفق ونظرة الاسلام فى شىء . فالديمقراطية الغربية تنظر إلى المال، أو إلى كل ما يقوم به من ثروات منقولة أو غير منقولة على أنه فى ذاته غاية ، وتعطيه تبعاً لذلك قيمة أرفع بكثير من العمل! ولعل المشاكل المعقدة، والاضطراب الاقتصادى الذى ينتاب العالم الديمقراطى اليوم ، هو أثر من آثار تلك النظرة المادية المتغطرسة . . ولقد كان جزء كبير من العالم الغربى يلطف هذه الحياة المادية التى يخضع لها بشىء من المثاليات ، ونوع من الروحانيات التى انحدرت إليه من تاريخه القديم وذلك قبل الحرب الأخيرة . أما بعد أن خرجت أمريكا من عزلتها ، وأصبح لها تأثيرها الفعال فى اقتصاديات كثير من الدول الأوربية فإن هذه المثاليات ، والروحانيات قد تلاشت تماماً وأصبح « الدولار » هو إله أوروبا المعبود وإذا قدر للعالم الغربى أن تظل أمريكا مسيطرة على مكان القيادة منه فسينهار هذا العالم لا محالة لأن أمريكا تكيف نظرتها للأمور وحكمها على الأشياء على ضوء أو تحت تأثير نظامها الاقتصادى ولا شىء سواه !. والدارس لتطور الاقتصاد

فى أمريكا ، أو فى أوروبا قبل أن تسود معظمها النظم الإشتراكية نجد أن ما تتحقق فى هذا النظام من عدالة اجتماعية لا يرجع فى أصله الأول إلى الوجدان ، أو يقظة الضمير ، وإنما يرجع إلى ضرورات اقتصادية وإلى خشية انهيار النظام الرأسمالى من أساسه ، ذلك أن فقدان القدرة على الشراء من المستهلكين وهم جمهور الشعب سيؤدى بالضرورة إلى تكديس المنتجات ، وبالتالى إلى تعطل المصانع ، وانتشار البطالة فينهار النظام الرأسمالى من أساسه فتحاشياً من كل ذلك ، واتقاء لشرور الهزات الاجتماعية التى تقضى على مقومات الدولة وجد ما سمى أخيراً بالتكافل الاجتماعى ! . . وبما يدل على صدق نظريتنا هذه أن العالم الديمقراطى إذا كان قد تخلص بعض الشىء وتحت هذه الظروف القاهرة من الأنانية الفردية فإنه قد أسلم زمامه لنوع آخر من الأنانية أمعن فى الشر ، وأشد فى البلاء وهو الأنانية الجماعية ، والاستغلال الاقتصادى لغيره من الشعوب فما وجد من عدالة اجتماعية ، ومن حريات عامة ، ومن مثل عليا للحياة ينظر إلى كل ذلك على أنه شىء من الميزات أو الخصائص لا سبيل للغير إلى التطلع إليها ، أو على أنه سلعة ليست قابلة للتصدير ، وإنما هى للاستهلاك المحلى فقط ، ومن هنا ترى مدى الإثم الذى يكمن وراء تلك الديمقراطية الزائفة التى فى سبيل البقاء على مطامعها واستغلالها للشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها تشجع فيها كل عوامل الفساد والانحلال والتأخر ، وذلك لتظل بقرة حلوباً تستغل فى يسر وبلا مقاومة .

هذه صورة خاطفة لما عليه العالم الديمقراطى اليوم . أما وجهة نظر الإسلام فى ذلك فتختلف اختلافاً بيناً . فالمال ليس غاية لذاته وإنما هو

بمثابة وظيفة اجتماعية ، يشارك فى ملكيته . والانتفاع به المجتمع بطريق غير مباشر ، فالملكية الفردية مباحة فى الإسلام ولكن تتوفر لها شروط . وتحدها قيود تجعلها خاضعة لمطالب الحياة الجماعية . والقرآن صريح فى تقرير هذا المبدأ «وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاء أمْوَالَكم الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ» لأن السفيه لا تتوفر له الإمكانيات الذاتية فى تثمير المال وتسخيره لخدمة المجتمع والنهوض به، ومما يزيد هذا المعنى تأكيداً ، هذه الآية الكريمة التى لا تحتاج إلى تأويل «وَالذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» . وسبيل الله هنا هو كل ما يخضع لضرورات المجتمع من توفير الهدوء والاستقرار فى العيش . ومن الدفاع عن كيانه والذود عن مقوماته فيما يعتريه من هزات اجتماعية أو اقتصادية . . ولكن الإسلام لم يكتف بذلك وإنما يريد أن يقضى فى صرامة وقوة على ميكروب النظام الطبقى الذى ينشأ عادة من سوء التوزيع الاقتصادى للدولة فيوجب ضرورة التوازن فى دخل الأفراد ، وبذلك يقضى على كل العوامل التى ينشأ فى ظلها الربا والاحتكار . . . كَيْلا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغْنِيَاء مِنْكم»

فنظرة الإسلام للمال وتحديد صلته بالمجتمع أنه ليس إلا أداة أو وسيلة لتنظيم التبادل بين المجتمع . وتلبية مطالبه وحاجياته فى سهولة ويسر . فالصلة التى تربط بين المال وبين حياة البشر من الناحية الاجتماعية والاقتصادية . لا تخرج عن كون هذا المال أداة لوظيفة من الوظائف . يزاولها الفرد، ويدين بأدائها للمجتمع . فمن قصر أو من لم

تساعده طبيعته وتكوينه الذاتى على التكافؤ مع مقتضيات هذه الوظيفة والقيام بأدائها كما ينبغى، كان على الدولة أن تتدخل لتحفظ حق المجتمع فى ذلك .

وإذا كانت هذه النظرة تختلف مع النظام الديمقراطى ، قبل أن يخضع للنظريات الاشتراكية الأخيرة فى إعطائه للفرد حريات واسعة مطلقة ، لمزاولة نشاطه الاقتصادى على الوجه الذى يروق له ، وإنفاقه للمال بالصورة التى تتراءى أمامه فإنها كذلك تختلف معه فيما يسيطر عليه من روح استغلالية جشعة للغير ، ومن أنانية معربدة تحولت من الفردية إلى الجماعية ! !

فنظرة الإسلام فى شمولها ونضوجها تتسم بالعدالة المطلقة ، وبالروح العالمية ! . . ولعل فيما رد به الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز على عامله ما يعطينا صورة صادقة تترجم عما نذهب إليه ، فلقد سأله عامله على أحد الأمصار أن يقيد دخول الناس فى الإسلام لتلافى ما أصاب الخزينة من تدهور فى الإيراد نتيجة لقلة دافعى الجزية فكان رده عليه: « إن الله أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جابياً ! ! » : ولكن ربما يتساءل أحد الناس فيقول : إذا كان الإسلام يختلف مع الديمقراطية فى نكران روحها الاستغلالية للغير . فما باله قد أقر الجزية وشرعها حتى بين الأمم التى خضعت له فى استسلام دون حرب أو مقاومة ؟ وجوابنا على ذلك أن الإسلام فرض على المسلمين الزكاة وهى نوع من الضريبة مخصصة لجهات محددة . ومعلوم أن هذه الزكاة فضلا عن أنها واجبة الأداء للدولة لتتصرف فى جهاتها المقررة فإنها كذلك ركن من أركان العبادة ومظهر من مظاهر الشعائر الإسلامية . وعدالة الإسلام المطلقة التى

كفلت حرية العقيدة لم تشأ أن تجبر غير المسلمين على أن يزاولوا شعائرهم الدينية فكانت هذه الجزية التي توازي في مقدارها على وجه التقريب ضريبة الزكاة . ومما يدل دلالة قوية على صدق ما نذهب إليه أنه في عهـــد عمر بن الخطاب طلبت قبيلة بني تغلب أن تعفى من الجزية وأن تؤدي ضريبة الزكاة مثل المسلمين فكان لها ما أرادت ! !

بقي بعد ذلك أن نلم بأوجه الاختلاف بين الإسـلام وبين النظام الشيوعي كما تحقق حتى الآن في روسـيا السوفيتية . وأول شيء نحب أن نقرره أن المثل الأساسية للمذهب الاشتراكي كما تخيلها «كارل ماركس» قد فشـل تحقيقها حتى الآن في روسيا السوفيتية ، فالتحرر من الروح القومية ، وعدم التعصب لها ، الذي هو أهم أساس في الفلسفة الشيوعية . لم يقف على قدميه بل لم يتنسم الهواء بعـــد ، فما زال الشعب الروسي يقدس وطنه ، ويتعصب له ولا يستشعر أي معنى من المساواة التامة مع غيره من الشعوب حتى مع من يدينون معه بالمذهب الشيوعي . ثم إن القضاء على الملكية الخاصة وعدم الحاجة إلى المال أو النقد التي تنادي بها النظرية الشيوعية لم يقدر لها هي الأخرى الصمود طويلا لمنافاتها لطبيعة البشر وحياة الإنسان الفردية أو الجماعية .. ومن المثل الحالمة التي قررها «كارل ماركس» في فلسفته الاشتراكية فيما يختص بحياة الفرد وطبيعته الذاتية ومكانته في الدولة التي يعيش فيها «أن يعمل كل بقـدر طاقته وأن يعطى كل بقدر حاجته» ولـكن هـذه المثل لم يتحقق منها في النظام الشيوعي في روسيا السوفيتية إلا الشطر الأول وهو : «أن يعمل كل بقدر طاقته» ولـكن أن يعطي «كل بقدر عمله فقط» .

وهكذا عند ما تتابع التطور الذى لازم المذهب الشيوعى عنـــد مواجهته لواقع الحياة ، وللطبيعة البشرية نجـده فى نظرياته الحالمة . وفى فلسفته المـاركسية لم يصـمد طويلا أمام واقع الحياة · ومقتضيات الطبيعة البشرية .

وإذا كان الوضع الاقتصادى للنظام الشيوعى قد اتفق بعض الشىء مع ما قرره الإسـلام من القضاء على عوامل الاحتـكار . ومن تحريم التعامل الربوى ثم من إخضاع كل موارد الدولة لمطالب الحياة الجماعيـة إلا أننـا نراه يختلف معـه فى الوسائل التى تؤدى إلى ذلك ، فالشيوعية تتدخل تدخلا كاملا فى شئون الفرد حتى تشل حريتـه . وتـكاد تلغى شخصيته كلها لتذوبها فى المجتمع ، أما الإسلام فيؤمن بالإنسان وبجدوى نشاطه الفردى . فيقدس حريته الفردية ، ويحيطها بسـياج من المنعة ، ولا يتدخل إلا فى حالتين فقط : الحالة الأولى ، عندما لايتـكافأ تـكوين الإنسان النفسى والعقلى ، وما وضع فى يديه من مال لاستثماره فيما يعود على المجتمع بالفائدة والخير ، فيـكون من حق الدولة حينئذ أن تتدخل لتمنع ضياع هـــذا المـال الذى يرجع فى ملـكيته الأصيلة للمجتمع ثم للحيلولة دون استخدامه فى نواحى الفساد ، والعبث ، وإثارة الغرائز المنحطة مما يحدث أبلغ الضرر بحقوق المواطنين . أو عندما تتجمع لدى الفرد كل عوامل التضخم فيطغى على غيره . ويكاد يحتـكر شيئاً مما يلزم المجتمع ، حينئذ يوجب الإسلام تدخل الدولة لحفظ التوازن بين حرية الفرد ، ومصلحة المجموع ، فيأخذ من الأول كل فضلاته ليعطيها للثانى كما تراءى ذلك لعمر بن الخطاب عندما قال فى آخر خلافته «لواستقبلت من أيامي ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فوزعتها على الفقراء» .

أما فى الحالة الثانية فعندما يعجز الفرد عن أن يؤدى عملا من الأعمال يتعيش به ، وذلك لمرض ميئوس من شفائه منه ، أو شيخوخة تقعد به عن مزاولة أى وجه من أوجه النشاط ، فيكون من حقه أن يشرك الدولة فى مسئولياته الحياتية فتقدم له ما يفى بحاجياته ، ويحيا به حياة كريمة ، ونظرة الإسلام إلى ذلك لا تقف كما قلنا عند المسلمين فقط وإنما تتسع فتشمل غيرهم ممن يعيشون تحت راية الإسلام ، ولقد مر عمر بن الخطاب وهو فى طريقه إلى الشام بقوم مجذومين من النصارى فأمر بأن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت من بيت المال !! وعندما رأى شيخاً ضريراً يسأل الناس وكان يهوديا قال له : ما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده وأعطاه ما يكفيه ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول له : « انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نخزه عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب » .

هذا هو الإسلام بسطناه لك فيما رسمه للعالم من قوانين خلقية ، واجتماعية ، واقتصادية تتأثر كلها بإيحاءات وبواعث أوامره التعبدية ، وطبيعته العقيدية . وقد حرصنا على أن نسلك فى ذلك سبيل البحث العلمى الخالص ونحب قبل أن نضع القلم أن نوضح هذا الأمر الذى يشغل أذهان كثير من المسلمين وهو الدعوة إلى ضرورة تحكيم التشريع الإسلامى فى حياة المسلمين السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية بالصورة التى كان عليها فى صدر الإسلام الأول . إننا لا نحب أن نخدع أنفسنا فنتمسك بالقشور عن اللباب فإذا كنا حقيقة نحرص على بلوغ ما رسمه الإسلام للعالم من غايات فالسبيل إلى ذلك ألا نتغاضى عما فى

هذه النظم التى تسيطر على حياة العالم اليوم من أساس للعدالة المطلقة ، ومن نظام فى الحكم والسياسية ، والاجتماع لا يبتعد كثيراً عما شرعه الإسلام للعالم منذ أربعة عشر قرناً ، وإن كان قد تم كما قلنا بثمن باهظ من الدماء والدموع ، والثورات الفكرية المضنية . قدمته البشرية عن رضى خلال تطورها التاريخى . وإنما يجب فقط أن نطعم هذه النظم بمثل الإسلام العالية ، وأن تكيفها وتسيطر عليها روحه الواعية وليست العبرة فى كل نظام من النظم بالتمسك بوسائله ، وإنما فى تحقيق أهدافه .

إن الإسلام يملك من اتساع الأفق ، ومن المرونة ومجابهة الواقع ، ومن الوعى الصحيح الكامل بطبائع البشر ، ومطالبهم الحياتية ، ما لم يتوفر لأى دعوة أخرى سماوية ، أووضعية ، ولذلك نجده فى بيئته الأولى العربية أبقى على عادات وصفات خيرة مما كان يتخلق به العرب فى حياتهم الجاهلية .

فلا بأس إذاً من أن نحتضن ما فى هذه النظم والمذاهب الحديثة من مبادئ ونظريات فى السياسة والاجتماع والاقتصاد تتفق فى غاياتها مع روح التشريع الإسلامى فضلا عن أنها وجدت تحت ضغط عوامل ومشكلات معقدة لم تواجه المجتمع الإسلامى الأول . . . ومن يدقق النظر قليلا يرى أن طبيعة عصر النبى وظروفه كانت تختلف عن عصر أبى بكر ، وأن عصر عمر كان يختلف فى ظروفه ، وما طرأ عليه من مشكلات طارئة عن كليهما ، ولم يقف أى خليفة من الخليفتين جامداً . وإنما اجتهد رأيه وعالج هذه المشكلات بما تقتضيه من علاج يتباين ويختلف باختلاف الظروف والأشياء .

ثم إن التقدم العلمى ، ونضوج المعرفة البشرية ساهم فيها الإسلام مساهمة فعالة قوية بازدهار حضارته فى الأندلس بينما كان العالم كله يعيش فى جو مظلم دامس لا يعرف للمعرفة ولا للنور طريقاً غير منارة الاسلام الشامخة فى قوة واعتدال ، ويكفى الاسلام فخراً ومساهمة فى خدمة الحضارة البشرية أنه حافظ على التراث الانسانى من الضياع من غارات التتار التى كانت تمثل الهمجية والوحشية ، كأقصى ما عرف فى التاريخ البشرى !.. فمن يريد أن يقصر بواعث نضوج المعرفة الانسانية سواء فى العلوم المجردة والعلوم التجريبية أو فيما اصطنع من نظريات ومذاهب تنظم حياة البشر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً . نقول إن من يريد أن يقصر هذه البواعث على العالم الغربى وحده كأنها خصائص ذاتية له ! . إما مغرض ، أو ضيق الأفق ، جاهل كل الجهل بطبيعة التطور البشرى . ثم إن القلق والاضطراب الذى ينتاب العالم اليوم ليس مرجعه إلى تقدم الصناعة والعلم ، وتنوع وسائل المعرفة ، كما ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين ، وإنما يرجع إلى سوء التربية الخلقية والنفسية ، وإلى عدم التخلص من الأنانية القاتلة ، حتى إن زعماء الغرب وقادته يطلعون إلى العالم فى ظروف حرجة كقيام حرب مدمرة ، بمبادىء مثالية تقوم على التحرر من الخوف والجوع ، وعلى سياسة المساواة التامة ، وضمان حرية الإنسان ، ثم لما تمضى تلك الظروف نراهم يتنكرون لما نادوا به ويتخلصون من ذلك بأن هذه مثاليات لا تتفق وطبيعة البشر ! .. ومن هنا نجد أن الاسلام هو وحده الذى يملك أن يجعل هذه المثاليات حقائق واقعة ، لأنه يتجه بدعوته ، وبتربيته إلى داخل النفس وخارجها على السواء ، فيقضى على كل موجبات الأنانية فردية كانت أم جماعية ، التى هى شر ما ابتليت به الانسانية قديماً وحديثاً .

إن الإسلام باعتباره أول دعوة عالمية يتوفر له من اتساع أفقه كل لعوامل الفعالة التى تجعل التعاون العالمى ، والانسجام البشرى حقيقة واقعة كل الغاية التى ينشدها فى روحه التشريعية هى النهوض بالجنس الانسانى التسامى بغرائزه البشرية حتى إننا لا نبعد عن الحقيقة لو قلنا إن كل ما دعا إليه من أمور تعبدية ما هو فى الواقع وحقيقة الأمر إلا صمام لأمن والسلام لحياة الإنسان نفسياً ومعيشياً .

وبعد : فإننا نرجو أن نكون قد ساهمنا فى تكوين وعى إسلامى صحيح بما بسطناه هنا من ظروف تطور الاسلام التاريخى، وكل الذى ننشده أن تكون هذه التجارب القاسية التى يطفح بها تاريخنا الإسلامى كافية لأن تجنب المسلمين الخطأ والاضطراب فيما يسعون إليه من بناء جبهة موحدة ، تترجم عما ينفعل فى نفوسهم من عوامل الوعى واليقظة ، وتفرض شخصيتهم الدولية ، وتأثيرهم الفعال فى مجريات أمور البشر حتى يعترف العالم للاسلام آخر الأمر بمكان القيادة فيما يسعى إليه من حياة أفضل ؟

الطبعة الأولى

( القاهرة فى ٢٥ رجب سنة ١٣٧١ هـ — ٢٠ ابريل سنة ١٩٥٢ م )

# فهرست الكتاب

الموضـــوع — الصفحة

الموضوع　　　　　　　　　　الصفحة

الموضــــوع　　　　　　　　　　　　الصفحة

---

استـــدراك

في صفحة ٢٠١ سطر ٩ : « كانت لا تبيح أن يترك »
وصحتها : « كانت لا تبيح للاجير أن يترك »

كتب ظهرت للمؤلف :

| | قرشا |
|---|---|
| ١) هذا هو الإسلام | ٢٥ |
| ٢) أيامي أو فلسفة الحياة | ١٥ |
| ٣) محاكمة الزمن أو طه حسين | ٢٠ |
| ٤) مع عقلاء الإنس ومجانين الجن | ٦ |
| ٥) هل أفلست حضارة أوربا ؟ | ١٠ |
| ٦) لا أومن بالعقل | ١٠ |
| ٧) البعث أو مذهب السلام | ١٥ |


Bibliotheca Alexandrina
0230630